

# المختصر

الدكتور أحمد محمد الحوفي

أستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة  
وعضو مجمع اللغة العربية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

# البرمجشري

الدكتور أحمد محمد الحوفي  
أستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة  
وعضو مجمع اللغة العربية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < niktba.net



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ... وبعد .

إن الأمة العربية ما كادت تفيق من خوارها حتى تلفتت إلى ماضيها للشرق ، قُبُصِرَتْ به أعظم ماضٍ تفاخر بمثله أمة ، ووجدت فيه أنفس تراث يخال بشبهه خلف ، فأيقنت أنها لا تستطيع أن تبدل حاضرها ، ولا أن تحقق آمالها في مستقبلها ، إلا بالتأسي بماضيها العظيم ، فجعلت تستحي هذا الماضي ، وتبتعث مفاخره ، وتجلّ عظمته ، وتدرس أبطالها وعظماءها وعلماءها وأدباءها ومفكراتها دراسة واعية موحية .

ولأمر ما نعدُّ من العرب أعلاما من أعصار شتى ، ومواطن متباعدة ، وثقافات متعددة ، لأنهم جميعاً عرب ، امتزجوا بالعروبة ديناً ولغة وثقافة وإنتاجاً وتاريخاً وحضارة ، حتى إن كثيراً منهم يمتنون إلى أصول غير عربية ، ولكنهم نسوها أو ذكروها على أنها أطيايف من ماضٍ سحيق ، لطول العهد بينها وبينهم ، ولسلطان العروبة الغلاب على بيئاتهم ، إذ كانت العربية ينبوع الشريعة ، ولغة الثقافة أحقاباً متوالية ، لا تنازعها لغة من لغات الأمم التي نشر العرب عليها ظلالهم .

بهذا التصور كتبت عن الطبرى من قبل ، وبالتصور نفسه أكتب عن الزمخشري اليوم .

ومن حق الزمخشري أن يخص بدراسة مفصلة متكاملة تكشف عن



عصره وحياته وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته ، وتفوقه وابتداعه ، فقد كان في الصدارة بين علماء عصره ، وكان إماماً في أفانين من المعرفة ، وخلف في كل منها آثاراً بقي منها كثير ، واحتجب منها كثير ، ولعله يسفر بعد طوال احتجاب ، وإن مابقي من آثاره لكفيل بتقديره ، والتنويه به ، والاحتفاء بذكراه .

وقد رجعت إلى ما كتبه القدماء عنه ، وقرأت مؤلفاته مطبوعة ومخطوطة ، لأستنبط منها أحداث حياته ، ومعالم شخصيته ، وخصائصه الفكرية والفنية ، ومثلت بنماذج من كتبه لتكون كالإشارة التي تدل على معالم الطريق الطويل .

ولست أنسى أن أنوه بالدراسة التي قام بها الدكتور مصطفى الجويني في كتابه ( منهج الزمخشري في تفسير القرآن ) وبالفصل الذي كتبه الدكتور شوقي ضيف عن الزمخشري في كتابه ( البلاغة تاريخ وتطور ) .

وإني لأرجو أن يمنح الله دراستي هذه من السداد والتوفيق ما يجعلها جديرة بما قصد منها وأريدت له ؟

أحمد محمد الحوفي

# تخصيص بيعة (١) خوارزم

هنالك على حفافى نهر جيحون فى آسيا الوسطى كانت ولايات خمس هى الصفد و طاسمتاها بخارى و سمرقند ، وفى غربى الصفد خوارزم التى تسمى اليوم خيوه أو كيوه ، و صفانيان ، و فرغانة ، و الشاش المسماة الآن طشقند .  
وقد فتح العرب الإقليم سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلى<sup>(١)</sup> .  
ولم يلبث هذا الإقليم بعد الفتح أن صار مركزا من مراكز الثقافة العربية والإسلامية ، و مشرقا لكثير من كبار العلماء كالزنجشى و الرازى و السكاكى و المطرزى .

وحسبنا من وصف خوارزم وما جاورها أن نذكر ما قاله ثلاثة من الرحالة شاهدوها بأعينهم وأقاموا بها زمنا .

فالمقدسى رحل إلى إقليم المشرق - وكانت تطلق هذه التسمية على إقليم خراسان وما وراء النهر - فى عهد الدولة السامانية التى حكمت من ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ (٨٧٤ - ٩٩٨ م) فوصفه بقوله : « إنه أجل الأقاليم ، وأكثرها أجلة و علماء ، وهو معدن الخير ، ومستقر العلم ، وركن الإسلام المحكم ، وحصنه الأعظم ، ملكه خير الملوك ، وجنده خير الجنود ، فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك .  
وقد قال محمد بن عبد الله لدعائه : « عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ،

ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ،  
ومنا كبوكواهل ، وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ولغات نغمة...  
وأهل خراسان أشد الناس تفقها ، وبالحق تمسكا ، وهم بالخير والشر أعلم ، وإلى  
إقليم العرب ورسومهم أقرب ، وإقليمهم أكثر أجلة وعقلاء ، مع العلم الكثير ،  
والحفظ العجيب ، والمال المديد ، والرأى الرشيد ، به مرّوا التي قامت بها الدنيا ،  
وبلّغ وإليها المنتهى ، ونيسابور فلا تنسى .

وهو أكثر الأقاليم علما وفقها ، وبه يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ، وأولاد  
على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشميا إلا غريبا ، ومذاهبهم  
مستقيمة ، غير أن الخوارج بسجستان ونواحى هراة كثيرة ، وللمعتزلة بنيسابور  
ظهور بلاغية ، وللشيعة والكرامية بها جلبة ، والغلبة فى الإقليم لأصحاب  
أبى حنيفة إلا فى كورة الشّاش وطوس ونسا وأبيورد فإنهم شفعوية (شافعية)  
ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس .

ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب فى أكثر الأشياء ، فلم يؤذنين سرير  
قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان ، ويذكرون بلا دفاتر - من غير كتب  
يقرءون فيها - وبنيسابور رسوم حسنة ، منها مجالس المظلم فى كل يوم أحد  
وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره... وألسنتهم مختلفة ، أما لسان نيسابور  
فقصيح مفهوم ، غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ، وفيه رخاوة ، وأهل طوس  
ونسأ أحسن لسانا... وبهذا الإقليم عصبية بين الشيعة والكرامية وبين  
الشافعية والحنفية ، وقد يهراق فى هذه العصبية الدماء ، ويدخل بينهم السلطان .

ولهم مجالس عشيات تُجمع شهر رمضان للمناظرة بين يدى السلطان ، فيبدأ هو فيسأل  
مسألة ثم يتكلمون عنها... إلى أن يقول : وأقل إمام فى الفقه والأدب والقرآن  
لقيته له تلميذ خوارزمى قد تقدم ونفذ فى فنه واستقام <sup>(١)</sup> .

والذى يسترعى النظر من هذا الوصف :

١ — كثرة العلماء ، وتقدير الحكام لهم .

٢ — الكلف بالحفظ .

٣ — إجلال نسل علي بن أبي طالب ، وكثرة الشيعة .

٤ — كثرة المعتزلة بنيسابور خاصة .

٥ — العصبية بين الشيعة والكرامية ، وبين الشافعية والحنفية .

٦ — الكلف بالمناظرات :

وجاء في وصف ياقوت لإقليم خوارزم أنه موفور الخيرات، كثير الثمرات، جميل المناظر، وقال إن أهله كرام الأخلاق، وإن لم يكونوا من ذوى الظرف والكياسة. وزار ياقوت عاصمة خوارزم (الرجانية) سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) فوصفها بأنه لم يرمدينة أعظم منها ولا أكثر أموالا ولا أحسن أحوالا<sup>(١)</sup>. ويقول في موضع آخر إنه زار إقليم خوارزم سنة ٦١٦ هـ فلم ير ولاية أعمر منه، فإنه — على رداءة أرضه وكثرة سبخها ونزوزها — متصل العمارة، متقارب القرى، كثير البيوت المفردة والقصور في صحاريها، وقلما يقع النظر في رسائيقه — ضياعه ومزارعه — على موضع لا عمران منه، هذا إلى كثرة الأشجار والخيرات. وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين، ويندر أن تكون قرية بغير سوق، والأمن هناك شامل والطمانينة تامة<sup>(٢)</sup>.

ووصفها ابن بطوطة بعد عصر الزمخشري — في رحلته التى بدأها من المغرب إلى المشرق سنة ٥٧٢٥ (١٣٢٤ م) واستغرقت ٢٧ عاما — بقوله « لم أر فى بلاد

(١) معجم البلدان ٧٩/٢ .

(٢) معجم البلدان ٤٧٤/٣ .



الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوساً ، ولا أحب في الغرباء .  
ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم ، وهي أن المؤذنين في مساجدها يطوف  
كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلماً لهم بحضور الصلاة ، فمن لم يحضر  
الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة ، وفي كل مسجد درة معلقة برسم  
ذلك ، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد ، أو لإطعام الفقراء والمساكين ،  
ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة من قديم الزمان <sup>(١)</sup> .

ومن البديهي أن وصف ابن بطوطة - وإن كان بعد عصر الزمخشري -  
ينبئ عن أخلاق أصيلة قديمة العهد ، لأن السجايا الحميدة لا تكتسب سريعاً بعد  
تجرد وخلاء ، ولأنه يذكر أن عاداتهم في ضرب المتخلف عن صلاة الجماعة قديمة  
منذ زمان بعيد .

وفي إقليم خوارزم عدة مدن ، منها الجرجانية وزمخشري وخوارزم ، وزمخشري  
إحدى قرى خوارزم القريبة منها ، ويظهر أن كلا منها امتدت فتداخلتا ،  
لأن القفطي يقول : سمعت بعض التجار يقول إنها قد دخلت في جملة المدينة ،  
وإن العبارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها ، فصارت من جملة محالها <sup>(٢)</sup> .  
وإلى زمخشري هذه نسب جار الله محمود بن عمر ، فقبل الزمخشري ، وهذه  
النسبة حين تذكر لا تنصرف إلا إليه .

والبرد شديد جداً هناك ، حتى إن الثلج كثيراً ما يؤثر في الأطراف  
فتسقط ، ويذكر ابن خلكان أنه شاهد خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم في  
خوارزم بسبب البرد ، ويعلق على هذا بأنه من الخطأ أن يستبعد من لا يعرفه <sup>(٣)</sup> .  
ويذكر ياقوت أنه رأى نهر جئحون - وعرضه ميل - وهو جامد ، والقوافل  
والعجول الموقرة ذاهبة وآية على جليده <sup>(٤)</sup> .

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ٢٩٨/١ .

(٢) إنباء الرواة ٣٦٥/٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤ .

(٤) معجم البلدان ٤٧٤/٤ .

وكثيراً ما ردد ابن بطوطة آلامه من برد الاقليم ، حتى إنه كان يتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار ، فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها ، وإذا غسل وجهه بالماء ووصل الماء إلى لحيته جمد ، فيسقط منها شبه الثلج ، والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب<sup>(١)</sup> .

ويقول إن نهر جيحون يجمد في أوان البرد ، ويسلك الناس عليه ، وتبقى مدة جهوده خمسة أشهر<sup>(٢)</sup> . ويقول إن السلطان علاء الدين طر مشيرين — سلطان ماوراء النهر — أعطاني سبع مئة<sup>(٣)</sup> دينار دراهم وفروة سمور تساوي مئة دينار طلبتها منه لأجل البرد ، وأعطاني فرسين وجلين ، ولما أردت وداعه أذركته في طريقه إلى الصيد ، وكان اليوم شديد البرد جدا ، فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة ، لشدة البرد ، ففهم ذلك وضحك ، وأعطاني يده وانصرفت<sup>(٤)</sup> .

## (٢) الحياة السياسية

خضعت تلك البلاد للحكم العربي مدة ، ثم آل الأمر فيها إلى ثلاث دول متتابعة . أولاها الدولة السامانية من سنة ٢٦١ إلى ٨٣٨٩ ( ٨٧٤ — ٩٩٩ م ) وقد نشأ السامانيون في بلخ واتخذوا بخارى عاصمة لهم ، وكانوا في عصرهم الذهبي أصحاب النفوذ والسلطان بالشرق كله ، ثم تقلص ظلهم فشمّل خراسان وماوراء النهر وحدهما . وإذا كانوا قد جدوا في تشجيع الأدب الإيراني ، وكانت الفارسية لغتهم الرسمية في أكثر سنوات ملكهم ، فإنهم جمعوا في قصورهم كتاب العربية كما جمعوا كتاب الفارسية ، واجتذبت عاصمتهم بخارى كثيرا من العلماء

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ٢٩٤/١ .

(٢) مهذب الرحلة ٢٩٨/١ .

(٣) هكذا آثرت كلمة مئة ومركباتها .

(٤) مهذب الرحلة ٣٠٩/١ .

والشعراء ، وكانوا حماة لأهل السنة — إلا في نحو أربعين سنة من القرن العاشر الميلادي — ففي عهدهم ألف كتاب في العقائد باللغة العربية لوقاية الشعب من الرافضة ، ثم ترجم إلى الفارسية ، وترجم تفسير الطبري إلى الفارسية ، كما ألف بها تفسير آخر ، وأفقي الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية<sup>(١)</sup> .  
ثم قضى محمود بن سبكتكين الغزنوي على دولتهم سنة ٥٣٨٩هـ<sup>(٢)</sup> .

وثانيها الدولة السلجوقية المظني<sup>(٣)</sup> من سنة ٤٢٩ إلى ٥٥٢ ( ١٠٣٧ — ١١٥٧م ) التي امتلكت خوارزم سنة ٤٣٤ هـ ثم خراسان وبلاد الري وأصبهان وأذربيجان ، وكان نفوذ البويهيين قد انحسر عن بغداد ، فتقدم طغرل بك إليها ودخلها بغير حرب سنة ٤٤٧ هـ ، وقبض على آخر سلاطين بني بويه ، ومن هذا التاريخ قامت الدولة بالعراق وماوراءه .

وهي تنقسم إلى خمسة بيوت ، يهمن منها البيت الأول ، وملوكهم السلاجقة العظام الذين ملكوا خراسان والري والجليل والعراق والجزيرة وفارس والأهواز ، وقد قامت من سنة ٤٢٩ إلى ٥٢٢ ( ١٠٣٧ — ١١٢٨م ) وعاصر الزمخشري من ملوكها :

- |                                   |              |
|-----------------------------------|--------------|
| ١ — عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان | ٤٥٥ — ٤٦٥ هـ |
| ٢ — جلال الدين أبو الفتح ملكشاه   | ٤٦٥ — ٤٨٥ هـ |
| ٣ — ناصر الدين محمود              | ٤٨٥ — ٤٨٧ هـ |
| ٤ — ركن الدين أبو المظفر بركياروق | ٤٨٧ — ٤٩٨ هـ |
| ٥ — ركن الدين ملكشاه الثاني       | ٤٩٨ — ٤٩٨ هـ |

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٨ بارتولد .

(٢) وفيات الأعيان ٢٤٥/٤ .

(٣) الدولة العباسية ٤١٢ للبخاري . وكانت للسلاجقة دول غيرها أقل منها شأنًا .

٤٩٨ — ٥١١

٦ — غياث الدين أبو شجاع محمد

٥١١ — ٥٢٢

٧ — معز الدين أبو الحارث سنجر

ثم انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم .  
ويرتبط تاريخ هذه الدولة باسم وزيرها العظيم نظام الملك الذي استورزه ألب أرسلان ، واستعان به في إدارة ملكه ، ثم استورزه ابنه جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ، فقام بالتدبير والإصلاح خير قيام ، وبفضله اتسع نفوذ جلال الدين ، فخطب له من حدود الصين شرقا إلى آخر الشام غربا ، وازدهرت الآداب والفنون ، وازدانت المدن بالمدارس والمستشفيات . وكان جلال الدين سلطانا عادلا شجاعا متدينا ، وكان وزيره عالما جوادا مشغوقا بالعلم معظما للعلماء ، وهو الذي أمر بالآلا يلحن الأشعرية والرافضة على المنابر ، إذ كان الوزير عميد الملك الكندري قد زين للسلطان طفرليك لعن الرافضة ، فأمر بذلك ، فأضاف إليهم الأشعرية ، ففارق كثير من العلماء بلادهم ، مثل إمام الحرمين وأبي القاسم القشيري ، ولم يسكتف نظام الملك بإلغاء ذلك ، بل أعاد العلماء إلى أوطانهم <sup>(١)</sup> .

ثم قتل الوزير سنة ٤٨٥ هـ ، ومات السلطان بعده بنحو شهر ، فأفلت شمس آل سلجوق ، ونشبت الفتن بين كبارهم ، وحكموا السيوف فيما بينهم ، فكانت النتيجة سقوط دولتهم ، وقيام الدولة الخوارزمية .

أما الدولة الثالثة التي حكمت خوارزم فهي الدولة الخوارزمية التي نشأت إمارة (أتابكية) في خوارزم ، وجعلت تتقوى وتتوسع ، على حين أن الدولة السلجوقية تضعف وتضيق ، فلما سقطت السلاجقة خلفهم الخوارزميون ، وضموا تحت لوأئهم الأقاليم التي كان يحكمها السلاجقة .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢٦/١٠ ، ٧١ .



وهذه الدولة تنتسب إلى نوشتكين أحد الأتراك في بلاط ملكشاه السلجوقي .

أما مؤسسها الحقيقي فهو ابنه محمد<sup>(١)</sup> الذي عينه أحد قواد السلطان بركياروق السلجوقي (٤٨٧ — ٥٤٩٨ هـ) حاكماً على إقليم خوارزم ، ولقبه خوارزم شاه . وقد جعلت هذه الدولة الناشئة تمتد وتقوى منذ أئسز بن محمد بن نوشتكين ، ثم تصارع سنجر السلجوقي وأئسز صراعاً استمر حتى توفي أئسز سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) وتوفي سنجر بعده بعام ، وكانت وفاة سنجر نهاية للسلاجقة في فارس وخراسان ، فلم يجد الخوارزميون بعده من يعوق طموحهم أو يحتجز اتساعهم ، فاستطاع إيل أرسلان بن أئسز أن يبسط سلطانه على غربي خراسان . ثم امتدت الدولة غرباً في عهد تكش خوارزم شاه ، وصار لها نفوذ على أمراء العراق ، واستعان الخليفة العباسي الناصر لدين الله بتكش على طغربك آخر السلاجقة في بغداد ، فرحب تكش بهذه الفرصة المواتية ، والتقى جيشه بالجيش السلجوقي عند الري سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) وانجبت المعركة عن انتصار تكش ، وعن قتل طغربك .

وحينئذ بسطت الدولة الخوارزمية سلطتها على الأقاليم العراقية التي كانت للسلاجقة ، فاحتل تكش همدان عاصمة سلاجقة العراق سنة ٥٩٠ هـ واحتل أصفهان والري . ثم حارب دولة (الخطا) شرقاً ، واستولى على إحدى مدنها المهمة وهي بخارى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) . وفي عهد ابنه علاء الدين محمد تم اقتطاع مدينتي بلخ وهراة من الدولة الفورية سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) كما نجح في هزيمة دولة (الخطا) سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) فاستولى على بلاد ما وراء النهر ، ثم مد نفوذه إلى إقليم كرمان وإقليم مكران وإلى الأقاليم التي غربي نهر السند ، وبهذا طوق غزنة عاصمة الدولة الفورية ، واحتلها سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .

(١) الدولة الخوارزمية والفول ١٩ وسلاجقة إيران والعراق ١١٨ .

كان الخوارزميون يتطلعون إلى تكوين دولة إسلامية عظيمة ترث  
الدويلات الإسلامية والإمارات المتناثرة المفككة ، وقد تم لهم النصر على  
السلجقة سنة ٥٩٠ هـ فسيطروا على العراق العجمي ، وحكموه من قبل الخليفة  
العباسي ، وطالبوا الخليفة بأن يحل اسمهم في خطبة الجمعة يحل أسلافهم السلجقة ،  
وأن ينقش اسمهم إلى جوار اسم الخليفة على النقود ، ثم طلب تكش من  
الخليفة الناصر أن يعيد دار السلطنة في بغداد إلى ما كانت عليه أيام السلجقة  
فلم يستجب الناصر لهذه المطالب .

فلما تولى علاء الدين محمد العرش بعد أبيه تكش أعد العدة لغزو بغداد<sup>(١)</sup>  
سنة ٦١٤ ( ١٢١٧ ) فتأهب الناصر لصدّه ، وساعدته عوامل عدة على النجاة  
من هذا الغزو ، وفي الوقت نفسه كان سيل المغول يكتسح ما أمامه .  
وإذاً فقد خلف الخوارزميون السلجقة على فارس وخراسان والعراق ،  
وخلفوا الغوريين ، واستولوا على بلاد ما وراء النهر .

أما عاصمتهم فكانت تارة مرو — عاصمة خراسان — وتارة سمرقند —  
عاصمة بلاد ما وراء النهر — وحيناً أصفهان كبرى مدن العراق العجمي .  
وامتد حكم هذه الدولة من سنة ٤٩١ إلى ٦٢٨ هـ ( ١٠٩٧ — ١٢٣٠ م ) ،  
وقد فاجأها المغول في عهد ملكها علاء محمد شاه فقر منهم ومات سنة ٦١٧ هـ  
وفي السنة نفسها هجموا على خوارزم ، فتولى الدفاع بعده ابنه جلال الدين  
منكبرتي ، وقاومهم في بسالة وبطولة إلى أن لقيهم في قلة من رجاله ، فلما أيقن  
أنه لا بد من أن يقتل أو يؤسر ألقى بنفسه من مرتفع على شاطئ نهر السند ،  
وهو على صهوة جواده لينجو فيلقاهم من جديد ، فضرب بهذا الصنيع مثلاً رائعاً  
للبطولة والفداء ، وما زال يقاومهم بعد ذلك حتى انتهت دولته سنة ٦٢٨ هـ<sup>(٢)</sup> .

---

(١) لهذا الغزو أسباب منها أن علاء الدين اعتنق المذهب الشيعي واجتهد في إسقاط  
الحلافة العباسية من بغداد وإقامة خلافة علوية مكانها .  
(٢) سيرة جلال الدين منكبرتي ١٦٠ .

كان الوزراء في الدولة الخوارزمية يبالغون من السلاطين أعظم التقدير ، فيجلسونهم عن أيمنهم في المحافل العامة ، وكان الوزير الذي يلقب بنظام الملك لا يقبل أن يدخل عليه وهو في دست الوزارة مهما تكن مكانته ، إجلالا للمنصب لأنه قائم مقام السلطان .<sup>(١)</sup>

وكثيرا ما عهدوا بحكم الأقاليم أو المدن إلى حكام أطلقوا على كل منهم لقب وزير<sup>(٢)</sup> ، فلما قوى نفوذ الأتراك صار الوزراء أكثر حرية ، فاستأثروا بثروات الأقاليم ، وتمرّدوا على السلاطين .

• أما سلاطين الدولة فهم ثمانية<sup>(٣)</sup> ، وأما السلاطين الذين عاصرهم الزمخشري فهم :

١ - نوشتكين من ٤٧٠ إلى ٤٩٠ هـ (١٠٧٧ - ١٠٩٦ م)

٢ - قطب الدين محمد » ٤٩٠ - ٥٢١ هـ (١٠٩٦ - ١١٢٧ م)

٣ - أئسر » ٥٢١ - ٥٥١ هـ (١١٢٧ - ١١٥٦ م)

ومن هذا يتبين أن الزمخشري عاصر تأسيس الدولة ، وأدرك ثلاث عشرة سنة من عهد أئسر ، لأن الزمخشري عاش فيما بين سنة ٤٦٧ و ٥٣٨ هـ ، فلم يدرك سقوط آل سلجوق وقيام الخوارزميين مقامهم ، إذ كانت نهاية السلاجقة سنة ٥٥٢ هـ .

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٠ ، ٢٤٧ .

(٣) الدولة العباسية ٤٥١ الحضري ، وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ١ ، والدولة الخوارزمية والمغول ٢٧٣ .

## (٣) حياة الثقافة

ما كادت أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر وغيرها تخضع للحكم العربي حتى جعلت تستعرب، وتكاثرت فيها بذور اللغة العربية والأدب والعلوم الإسلامية، وسرعان ما نبنت وبسقت فروعها، وأبنت ثمارها.

فلا غرابة في أن كثر العلماء والمؤلفون والأدباء في خوارزم، لأنها بيئة كثيرة الخيرات، ومنتجع الوافدين الذين يطمثون إلى طيب المقام، ولأن أهلها أقبلوا على الإسلام بشغف، ونشطوا أيما نشاط في تعلم اللغة العربية لغة القرآن والحديث، وهما مصدرا الشريعة ومنبعها، فلما كانت النهضة العلمية والأدبية في العصر العباسي ازدادوا ركضا في ميادين الثقافة العربية.

وكان نشاطهم العلمي والأدبي مقرونا بالغيرة على الإسلام، والحرص على تعاليمه، والحفاظ عليه من أعدائه المحيطين بهم.

ثم إن المدارس كانت كثيرة في الإقليم، وكان العلماء والمؤلفون والمدرسون جادين في التعليم والتثقيف والتأليف، وكانت المكتبات العامة عديدة، والحكام حراصا على تشجيع الحركة الفكرية، كلفين بتقريب الشعراء إليهم، ليضيفوا إلى ملكهم هبة وجمالا، ولينافسوا سلفهم وجيرانهم من السلاجقة وغيرهم في الجاه وحسن الأحدث وبعد الصيت.

ولأهل خوارزم اتجاه في التفكير اشتهروا به، فقد وصفهم المقدسي بأنهم أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب، وقال إنني قلما لقيت إماما في الفقه والقرآن والأدب ليس له تلميذ من خوارزم<sup>(١)</sup>.



(١)

# في خوارزم

وإذا أردنا أن نختص خوارزم وحدها بالنظرة السريعة وجدناها تنموج بالعلماء والأدباء ، منذ عاش هنالك أخلاط من الفرس والعرب والترك ، ومنذ أقامت الدولة الخوارزمية ملكها على أنقاض السلاجقة في فارس والعراق وخوارزم ، وعلى أنقاض الدولة الغورية في غزنة ، وامتلكت ما وراء النهر ، فورثت ثقافات هؤلاء جميعا .

ولقد شجع الخوارزميون الأدباء والعلماء ، فازدانت دولتهم بكثير منهم ، ويذكر النسوي — وهو الكاتب المؤرخ الذي خالطهم وعمل في دولتهم — أن سلاطينهم عمروا قصورهم بالشعراء والكتاب والعلماء من فرس وعرب ، وقربوهم إليهم ، وأغدقوا عليهم ، كما فتحو المدارس ، وشجعوا الوعاظ ، على الرغم من أن بعضهم مثل السلطان محمد بن تكش كان تركيا قلل المعرفة باللغة العربية <sup>(١)</sup> .

ويذكر أن الدولة كان لها ديوان إنشاء وقرض ، وأن هذا الديوان كان أرفع رتبة من ديوان الطغراء عند السلاجقة ، وكان له رئيس ويتبعه كتاب يلقب كل منهم بنائب <sup>(٢)</sup> .

أما إنتاج هؤلاء الأدباء والعلماء فإنه كان بالعربية وبالفارسية ، فمن الذين أنتجوا بالفارسية زين الدين أبو إبراهيم إسماعيل بن حسن الجرجاني — عاش في ظلالهم من سنة ٥٠٤ إلى ٥٣١ هـ — وألف كتابا في الطب سماه ذخيرة خوارزم شاه ، ومنهم رشيد الدين محمد عبد الملك البلخي الملقب بالوطواط المتوفى بخوارزم

(١) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٥١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق ٥٧ ، ١٩٤ ، ٢٥١ .

سنة ٥٧٣ هـ ( ١١٨٧ م ) كان رفيقا وصديقا للسلطان أتيقز، وكان شاعرا البلاط في عهده، وفي عهد إيل أرسلان وابنه علاء الدين تكش، وهو مؤلف كتاب ( حقائق الشعر في دقائق الشعر ) وهو من تلاميذ أبي سعد آدم بن أحمد المروزي<sup>(١)</sup>

ومنهم محمد بن قيس الذي كان في عهد علاء الدين خوارزم شاه . وألف كتاب ( المعجم في معايير أشعار المعجم ) لأبي المظفر خوارزم شاه .

وبعضهم برع في الإنتاج بالعربية والفارسية مثل الوطواط ، الذي كان أفضل زمانه في النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب ، وكان ينشئ في حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر ، ويمليهما معا . وله ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية ، ومؤلفات أخرى ، ومن رسائله ما كتبه لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري :

لقد حاز جـار الله - دام جماله - فضائل فيها لا يشق غبارُه  
تجدد رَسْمُ الفضل بعد اندثاره بآثار جـار الله فالله جاره  
ثم أتبع البيتين رسالة نثرية ، يثنى فيها على الزمخشري ، ويود أن يكون من تلاميذه<sup>(٢)</sup> .

ومن هؤلاء نصرة الدين حمزة بن محمد بن عمر ، كان يحفظ سقط الزند لأبي العلاء المعري ، واليمينى للعتبي ، والملخص لفخر الدين الرازي ، والإشارات لابن سينا ، وله بالعربية والفارسية أشعار مدونة ، وأما ترسله فالسحر الحلال والمذب الزلال<sup>(٣)</sup> .

(١) معجم الأدباء ١٠٣/١ و ٢٩/١٩ .

(٢) معجم الأدباء ٢٩/١٩ .

(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ١٨٧ .

ومتهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حيدر بن علي الخوارزمي ( ولد سنة ٥٥٩ ) له من التصانيف كتاب ديوان الأنبياء ؛ وكتاب شرح كليلة بالفارسية ، وكتاب الوسائل إلى الرسائل ( من ثره ) وديوان شعر بالفارسية ، وكتاب الخطب في دعوات ختم القرآن ، سماه بقيمة القيمة ، وكتاب الطرفة في النحو بالفارسية وغيرها (١) .

ومهم محمد النسوي — نسبة إلى مدينة نسا بخراسان — الذي كان كاتب الإنشاء للسلطان جلال الدين منكبرتي . ثم وزيراً له في مدينة نسا ، وهو مؤلف أدق كتاب في سيرة جلال الدين .

وكان ثمة علماء وأدباء تفوقوا في الإنتاج بالعربية مثل أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ( ٩٩٣ م ) وهو شاعر نثر عالم ، كان يحاضر بأخبار العرب وأيامها وأشعارها ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر (٢) .

ومثل أبي سعيد الشيباني الفارس الأديب ، كان في أيام شبابه بخوارزم يقول شعراً جاسياً ، فلما عاشر الناس ، ولقى الأدباء لطف طبعه ، ورق شعره ، وقد اختص بالدولة السامانية والدولة البويهية فسمى صاحب الجيشين وشيخ الدولتين (٣) .

ومثل أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الرقاشي من أبناء الوزراء بمدينة خوارزم ، وكان مثل كشاجم كاتباً شاعراً منجماً (٤) .

ومثل أبي الحسين أحمد بن محمد الشهلي الخوارزمي ( المتوفى سنة ٤١٨ هـ ١٠٢٧ م ) كان من أجلة خوارزم ، وبنيته بيت رياسة ووزارة وكرم ومروءة ،

(١) معجم الأدباء ١٥/٢ ، وسلم الوصول ٣٢/١ .

(٢) بقيمة الدهر ١١٤/٤ .

(٣) بقيمة الدهر ١٥٤/٤ .

(٤) القيمة ١٥٧/٤ .

وكان يجمع بين آلات الرياسة وأدوات الوزارة ويضرب في العلوم والآداب  
بالسهام الفائزة، وله كتاب الروضة السهلة في الأوصاف والتشبيهات، وبمشورته  
صنف الحسن بن الحارث الحسّوني في المذهب كتاب السهلي يذكر فيه المذهبين  
مذهب الشافعي والحنفي. خرج من خوارزم سنة ٤٠٤ هـ إلى بغداد وتوطنها،  
وترك وزارة خوارزم شاه أبي العباس مأمون خوفا من شره (١).

ومثل الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الحوفي (حوالي ٤٤٤ هـ) من تلامذة  
الشيخ أبي حامد الإسفرايني، تفقه عليه ببغداد، وبيته بيت كبير، قال صاحب  
الكافي في تاريخ خوارزم إن بيته معمور بالعلماء منذ نحو مئتين وخمسين سنة،  
وأطال في ترجمته (٢).

ومثل أبي القاسم محمود بن عبد العزيز العارضي الخوارزمي الملقب بشمس الدين  
(٥٢١ هـ - ١١٢٧ م) كان من أفضل الناس في عصره في علم اللغة والأدب،  
وتخطى إلى الفلسفة فصار مفتونا بها، وكان يطالع الفقه وينظر في مسائل  
الخلاف، سمع الحديث من أبي نصر القشيري وغيره، وأملى طرفا منه وشرحه.  
وكان الزمخشري يدعو الجاحظ الثاني، لكثرة حفظه وفصاحة لفظه.  
أقام مدة بخوارزم مكرما في خدمة خوارزم شاه، ثم ارتحل إلى مرو،  
فمات بها (٣).

ومثل أبي علي الحسن بن المظفر الشاعر المصنف الذي كان مؤدب أهل  
خوارزم في عصره ومخرجهم وشاعرهم ومقدمهم، وهو شيخ أبي القاسم الزمخشري  
قبل أبي مضر، ومن مصنفاته التي رأها ياقوت: تهذيب ديوان الأدب، تهذيب

(١) معجم الأدباء ٣١/٥.

(٢) طبقات القاسية ٤٨/٣.

(٣) معجم الأدباء ١٢٦/١٩.



إصلاح للطلق ، ديوان شعره ، ديوان رسائله ، زبانات أخبار خوارزم<sup>(١)</sup>  
ومثل أبي الحسن علي بن عمراق الصناري ( المتوفى سنة ٥٣٩هـ - ١١٤٤م  
مُذَنِّاة وهي قرية من قرى خوارزم ) كان نحوياً لغوياً عروضياً فقيهاً مفسراً  
مذكوراً ، درس بخوارزم وبخارى ، وصنف كتاب شمع الدُرِّ في تفسير  
القرآن<sup>(٢)</sup> .

ويكفي للدلالة على كثرة العلماء وتقديرهم ما ذكره النسوي في سيرة السلطان  
محمد بن تكش ، وهو أنه سير إلى خوارزم برهان الدين محمد بن أحمد بن  
عبد العزيز البخاري المعروف بصدر جهان ، رئيس الخفية ببخارى وخطيبها  
المقدم ، وكان في جملة من يعيش في ظل برهان الدين وإدارة سلفه ما يقرب ستة  
آلاف فقيه ، وكان كريماً يقصده العلماء والفضلاء<sup>(٣)</sup> .

وقد سارت طريقة التأليف في خوارزم على غرار الطريقة في البلاد العربية ،  
ففي النحو والصرف والعروض لم تخرج عما سنه المؤلفون في العراق والشام ومصر  
والأندلس ، وفي اللغة سلكت الاتجاهين المعروفين ، وهما تأليف المعاجم على ترتيب  
الألفاظ كما نجد في أساس البلاغة للزمخشري ، أو تأليف المعاجم على حسب  
المعاني كما نجد في قسم الأسماء من ( مقدمة الأدب ) للزمخشري .

وأما في البلاغة فقد تميز الخوارزميون بما تميز به المشارقة بعامة ، وهو التأثير  
بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، على حين أن أهل العراق والشام ومصر  
والأندلسيين والمغاربة تأثروا بالمذهب الأدبي .

وإذا كان مذهب المشارقة قد اتضح عند الزمخشري والرازي والطبري .

(١) معجم الأدباء ١٩١/٩ .

(٢) معجم الأدباء ٦٣/١٤ .

(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٦٨ .

والسكاكي وأشباههم ، فإنه كان أقدم منهم ، إذ برزت معالنه في كتابي أسرار  
البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، وهو متكلم على مذهب  
الأشعري ، ولكنه يمتاز بتروعه الأدبي وذوقه للرصف عن الذين خلفوه ،  
فصبروا البلاغة علما جافا تعوزه نفحة الأدب ورفيف الجمال .

ويظهر أن طول ممارستهم للفلسفة والعلوم العقلية جعلهم ينفلون بدراسة  
البيان والمعاني أكثر مما ينفلون بدراسة الألفاظ وفنون البديع .

وقد تنبه ابن خلدون إلى عناية المشاركة بالبيان والمعاني فقال : <sup>(١)</sup> « لا والعناية  
به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم أكثر من غيره ، وبالجمله  
فالمشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، وسببه — والله أعلم — أنه كمال في  
العلوم اللسانية ، والصنائع السكالية توجد في العمران ، والمشرق أوفر عمراناً من  
المغرب كما ذكرناه ، أو نقول لعناية المعجم — وهم معظم أهل المشرق — كتفسير  
الزمخشري ، وهو كله مبني على هذا الفن ، وهو أصله ، وإنما اختص بأهل المغرب  
من أصنافه علم البديع خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرعوا  
له ألقاباً ، وعدوا أبواباً ، ونوعوا أنواعاً ، وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين  
الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ ، وصعبت عليهم مأخذ البلاغة — يريد علم  
المعاني — والبيان لدقة أنظارهما ، وغموض معانيهما ، فتجافوا عنهما » .

والمشاركة أصحاب السبق إلى تقسيم علوم البلاغة إلى بيان ومعاني وبديع .

ولأهل خوارزم بخاصة الفضل في هذا المجال منذ الزمخشري والسكاكي <sup>(٢)</sup>

إلى اليوم .

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢١٥ .

(٢) السكاكي : أبو بطوب يوسف بن أبي بكر ، من أهل خوارزم ، علامة في العربية  
والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر ، متكلم فقيه . ولد سنة ٥٩٤ هـ وتوفي سنة  
٦٢٦ هـ وصنف مفتاح العلوم في اثني عشر مجلداً ( معجم الأدباء ٥٨/٢٠ ) .

وعلى الرغم من أن السبكي من أصحاب المذهب الأدبي في دراسة البلاغة فقد أثار بفضل للمشاركة ، ونهج نهجهم ، وهذا واضح في قوله : « وأما أهل المشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ولا سيما العقلية والمنطق ، فاستوفوا همهم الشاغحة في تحصيله ، واستولوا بحدم على جلته وتفصيله ، وورعوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها بلاء سبجلتهم . وكيف لا ؟ وقد جلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، فلذلك عمروا منه كل دارس ، وعمروا من حصونه المشيدة ما رقد عنه الحارس ، وبلغوا عنان السماء في طلبه <sup>(١)</sup> » .

وهكذا كانت خوارزم ثرية بعلمائها وأدبائها قبل الزمخشري وبعده ، فلما اجتاحتها التار سنة ٦١٨ هـ ( ١٢٢٠ م ) دمروها ، وبددوا كثيرا من نفائسها وذخائرها ، لكن الحياة العلمية والأدبية لم تنقطع .

ثم تناوبتها الأحداث ، حتى امتلكتها دول أخرى فأسدلت الأستار على ماضٍ مشرقٍ وتراثٍ عظيم .

### المعتزلة

كانت العراق وفارس وخراسان وما جاورها من البلاد الفارسية ، ملأى بالشيعة <sup>(٢)</sup> ، وكان المعتزلة كثرة في هذه الأقاليم ، وكانوا الأكثرين في كل إقليم يحكمه الشيعة ، ولهذا انتشر مذهبهم بالعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر ، وعلا صوتهم منذ قامت الدولة البويهية سنة ٣٣٢ ( ٩٤٣ م ) ذلك أن الناس في تلك البلاد كانوا على مذهب السنة والجماعة ، فلما آل الحكم إلى بني بويه — وهم من غلاة الشيعة — ناصرُوا التشيع وأزروا الشيعة ، وفي سنة ٣٥٢ هـ أمر معز الدولة الناس أن يحتفلوا في العاشر من المحرم بذكرى قتل الحسين ،

(١) مروج الأفراح في شرح تلخيص الفتاح ٥/١ .

(٢) راجع أدب السياسة في العصر الأموي للمؤلف ٣٤ .

فأغلقت الحوائط ، وخرجت النساء مسودات الوجوه منشورات الشهور ،  
يلطمن وجوههن على شهيد كربلاء .

وفي الثامن عشر من ذي الحجة أمر بإظهار الزيندى في البلاد ليلاً ونهاراً  
احتفالاً بعيد الغدير<sup>(١)</sup> . وكان من أنصارهم الكبار الصاحب بن عباد الذي  
تولى الوزارة لفخر الدين البويهى من ٣٦٧ إلى ٣٨٥ هـ ، فقرب للمعتزلة وآثرهم  
بالمناصب العالية<sup>(٢)</sup> .

ثم ذاع الاعتزال واستقر بالشرق ، حتى لقد كان أكثر الشيعة ، في بلاد  
العجم معتزلة ، وأكثر فقهاءهم على الاعتزال ، وكثيراً ما وقعت المشاحنات  
بين العامة بسبب ذلك<sup>(٣)</sup> .

وهم كثير ، منهم بالقرب من خوارزم أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخى ،  
المعروف بالكعبي ( ٢٧٣ — ٣١٩ هـ ) كان من كبار المعتزلة ودعاتهم ، وانتهت  
رياستهم إليه وإلى أبي على الجبائى وأبى بكر بن الإخشيد ، كما ذكر ابن حزم  
في كتابه الفصل . دخل ( نسف ) فأكرمه أهلها إلا الحافظ عبد المؤمن  
ابن خلف .

(١) الغدير : غدير خم ، وهو موضع بين مكة وللمدينة على ثلاثة أميال من الجحفة ،  
به ماء كثير وحوله شجر كبير ، يروى الشيعة عن البراء بن عازب أنه قال : كنا مع رسول الله  
صلى الله عليه وسلم في سفر ، فزلنا بغدير خم ، فأمر بتنظيف مكان بين الأشجار الملتفة  
بالبغدير استعداداً لإقامة الصلاة ، ثم نادوا الصلاة جامعة ، فعلى الظهر . ثم أخذ النبي يد على  
ابن أبي طالب فقال : أستم تطعون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قلنا : بلى ، فقال : من  
كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل  
من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار . ألا هل بلغت ؟ قالوا ثلاثاً .

والشيعة يتخذون من هذا اليوم عيداً . وأول من اتخذ مع الدولة البويهى ، ثم جعله  
الفاطميون عيداً في مصر منذ سنة ٣٦٢ هـ حينما قدم المعز إليها ( الليل والنعل ١/ ١٤٤ ) .

(٢) معجم الأدباء ٢٢٥/٦ .

(٣) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٣٩ .

وهو صاحب فرقة من من المعتزلة سماها ابن التميمي<sup>(١)</sup> البلغية ، وسماها ،  
الشهرستاني الكعبية .<sup>(٢)</sup>

وقد وصفه أبو حيان التوحيدي بقوله : ناهيك به طالما وراويا وثقة<sup>(٣)</sup> .  
والمؤرخون متفقون على أن نجم المعتزلة بدأ بأقل منذ تولى الخليفة للتوكل سنة  
٢٣٢ هـ ( ٨٤٦ م ) لأنه اضطهدهم ، وعزل قضائهم ، وصاحداً أملاكهم ، وسجن  
كثيراً من رجالهم ، فضصف شأنهم ، وسخر الناس بهم ، كقول أبي العتاهية  
في الشجاعة بأحمد بن أبي حنيفة لما عزله التوكل وصاحداً ضياعه :

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشدي . . . وكان عزمك عزماً فيه توفيق  
لكان في الفقه شغل لو قنيت به . . . عن أن تقول كلام الله مخلوق  
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم . . . ما كان في الفرع لولا الجهل واللوق<sup>(٤)</sup>

ويقول ابن خلكان إنهم اتفقوا منذ تولى التوكل ، فلما ظهر أبو الحسن  
الأشعري سنة ٣٢٣ هـ ازدادوا انقاعاً ، لأنه كان معتزلياً فانشق على المعتزلة ،  
وقد كثيراً من آرائهم ، والتزم حداً وسطاً بين السنة والمعتزلة ، فلم يكن  
يعول على المنقول وحده كأهل السنة ، ولا على العقل وحده كالمعتزلة ، حتى  
ليعبر أنو بكر الصيرفي عن هذا بأنهم كانوا قد رفعوا رءوسهم ، فلما أظهر الله  
الأشعري حجراً في أقماع السمس<sup>(٥)</sup> .

ولكن خوارزم مع هذا كله كانت تموج بالاعتزال ، حتى ليندر أن نجد  
خوارزمياً ليس معتزلياً ، فإن كان غير معتزلي وأراد أن ينفي الاعتزال عن

(١) لسان الميراث ٢/٢٥٥ .

(٢) اللؤلؤ والنحل ١/٧٣ .

(٣) الحائر والآثار ١/١٤٣ .

(٤) تاريخ الطبري ١١/٤٦ ، اللوق : الحق .

(٥) وفيات الأعيان ٢/٤٤٧ .

نفسه أكد فيه ، كما نجد في وصف ياقوت القاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمي :  
« سأله عن مولده فقال : مولدى سنة خمس وخمسين وخمسمائة . وأحضرت  
فى منزله بخوارزم فرأيت منه صدرا يملأ الصدر <sup>(١)</sup> ، ذابجة سنينة وأخلاق  
هنية ، وبشر طليق ، ولسان ذليق ، فلا قلبى وصدرى . . . . . ورأيت شىخا  
بهى المنظر ، حسن الشبهة كبيرها . . . . . وقلت له : ما مذهبك ؟ فقال حنفى ،  
ولكن لست خوارزميا ، لست خوارزميا بكررها ، إنما اشتغلت ببخارى ،  
فأرى رأى أهلها ، نفى عن نفسه أن يكون معتزليا » <sup>(٢)</sup> .

وقد جعل الزمخشري اعتزال الخوارزميين أعظم فضائلهم <sup>(٣)</sup> ، وهو صادق  
فى هذا الحكم ، لأن الاعتزال شاع بينهم ، حتى إن عوامهم يدينون بأن  
القرآن مخلوق <sup>(٤)</sup> .

## القضاء

كانت الغلبة فى خوارزم لمذهب أبى حنيفة ، وكان لكن مدينة قاض يفصل  
بين الناس وفق الشريعة الإسلامية ، فإن كانت المدينة كبيرة وبها مذاهب  
متعددة عين الخوارزميون قضاء بعدد المذاهب ، وهؤلاء القضاء كانوا يقومون  
أيضاً بتدريس العلوم الدينية فى المساجد والمدارس <sup>(٥)</sup> .

وذكر ابن بطوطة فى وصفه لأمير خوارزم ( قُطْلُو دُمُور ) <sup>(٦)</sup> أن من

(١) برید ریاسة وهدوءاً يملأ القلب .

(٢) معجم الأدباء ٢٣٨/١٦ .

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري الباب التاسع مخطوط .

(٤) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ١٥٠ .

(٥) سيرة حلال الدين منكبرتي ٧٧ .

(٦) ضبطها بضم القاف وسكون الطاء وضم اللام ، وضم الدال والميم ، وقال : إن معنى  
الكلمة الأولى المبارك ومعنى الثانية الحديد ، فاسمه إذا الحديد المبارك ، وقال : إنه ابن خالة  
السلطان العظيم أوزبك وأكبر أمراءه وواليه على خراسان .



عادته أن يأتي القاضي كل يوم إلى مجلسه ومعه الفقهاء وكتابه ، ويجلس في مقابلة أحد الأفراد الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم ، ويحكم الناس إليهم ، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي ، وما كان من سواها حكم فيه أولئك الأمراء . وأحكامهم مضبوطة عادلة لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة<sup>(١)</sup>

(٢)

في الإقليم كله

لكن خوارزم لم تكن في عزلة عن الحياة العلمية والأدبية في المنطقة كلها ، ولا سيما الأقاليم المصاحبة لها ، إذ كانت هذه المنطقة موحدة الحكم في عهد العرب البويهيين والسامانيين والسلاجقة ، وكانت تياراتها الثقافية تجري هنا وهناك بين مجتمع من الفرس والعرب والترك<sup>(٢)</sup> .

وإنه ليسترعى الانتباه أن الإقليم الذي كان فارسيا واستعرب خرج مئات من الشعراء والكتاب واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين والمحدثين . وإذا كان البويهيون قد ذاع صيتهم بتقدير العلماء والأدباء فإن السامانيين كانوا مثلهم ، فكان نوح بن منصور الساماني يقدر العلماء ، ويؤثر استخدامهم في شئون الدولة ، ولما سمع بشهرة صاحب بن عباد وزير آل بويه كتب إليه يستدعيه إلى بخارى ليفوض إليه وزارته وتدبير مملكته ، فاعتذر صاحب بأنه يحتاج إلى أربع مئة جمل لنقل كتبه .

واشتهر وزيران من وزرائهم بشغفهما بالأدب والعلم ، أحدهما أبو الفضل

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ٣٠٠/١ .

(٢) كثير العرب هناك منذ الفتح ، وكثر الترك وعظم نفوذهم منذ عهد المنصور ، ثم توالى هجراتهم وكان السلاجقة من ثمار بعضها .

ابن عبيد الله التميمي الذي كان وزيراً لمصور بن نوح الساماني، وهو الذي ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية، والآخر أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني، الذي كان وزيراً للملك السابق، وكان يكرم قصاده ويعين مؤمليه<sup>(١)</sup>، فشجع هذان الوزيران العلم والأدب في بخارى كما شجعهما أبو الفضل بن العبيد والصاحب بن عباد في الري، فكان في قصر الصاحب بأصبهان والري وجرجان عشرات من ذوى العلم والأدب، مثل أبي الحسين السلامي وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأموني وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزعفراني وأبي العباس الضبي وأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني وبنو المنجم وأبي الفضل الهمداني وغيرهم<sup>(٢)</sup>، وقصده كثير من الأدباء من جهات شتى.

ثم كان السلاجقة أعظم رعاية للعلوم والآداب، بفضل الوزير نظام الملك الذي وزر لألب أرسلان (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ) ولابنه أبي القتح ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ)، وهو عالم دريس الحديث وعلوم السنة في طوس، وكان ينقب عن الممتازين منهم، ويبني لهم مدارس ليتعلموا بها، ويقف عليها الأوقاف، وينشئ في كل منها مكتبة، ويرتب للعلماء ما يكفيهم حتى يفرغوا للتعليم ونشر الثقافة بين الناس، ولما كثرت الأموال في خزانة الدولة خصص فيها لأرباب العلوم حقوقاً لا تؤخر، وصير هذه الحقوق ثابتة لهم وميراثاً لأبنائهم<sup>(٣)</sup>، وإليه تنسب المدارس النظامية التي أنشأها في أمصار شتى لتعليم الحديث.

ويذكر العماد الأصفهاني أن الآباء كانوا يترددون بأبنائهم النجباء على

(١) معجم الأدباء ١٧/١٥٧.

(٢) ينيرة الدهر ٣/٣٢.

(٣) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦، ٧١ وتاريخ آل سلجوق ٥٤.

مجلسه ، لأنه كان يتفرس في وجوههم ، فيرشح كلا منهم للمنصب الذي يلائم  
رشدہ وکفایتہ واستعدادہ <sup>(١)</sup> .

### المكتبات

ولا شك أن رعاية الثقافة تقتضي عناية بالكتب والمكتبات على النحو  
الذي نجد في وصف ياقوت لمدينة مرو وتقديره لكتبها التي انتفع بها في  
توليفاته « فيها عشر خزائن للوقف » ، لم أرى في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها  
خزانتان في الجامع ، إحداهما يقال لها العريزية ، فيها اثنا عشر ألف مجلد ، والأخرى  
يقال لها السكالية .

وكانت سهلة التناول لا يقارق منزلي منها مثلاً مجلد أكثرها بدون

رهن . . . . .  
وقد أنسى فيها كل بلد ، وألهاني عن الصعب والولد ، وأكثر فوائد  
هذا الكتاب - معجم البلدان - وغيره فهي من تلك الخزائن <sup>(٢)</sup> .

ووصفني رسالة إلى القاضي أبي الحسن الشيباني وزير حلب ، وجاء في  
وصفه قوله : « كان المقام يمرر الشاهجان المفسر عندهم بنفس السلطان ،  
فوجدت بها من كتب العلوم والآداب ما شغلني عن أهل والوطن ، ففطرت  
منها بضالتي للنشودة ، فأقبلت عليها إقبال النهم الحريص » .

ووصف في هذه الرسالة إقليم خراسان بأنه موزق الأرجل ، رائق الأنحاء ،  
ذو رياض أريضة ، وجملة أمره أنه نموذج الجنة بلا منين ، فيه ما تشتهي الأنفس  
وتلذ الأعين <sup>(٣)</sup> .

(١) الكامل لابن الأثير : ٢٦/١ ، ٧١ ، وتاريخ آل سلجوق : ٤ ، العباد الأصفياني .

(٢) معجم البلدان مدينة مرو .

(٣) وفيات الأعيان ٢١٣/٢ .

وكان نوح بن منصور الساماني كلفا بالكتب حريصاً على اقتنائها ، فجمع مكتبة كبيرة حوت أهم المؤلفات في كل علم من الأدب والشعر والتاريخ والطب والفلسفة ، ذكرها ابن سينا في حديثه عن نشأته ، وقال إنه استفاد منها ، وإن بعض كتبها نادر الوجود .

ولو حاولت أن أرسم صورة كاملة للحياة الثقافية هناك لطال المقال واتسع المجال ، فلتكن لمحات سريعة .

### علماء الحديث والفقه

من المحدثين البخاري — نسبة إلى بخاري — المتوفى سنة ٢٥٦ هـ (٨٦٩ م) وهو إمام مدوني الحديث ، ومسلم بن الحجاج النيسابوري — نسبة إلى نيسابور — المتوفى سنة ٢٦١ هـ صاحب صحيح مسلم ، وكل منهما قد وصل إلى العراق والحجاز والشام ومصر ليجمع الأحاديث بسندها ، ويميز صحيحها من زائفها .

ومن الفقهاء المجتهدين أبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) الذي وصفه الذهبي بأنه كان مجتهداً لا يقلد أحداً ، وأبو حاتم محمد بن حبان التميمي السمرقندي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥) الذي حكى عن نفسه أنه أخذ عن ألف شيخ بين الشاش — طشقند — والإسكندرية ، وهو مرجع كثير من المحدثين في حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل .

كما كان بالإقليم من كبار الشافعية محمد بن علي القفال الشاشي المتوفى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) وهو الذي نشر مذهب الشافعي هناك ، وكان معتزلياً ، وله كتب في الفقه والأصول ، وأبو بكر بن فورك الأصفهاني الأصولي المتكلم المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) وهو ناصر مذهب الأشعري ، وقد اضطهده أهل الري لكثرة المعتزلة بها ، فطلبه أهل نيسابور ، وبنوا له مدرسة يعلم فيها ، وله مؤلفات

تبلغ نحو المئة، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الحافظ المتوفى سنة ٤٥٨ (١٠٦٥ م) -  
نسبة إلى بيهق بالقرب من نيسابور - ومؤلفاته كثيرة حتى قالوا إنها نحو ألف  
جزء ، ومنها السنن الكبير والسنن الصغير ودلائل النبوة ومناقب الشافعي  
ومناقب ابن حنبل .

وكان بالإقليم من عطاء الحنفية أبو منصور الماتريدي - نسبة إلى ماتريد  
وهي محلة بسمرقند - المتوفى سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) وهو في علم الكلام عند الحنفية  
مثل الأشعري عند الشافعية ، وله كتاب التوحيد وأوهام المعتزلة ، وما أخذ  
الشرائع في الفقه ، والجدل في أصول الفقه وغيرها ، وأبو الليث نصر بن محمد  
السمرقندي الملقب بإمام الهدى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) <sup>(١)</sup>

وهكذا نجد في كتب الحديث والفقه كثيراً من العلماء منسوبين إلى مدنهاهم،  
مثل النيسابوري والفرغاني والهروزي - نسبة إلى هراة - والزمخشري، والبيهقي  
والخوارزمي والترمزي والبلخي والسمرقندي والشاشي والفارابي والمروزي  
- نسبة إلى مرو بزيادة الزاي، ويقال أيضاً المروروزي نسبة إلى مرو الروز -  
والرازي - نسبة إلى الري - والصاغاني .

## علماء اللغة والأدب

كذلك ازدهر الإقليم بكثير من العلماء الكبار الذين ألفوا في اللغة والأدب،  
منهم علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) وهو فقيه ومفسر  
ومؤرخ وشاعر متقن وكاتب مُترسِّل ، وناقد بصير ، ومن مؤلفاته ( الوساطة  
بين المتنبى وخصومه ) .

ومهم أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى - من هراة - المتوفى سنة ٣٧٠ هـ

( ٩٨٠ م ) مؤلف كتاب التهذيب الذى يعد أصلاً من أصول المعاجم اللغوية ، وقد اعتمد عليه وعلى المحكم لابن سيده ابن منظور فى معجمه لسان العرب . ومنهم أبو عمرو أحمد بن محمد الزوزنى المتوفى سنة ٣٧٤ هـ ( ٩٨٤ م ) - نسبة إلى زوزن بضم الزاى وفتحها ، وهى بلدة بين نيسابور وهراة ، وله شرح القصائد السبع .

ومنهم أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابورى المتوفى سنة ٣٨١ هـ ( ٩٩١ م ) أصله من أصبهان وسكن نيسابور ، وسمع من كبار علمائها ، وله من المؤلفات كتاب الشامل ، وكتاب الغاية ، وكتاب قراءة أبي عمرو ، وكتاب غرائب القرآن ، وكتاب وقوف القرآن وغيرها <sup>(١)</sup> .

ومنهم إسماعيل بن حماد الجوهري - من فارات - المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ( ١٠٠٧ م ) مؤلف كتاب الصحاح وهو من أمهات المعاجم العربية .

ومنهم بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ وهو كاتب وشاعر ، وقد اشتهر بسرعة الحفظ وسرعة التعبير ، وله المقامات المعروفة باسمه التى حاكها الحريرى فيما بعد <sup>(٢)</sup> .

ومنهم أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ( ١٠٣٧ م ) كان كاتباً وكان عالماً باللغة والأدب ، وهو مؤلف كتاب فقه اللغة على الطريقة الموضوعية ، إذ جمع فى كل موضوع الكلمات المتصلة به ، ومؤلف بتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، ترجم فيه لأدباء القرن الرابع ، وذكر نماذج من أدبهم ، ومما قيل فيهم ، وقسمه حسب الأقاليم والأمصار ، وله كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب وغيرها .

(١) معجم الأدباء ١٢/٣ .

(٢) معجم الأدباء ١٦١/٢ ، وبتيمة الدهر ١٦٧/٤ .

وأبو الحسين علي بن الحسن الباخري السنعي — باخرز من بواحي نيسابور — المتوفى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) وهو مؤلف دمية القصر في شعراء العصر، جعله تذييلاً على قيمة الدهر للثعالبي<sup>(١)</sup>.

ومنهم عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) وهو مؤلف كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

ومنهم أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري — الميدان محلة من محال نيسابور كان يسكنها فنسب إليها — المتوفى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) وهو مؤلف مجمع الأمثال، والسامى فى الأسامى، والنموذج فى النحو، وشرح المفضليات<sup>(٢)</sup>.  
ومنهم آدم بن أحمد بن أسد الهروى أبو سعد النحوى اللغوى المتوفى سنة ٥٣٦ هـ — ١١٤١ م، من أهل هراة وسكن بلخ، كان أديباً فاضلاً عالماً بأصول اللغة صنائباً، ورد بغداد سنة ٥٢٠ فاجتمع إليه أهل العلم وقرأوا عليه الحديث والأدب، ومن تلاميذه رشيد الدين محمد بن عبد الجليل الملقب بالوطواط كاتب الإنشاء لخوارزم شاه، وكان يكتبه ويخضع له ويقر بفضلته<sup>(٣)</sup>.

### الفلاسفة

نشطت الفلسفة بالإقليم نشاطاً كبيراً يرجع إلى ثلاثة من حاملي لوائها، أولهم — حسب الترتيب الزمنى — أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي المتوفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م)، وهو من بلخ، وكان واسع المعرفة بعلم الكلام، وإماماً من أئمة المعتزلة، وله مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية<sup>(٤)</sup>.

(١) مجمع الأدباء ٣٣/١٣.

(٢) مجمع الأدباء ٤٥/٥.

(٣) مجمع الأدباء ١٠١/١.

(٤) اللؤلؤ والنحل ٧٣/١.



وثانيهم أبو زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م) وكان صديقاً للكعبى<sup>(١)</sup>، وقد جمع بين العلوم الشرعية والأدب والفلسفة، وله مؤلفات كثيرة تبلغ نحو السبعين، منها كتاب أقسام العلوم، وكتاب شرائع الأديان، وكتاب السياسة، وكتاب أسماء الله وصفاته، وكتاب صناعة الشعر، ورسالة حدود الفلسفة، وكتاب أخلاق الأمم، وكتاب نظم القرآن.

وقد قال أبو حامد القاضى فى وصف كتابه نظم القرآن: لم أركتاباً فى القرآن مثل كتاب أبى زيد البلخي.

وقال أبو حيان التوحيدى: «أبو زيد البلخي يقال له بالعراق جاحظ خراسان» وقال أيضاً فى كتاب تعريف الجاحظ: «الذى أقول وأعتقد وآخذ به أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تعريفهم ومدحهم ونشر فضائلهم... لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم، أحدهم (وذكر الجاحظ) والثانى (وذكر أبا حنيفة الدينورى) والثالث أبو زيد أحمد ابن سهل البلخي، فإنه لم يتقدم له شبيه فى العصر الأول، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر، ومن تصفح كلامه فى كتاب أقسام العلوم، وفى كتاب أخلاق الأمم، وفى كتاب نظم القرآن... علم أنه بحر البهور، وأنه عالم العلماء، وما رأتى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه<sup>(٢)</sup>».

أما الثالث فهو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٦ م) وقد درس الفلسفة اليونانية منذ الصغر، ثم درس الطب، وقرأ من الكتب ما لم يقع للكثير من الناس قط، وما زال كتابه القانون فى الطب يدرس

(١) هو أبو القاسم البلخي الذى سبق الحديث عنه فى الاعتزال بخوارزم.

(٢) معجم الأدباء ٦٤/٣ — ٨٦

في جامعات أوروبا إلى القرن التاسع عشر<sup>(١)</sup> ، وما تزال كتبه الشفاء ، والنجاة ،  
والإشارات مصدراً لدراسة الفلسفة الإسلامية .

كذلك قد درس الفلسفة وتصدي الرد على الفلاسفة دفاعاً عن الإسلام أبو حامد  
الغزالي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) وهو من مدينة طُوس ، ودرس بالمدْرسة  
النظامية ببغداد ، وله مؤلفات كثيرة منها : تهافت الفلاسفة ، وكتاب فضائح  
الباطنة ، وكتاب المنقذ من الضلال ، وكتاب إحياء علوم الدين .

### المتصوفة

وكان بالإقليم تصوف ومتصوفة ، منهم أبو عبد الله محمد بن منازل  
الغيسابوري المتوفى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) وأبو العباس بن القاسم بن مهدي  
المتوفى سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) وهو من أهل مرو ، وأول من تكلم عندهم  
في حقائق الأحوال<sup>(٢)</sup> .

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٧٦ بار توك .

(٢) ظهر الإسلام ١ / ٢٦٥

## الفصل الأول

# حياته

اسمه محمود بن عمر بن أحمد، ولم أجد في نسبه ذكرًا وثيقًا لأحد بعد هذا الجده، وكنيته أبو القاسم، غلبت عليه النسبة إلى بلده الذي ولد به ونشأ فيه، فقيل الزمخشري، وكان قد جاور بمكة زمانًا ولقب نفسه بجار الله، فصار هذا اللقب علمًا عليه<sup>(١)</sup>.

ولد بزخمشر في السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ هـ<sup>(٢)</sup> (١٠٧٤ م)، وليس بين الذين أرخوا له خلاف في سنة وفاته، كما أنه متفقون أيضا على سنة ميلاده، إلا أن ابن كثير ذكر أنه توفي سنة ٥٣٨ هـ عن ست وسبعين سنة<sup>(٣)</sup>، ومعنى هذا أن ميلاده كان في سنة ٤٦٢ هـ، لكن إجماعهم على أن المولد كان سنة ٤٦٧ هـ، وقول ابن العماد الحنبلي إنه توفي سنة ٥٣٨ هـ بعد أن عاش ٧١ سنة<sup>(٤)</sup> يجعلنا نستبعد ما ذكره ابن كثير.

وكان مولده في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي ووزيره نظام الملك، وهو من أزهى الفترات التي نهضت فيها الآداب والعلوم.

نشأ بزخمشر ودرس بها، ثم رحل إلى بخارى ليطلب العلم في مطلع حياته<sup>(٥)</sup>.

(١) مرآة الجنان ٢٦٩/٣، ومعجم الأدباء ١٢٦/١٩

(٢) وفيات الأعيان ٢٥٩/٤، وشذرات الذهب ١٢١/٤ [وبه أن المولد كان في

١٧ رجب] وإنهاء الرواة ٢٦٨/٣، وتاريخ أبي الفدا ١٦/٣

(٣) البداية والنهاية ٢١٩/١٢

(٤) شذرات الذهب ١٢١/٤

(٥) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤

لأنها كانت منذ عهد السامانيين «مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر»<sup>(١)</sup>.

كان الزمخشري في مطالع حياته طموحاً، يأمل أن يتبوأ المكانة التي تكافئ علمه وأدبه وذكاءه، وأن ينال من المال ما يكفل له رغد الحياة، كما نال غيره ممن هم دونه مقدرة وكفاية، وكانت الدولة الخوارزمية مازال في نشأتها ولاية تابعة للسلجقة، فصوّب الزمخشري نظره إلى الدولة الكبيرة التي يتولى شئونها نظام الملك، ومدحه بقصيدة<sup>(٢)</sup> صور فيها ضيق نفسه، وبرمه بعلمه وكفايته وفضله، ما لم تبوئه المكان الرفيع الذي يستحقه، وجهر بأنه من الظلم أن يظفر المتخلفون بما يجب أن يناله الأكفاء المتقدمون وحدهم، وسخط على الزمن الذي جاد على الأراذل بحقوق الأماثل، ثم عزى نفسه عن هذه المفارقات بأن كثيراً من القبيحات أجيادهن حالية، على حين أن كثيراً من الحسان عواطل الأجياد.

ونلاحظ أنه في مدحه المزوج بالشكوى انوه بعلمه وأدبه، وجعلهما صلة قرى بينه وبين نظام الملك، وعرض بتقصيره في رعايته على ما بينهما من هذه القرابة، مع أن غيره ممن لا قرابة بينهم وبينه كانوا يرعون حقوقه، وختم القصيدة باعتداد مقرون بتحدى نظام الملك أن يجد له نظيراً في جميع من يرى، وبتهديده بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم يسعفه بما يأمل، وبلوم خفي على أن آماله في الوزير كانت عظيمة فذهبت سُدى، لأن الأراذل ظفروا بما لم يظفر به، ثم طالبه صراحة بأن يأمر له بما يحقق آماله. من هذه القصيدة قوله<sup>(٣)</sup>:

خليلاً هبل تجدى على فضائلى      إذا أنا لم أرفع على كل جاهل ؟  
ومن لى يحق بعدما وفرت على      أراذلها الدنيا حقوق الأماثل ؟

(١) بقيمة الدهر ٤/٣٣

(٢) ديوان الزمخشري ٩٥

(٣) الديوان ٩٤

كذا الدهر كم شوهاه في الخلق جيدها  
 وما شجاني أن غره مناقبي  
 وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي  
 وكم من أمال لي وكم من مصنف  
 ولي في دقيق النحر والنقد منطق  
 غني من الآداب لكنني إذا  
 فيا ليتني أصبحت مستغنيا ولم  
 ويا ليتني مرض صديق ومُسخط  
 وما حق مثلي أن يكون مضيقا  
 وأعظمها أني نسيب نصابه  
 وقد كان يرعى الناس حتى قبله  
 أحظى منقوص ولست بشاقص  
 فلا ترض يا صدر الكفاة بأن ترى  
 ولا تجعلوني مثل همزة واصل  
 فكل امرئ آماله عدد الحصا  
 لأن كان امرئ في خوارزم ما أرى  
 وكم قلت ألقى في وزارتك المنى  
 ولم أدر أن الأرذلتين يرون ما  
 فوقع إلى هذا الزمان فإنه

وكم جيد حسناء القلد عاطل  
 تغني بها الركبان بين القوافل  
 وسارت مسير النيرات رسائل  
 أصاب بها ذهني بحز المفاصل  
 إذا قلته لم أبق قولاً لقائل  
 نظرت فما في الكف غير الأنامل  
 أكن نحر خورزم ورأس الأفاضل  
 عدوى وأني في فهاهة باقل  
 وقد قطعت عند الوزير وسائل  
 إذا عرضت أنساب هذي القبائل  
 على عدم القرني وبعد الوصائل  
 وكم كامل حظاً وليس بكامل  
 أعالي قوم الحقوا بأسافل  
 فيسقطني حذف ولا راء واصل<sup>(١)</sup>  
 وهات نظيري في جميع المحافل  
 فإن رحالي في ظهور الرواحل  
 وأدرك وحدى ما ارتجى كل أمل  
 تمنوا وأني لست أحظى بطائل  
 غلامك يجعلني كبعض الأراذل

(١) أي لا تهملني كما يهمل التكلم همزة الوصل وكما أسقط واصل بن عطاء الراء من كلامه

لكن الزمخشري لم يظفر من نظام الملك بما أراد ، فماذا عسى أن يكون السبب أو الأسباب في هذا الإخفاق ؟

قد يرجع إخفاقه إلى أن نظام الملك سُئِلَ تعلم الحديث وعلمه وأملاه ، وافتتح المدارس لتعليم الشريعة على مذهب أهل السنة ، ولكن الزمخشري معتزلي مكاشف باعتزاله مشهور به .

وقد يرجع أيضاً إلى أنه في مدائمه ومطالبه كان يمزج طلبه بألوان من التنويه بنفسه ، والمباهاة بعلمه وأدبه ، والتعريض بغيره ، ولوم نظام الملك على قصيره وتغاضيه عنه ، وكان كالآمر الذي يتوقع أنه لا بد من أن يطاع .

وحينئذ اجتمع اليأس من المقام بخوارزم ، حيث لا منصب ولا مال ، والعزم على الرحيل عن الوطن الذي ولد به وربى فيه ، وكان صراع نفسى صورته فى قوله <sup>(١)</sup> :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا      إِلَى الْتَى فِيهَا غُذِيتُ وَلِيَدًا  
وَلَكِنْ تُوَاوِي بِالْكَرَامَةِ غَيْرُهَا      وَهَذَى أَرَى فِيهَا الْهَوَانَ عَتِيدًا  
وَمَا مَنْزِلُ الْإِذْلَالِ لِلْحَرِّ مَنْزِلًا      وَإِنْ كَانَ عِيشُ الْحَرِّ فِيهِ رَغِيدًا  
سَأَرْحَلُ عَنْهَا ثُمَّ لَسْتُ بِرَاجِعٍ      وَأَضْرِبُ مَرْمًى فِي الْبِلَادِ بَعِيدًا  
فَلَا كُنْتُ إِنْ خِثِمْتُ فِيهَا ابْنَ حَرَّةٍ      وَلَا عَشْتُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ حَمِيدًا  
فإلى أين يتجه ؟

لقد أتجه إلى إقليم آخر من أقاليم الدولة السلجوقية هو خراسان ، فاتصل ببعض رجال الدولة هناك ، ومدحهم ، منهم مجير الدولة أبو الفتح على بن الحسين الأردستاني نائب تاج الدولة على ديوان الإنشاء فى عهد السلطان أبى الفتح ملكشاه ، وكاتب الرسائل المشهور فى ذلك العصر ، وقد مدحه ، وتطلع إلى أن يقرأ كتابيه ( شرح أبيات سيبويه ) و ( الأتموزج ) فقال <sup>(٢)</sup> :

(١) الديوان ٣٧ .

(٢) الديوان ٢٣ .

فقد مجير الدولة المستجار لي      مداواة أدواء وأنسج جراح  
نطاسي آمال مراض وجابر      لكسر مهيضات الخطوب الفواح  
فليت رحالي ألقيت بنفسائه      فارتع في نعمائه غير نازح  
ويقدح زنداً واريأ من مناقبي      إذا صلدت كل الزناد لقادح  
وفي شرح أبيات (الكتاب) لبعض ما      يرى في صفاتي مجملأ أي شارح  
(أنموذجاً) أنفذت منه يضمه      رجائي أرى فيه وجوه المناجح  
أراقب من عين الوزير اطلاعاً      عليه وحسبي منه لمحمة لامع  
جميع ثياب الدهر ينبل جديدها      ويتقى على الأيام ثوب المدائح

ونلاحظ أنه صور نفسه سقيماً جريحاً مريض الجناح، ويبد مجير الدولة برؤه  
ورد القوة إليه، وأنه يتمنى أن يلحقه بعمل عنده ليبلو كفايته التي لا مثيل لها،  
وهو إذ يقدم كتابيه في النحو وهما شرح أبيات كتاب سيبويه والأنموذج<sup>(١)</sup>  
شاهدين على علمه يشرب إلى نظرة من المدوح راعية، أو إلى لمحمة حانية.  
وله في مدحه قصيدة أخرى<sup>(٢)</sup>.

ومدح في خراسان مؤيد الملك عبید الله بن نظام الملك، وكان رئيس  
ديوان الإنشاء أيام السلطان أبي الفتح ملكشاه، وكان بليغاً في الشعر والنثر،  
ومتفوقاً على إخوته، وردد في مدحه أملاً في منصب كبير يلائم كفاءته كقوله<sup>(٣)</sup>:

إليك عبید الله أنهي شكايي      نكايه دهر ينتحي بصياله  
بحقك فازجره ومُرّه لينتهي      فأمرك أمضي من مواضي نباله

(١) سأعرض لها في مؤلفاته.

(٢) إنباه الرواة ٢٦٧/٣.

(٣) ديوان الرمخسري ٩٧.



فأنت الذي للديوان طوعٌ لحكمه وذلك طوقٌ في رقاب رجاله  
وأنت الذي إن قال شيئاً يريد به فافهم من يثنى عن مقالته  
وكرر مدائح له<sup>(١)</sup>.

ولكنه لم يجد في خراسان مبتغاه، ولم تكن حاله بها خيراً من حاله في  
خوارزم، فسَمَّ البقاء، وارتحل إلى أصفهان عاصمة السلاجقة، وكان ملكها  
محمد بن أبي الفتح ملكشاه مشهوراً بالعدل وحسن السيرة والشجاعة، وهو الذي  
قضى على الباطنية، وملك حصونهم، وخرب ديارهم، ومحا آثارهم<sup>(٢)</sup>، وهناك  
مدحه الزمخشري بالعدل والسؤدد ونصرة الحق وحماية الإسلام في قوله<sup>(٣)</sup> :

محمد بن أبي الفتح الذي تركت أوصافه لُكنةً في كل منطق  
ابن السلاطين من أبناء سلجوق وابن الفطاري منهم والفرائيق<sup>(٤)</sup>  
لله من عادل من حق سيرته ونصرته الحق أن يدعى بفاروق  
مستوجب من جموع الشرك مَبْفَضَةٌ محبب في بني الإسلام مرموق

ومرت سنوات بعد حكم أبي الفتح ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) وإذا  
بالزمخشري يمدح السابع من ملوك السلاجقة، وهو معز الدين سنجر (٥١١ — ٥٢٢ هـ)  
بقصيدة<sup>(٥)</sup> تبدو ضغوة حواطفا، واعتمادها على محاكاة القدماء في معانيهم،  
والجنوح فيها إلى المبالغة :

سماء كل الناس كعبة سؤدد أهل الحوائج منهم حجاجها

(١) الديوان ٢٢، ٣٥، ٨٩، ١٠٦.

(٢) الكامل لابن الأثير ١٨٥/١٠.

(٣) ديوان الزمخشري ٨٦.

(٤) الفطاري : جمع غطريف وهو السيد . الفرائيق : جمع غرينيق أو غرنوق وهو  
الشاب الأبيض الجميل .

(٥) الديوان : ٢٠ .

وكانما السلطان سنجر كعبة  
ركب السياسة وهي أصعب مركب  
ألفته دونهم قسا إجماعها  
لو أنه ركب النجوم لما نبت  
جنهم الحيا للعدا طلق إذا  
يجرى إليهم سيبه بأنامل  
إلى أن يقول :

تبني الحقيقة في أمورك كلها  
لو أن عدلك شبت بميامها  
إن الحقيقة واضح منهاجها  
لا رتد كالعذب للفرات أجاجها

على أنه اتصل بخوارزم شاه محمد بن نوشتكين (٤٩٠ — ٥٢١ هـ)  
ومدحه ، وأشار في كتابه ( مقدمة الأدب ) برعاية ابنه أنسر ( ٥٢١ — ٥٥١ هـ )  
للعلماء والأدباء ، لأنه أمر بنسخ هذا الكتاب لخزائنه .

ثم رجع إلى نفسه في مرضه التي مرضها سنة ٥١٢ هـ ووصفها بأنها ناهكة<sup>(٢)</sup>  
ومنفرة ، فعاهد الله إن من عليه بالصحة ألا يطأ عتبة سلطان ، ولا متصل بخدمة  
سلطان ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن مديحهم ، وأن يعف عن التطلمع إلى  
عطايتهم والأمل في مناصبهم ، وأن يعكف على التأليف والتدريس<sup>(٣)</sup> .

فلما شفاه الله شخص إلى بغداد ، وناظر بها وسمع من علمائها<sup>(٤)</sup> الذين  
سبجى ذكركم .

(١) لقب الوزير .

(٢) الناهكة : الشديدة .

(٣) مقامات الزمخصري .

(٤) تاريخ أبي الفدا ١٦/٣

وما لبث أن أحسَّ بسمو نفسه ، وبتخلصها من أوهاب المطامع ، فأنجه  
إلى مكة مشوقاً راجياً الصّبح من ربه عما فرط منه ، معتزماً أن يقيم بها متردداً  
على بيت الله ، إلى أن يحم القضاء ، فناجى نفسه في الطريق بقوله<sup>(١)</sup> :

يا من يسافر في البلاد منقّباً      إني إلى البلد الحرام مسافر  
إن هاجر الإنسان عن أوطانه      فالله أولى من إليه يهاجر  
وتجسّارة الأبرار تلك ومن يبع      بالدين ديناه فنعم التاجر  
خرّبتُ هذا العمر غيرَ بقية      فلعلني لك يا بقيةُ عامر  
في طاعة الجبار أبذل طاقتي      فلعلني فيها لكسرى جابر  
سأروح بين وفود مكة وافداً      حتى إذا صدروا فما أنا صادر  
بفناء بيت الله أضربُ قبتي      حتى يُحَلَّ بي الضريحُ القابرُ  
ألقي العصا بين الحطيم وزمزم      لا يطبيني إخوةٌ وعشائرُ  
ضيفاً لمولى لا يُخلُّ بضيفه      وببذل أقصى ما تمنى الزائرُ  
حسبي جوار الله حسبي وحده      عن كل مفخرة يعدُّ الفاجرُ  
ساقم ثمّ وثمّ تدفنُ أعظمي      ولسوف يبعثنى هناك الحاشرُ

وهناك في مكة كان الأمير أبو الحسن علي بن حمزة بن وهّاس الشريف  
الحسنّي ، وكان ذا فضل عزيز ، وله تصانيف مفيدة ، وقرينة في النظم والنثر  
مجيدة<sup>(٢)</sup> . فرحب بالزّخشي ، وعرف قدره ، ورفع شأنه ، وأقبل على الاستفادة  
منه ، كما استفاد منه الزّخشي<sup>(٣)</sup> .

(١) ديوان الزّخشي ٤٢ .

(٢) معجم الأدباء ٨٥/١٤ .

(٣) إنباء الرواة ٢٨٦/٣ ، ومعجم الأدباء ٨٥/١٤ .

ولقد اطمأنت نفس الزمخشري إلى الإقامة في مكة ، وإلى التردد المستمر على بيت الله الحرام ، وإلى تكريم الأمير ابن وهّاس ، فمدح الأمير<sup>(١)</sup> مدحا نبيا عن صدق العاطفة والمحبة والشكران ، كقوله :

فتى هو حال بالمعالي بأمرها      وقد حليت منه المعالي بأوحدا  
نجيب نمت من ذؤابة هاشم      نقيبات أعراق أطابته مولدا  
ولو شاء لم يعتدّ فختد هاشم      نصابا كفاء بالنبوة محتدا  
وتقرأ من سباه في قسماته      شهادة حق أنه سينطأ أحدا  
هو الحر ما أصدى إلى بيض معشري      فأبصره إلا نقت به الصدى  
ولى منه نصح الجيب والعقدة التي      أبت أن يرى الزءون أوثق مفعدا  
ولولا ابن وهّاس وسابق فضله      رعت هشيا واستقيت مصرّدا  
وكان ابن وهّاس يمدح الزمخشري ، فمن مدحه قوله<sup>(٢)</sup> :

وكم للإمام الفرد عندي من يد      وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا  
أخي العزمة البيضاء والهمة التي      أنافت بها ، علامة العصر والورى  
جميع قرى الدنيا سوى القرية التي      تبوأها داراً فداه زمخشرا  
وأحرر بأن تزهى زمخشر بامرى      إذا عُدّ في أسد الشرى زمخ الشرا<sup>(٣)</sup>  
فلولاه ما طن البلاد بذكرها      ولا طار فيها منجداً ومفوراً  
فليس ثناها بالعراق وأهل      بأعرف منه بالحجاز وأشهرها  
وفي أيام مقامه بالحجاز زار همدان ، ومدح آل زريز ، فقال في إحدى قصائده<sup>(٤)</sup> :

(١) ديوان الزمخشري ٢٧ ، ٧٤ ، والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٥ .  
(٢) معجم البلدان ٤٠٠/٤ ، وإنباء الرواة ١٦٨/٣ ، والقاموس المحيط مادة زمخشر .  
(٣) الفراء : مأسدة . زمخ : تكبر .  
(٤) ديوان الزمخشري ١٢٥ .

كم قلت في خورزم عند توخلى لركائبى سيري إلى همدانا  
لو لم أقل سيري إلى همدان ما همدت بنا في سيرها همدانا<sup>(١)</sup>  
وبنوزريه ما تزرئ نيباهم إلا على المضبات من شهلانا  
وطوف في جزيرة العرب ، لأنه يقول : وطئت كل تربة في أرض العرب ،  
فوجدت (تربة) أطيب التراب ، وهى واد على مسيرة أربع ليال من الطائف ،  
ورأيت ناساً من أهلها<sup>(٢)</sup> .

ولكنه بعد أن أقام بمكة نحو سنتين شاقه وطنه ، فرحل إليه ، ثم لام  
نفسه أشد اللوم ، وبكى أحر بكاء ، وصور هذا في عدة قصائد منها قوله<sup>(٣)</sup> :  
بكاء على أيام مكة إن بي إليها حنين النيب فاقدة البكر  
تذكرت أيامي بها فكأنتي قد اختلفت زرق الأسنة في صدري  
أيت على الصخر المبارك باكياً كما أنت الخنساء تبكى على صخر  
وقوله<sup>(٤)</sup> :

أبتاع بالفوز الشقاوة خاسراً وأستبدل الدنيا الدنية بالأخرى ؟  
إذا خطرت بالبال ذكرى إناختي على حرم الله استقرتني الذكرى  
وأدعو إلى الشلوان قلباً جوابه لداعيه مهراق من القلة العبرى  
وما عذر مطروح بمكة رحله على غير بؤس لا يجوع ولا يعمرى  
فما فر عنها يفتى بدلاً لها وربك لا عذراً وربك لا عذراً

(١) ليس في أساس البلاغة ولا في القاموس معنى يلائم وضع همدان في البيت ، لأن أحمد  
يعنى أقام ويعنى أسير ، والمراد هنا الإسراع ، فيكون الصواب أحمد همداناً لا همد همداناً .  
(٢) أساس البلاغة مادة ترب .

(٣) الديوان ٤١

(٤) الديوان ٤١

فلم يكن بد من العزم على العودة إلى مكة ، فقبل له : قد زَجِيتَ أكثر  
عمرَكَ هناك ، فما الموجب ؟ قال : القلب الذي لا أجده هنا ثم أجده هناك<sup>(١)</sup> ، ومعنى  
هذا أنه لم يكن يجد طمأنينة القلب ، ووصفاء النفس ، ولذّة العبادة إلا في مكة .

ها هو ذا ينطلق إلى مكة ، وفي طريقه إليها يعرج على الشام ، فيمدح تاج  
الملك بورى طفتكين صاحب دمشق ، ولم يكن هذا المدح للزلفى أو لاستدرا  
عطاء ، بل كان خالصاً لوجه الله ، لأن بورى كان معروفاً بكرهيته للباطنية ،  
حتى إنه قتل منهم ستة آلاف ، وكان قد حمى المسلمين من الصليبيين ، إذ جمع  
العرب والتركمان لصدم عن دمشق وهزمهم سنة ٥٢٣ هـ<sup>(٢)</sup> . (١١٢٨ م) .  
والراجح أنه أقام بالشام مدة ، لأنه مدح شمس الملك الذي خلف أباه سنة  
٥٢٦ هـ<sup>(٣)</sup> .

وفي السنة نفسها سلك الطريق إلى مكة فبلغها ، وقضى بها ثلاث سنوات ،  
لحق فيها من ابن وهّاس ما كان يلقاه من قبل من حفاوة وتعظيم ، وكان ابن  
وهّاس يوافقه في مذهبه ، فشجعه على تأليف تفسيره التّكشاف<sup>(٤)</sup> ، فعقّب له أن  
يمدح ابن وهّاس بقوله<sup>(٥)</sup> :

بِمَكَّةِ آخِيتُ الشَّرِيفَ وَفَتِيَّةً      تُوَالِيهِ مِنْ آلِ النَّبِيِّ غَطَارِفًا<sup>(٦)</sup>  
يَتَابِعُ إِنْ نُظِرْتُ رَدَاءُ لَشَاغِبٍ      وَيَنْهَضُ إِنْ فُورَكَرْتُ رَدَاءُ مَكَاتِفَا  
مَتَى أَقْبَلَ الْعِلَامَةَ اتَّفَعُوا لَهُ      وَحَيَّوْهُ ، حَيَّا اللَّهُ تِلْكَ الْمَعَارِفَا

(١) إنباه الرواه ٢٦٦/٣ .

(٢) الكامل لابن الأثير ٢٣٤/٩٠ ، ٢٤٣ .

(٣) ديوان الزمخمرى ٧٩ .

(٤) مقدمة التّكشاف وديوان الزمخمرى ٧٤، ٧٧ .

(٥) ديوان الزمخمرى ٧٩ .

(٦) غطارف : جمع غطريف وهو السيد الشريف .

وكان ابن وهاس لجنبى فارساً      كما تفعل الأم الحفية لاحفا  
وتمَّ لى الكشف ثمَّ ببلدة      بها هبط التنزيل للحق كاشفا  
على باب أجساد بنى لى منزلاً      كركن شام بالصفا متواصفا<sup>(١)</sup>  
وأنفق فى إنعامه من تلاده      ثقلات وزر فى البلاد خفا  
ولم يكن غريباً أن يقول فى قصيدة أخرى<sup>(٢)</sup> :

زأرت وراء دين الحق زاراً      وقد تبعت كلاب الفربى  
ومن يغضب لدين الله يجمع      مرضيه إلى الأجر السنى  
وليس الجبر والتشبيه إلا      بقية إرث دين جاهلى  
فقم بالعدل والتوحيد فيه      تُقيم يابن النبى هدى النبى  
وحيث يبدو أنه اطمأن وهدأ ، وصور فرحته فى قوله<sup>(٣)</sup> :

أنا الجارُ جار الله ، مكة مركزى      ومضرب أوتادى ومُعقد أطنابى  
وما كان إلا زورة نهضتى إلى      بلاد بها أوطان رهطى وأحبابى  
فلما قضت نفسى — والله درءها —      لبانة دار زندها غير خيابى  
صكرتُ إلى بطحاء مكة راجعاً      كأنى أبو شبلين كرك إلى الغابى  
فمن يلقى فى بعض القرىات رحله      فأم القرى ملقى رعالى ومُنتابى  
ومن كان فى بعض المحارب راکماً      فللكعبة البيت المحرم محرابى

ولكن هذا الرحالة الثقلة اشتاق إلى وطنه ثانية ، فسافر إلى خوارزم ،  
وعرج على بغداد سنة ٥٣٣ هـ .

(١) شام : جبل

(٢) ديوان الزمخصرى ١١٦

(٣) الديوان ٥

ثم أقام بخوارزم إلى أن حم القضاء ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م)  
بجرجانية - قصبة خوارزم على شاطئ نهر جيحون - بعد رجوعه من مكة<sup>(١)</sup>.  
وقد زار ابن بطوطة خوارزم في أوائل القرن الثامن الهجري ، وقال :  
« بخارج خوارزم قبر الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، وعليه  
قبة<sup>(٢)</sup> » .

---

(١) وفيات الأعيان ٢٥٩/٤ ، وشذرات الذهب ١٢١/٤ ، وإنباء الرواة ٢٦٨/٣  
وهو يسمى جرجانية ، كركانج . وتاريخ أبي الفداء ١٦/٣ .  
(٢) مذهب رحلة ابن بطوطة ٢٩٨/١ .



## الفصل الثاني

# أساتذته

استقى الزمخشري من بنابيع كثير من العلماء الذين عاصرهم ، كما نهل من مؤلفات سابقيه .

ولعل أعظم أساتذته آثاراً في نفسه أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٧ هـ ، كان يلقب بفريد العصر ، ووحيد الدهر في علم اللغة والنحو ، ويضرب به المثل في أنواع الفضائل . وقد درس عليه الزمخشري النحو والأدب .

أقام في خوارزم مدة ، فانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه ، وأخذوا عنه علماً كثيراً ، وتخرج عليه جماعة من الأكابر في النحو واللغة ، وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ، ونشره بها ، فاجتمع عليه الخلق لجلالته ، وتمذهبوا بمذهبه ، ومنهم أبو القاسم الزمخشري<sup>(١)</sup> وقد توسم أبو مضر في تلميذه الذكاء والجد والجدارة بأن يخلفه ، فتعهد به بعلومه ، ورعاه بماله ، يدل على هذا قول الزمخشري لنظام الملك<sup>(٢)</sup> :

إليك نظام الملك شكواي فاستمع إلى بث تجذوذ المعاش ضنكها  
ولولم يل الضبي عني عراقكها لنالت يد البلوى أديمي بعر كها  
وكان الزمخشري محباً لأستاذه أبي مضر ، وفيأله ، فلما مات سنة ٥٠٧ هـ رثاه بقوله<sup>(٣)</sup> :

---

(١) معجم الأدباء ٢٢/١٩ وشذرات الذهب ١١٩/٤ ، ووفيات الأعيان ٢٥٤/٤  
وبقية الوعاة ٣٨٨ . (٢) الديوان ٩١ . (٣) الديوان ٩٤ .

فقلت لطبي هات كل ذخيرة فمن أجله ما زلت أدخِرُ الذخرا  
وأبرز كريمات القوافي وغرّها فمنه استفدنا العلم والنظم والنثرا  
ورثاه بقوله<sup>(١)</sup> :

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقط من عينيك سمطين سمطين  
فقلت لها : الدر الذي كان قد حشا أبو مُضَرٍّ أذني تساقط من عيني  
وعلق عليهما اليافعي بقوله : هذا مثل قول القاضي أبي بكر الأَرَجاني :

ولم يكني إلا حديث فراقهم لما أسرته إلى أدمعي  
هو ذلك الدر الذي أودعته في مسمعي أجريته من مدمعي  
ولا يدري أيهما أخذ من الآخر ، لأنها كانا متعاصرين<sup>(٢)</sup> .

ثم رحل إلى بخارى ليستزيد من مناهل علمائها<sup>(٣)</sup> ، وكانت ماتزال  
تابعة للدولة السامانية ، ولها صيت ذائع في العلم ، حتى إن الثعالبي يقول : إنها  
كعبة طلاب العلم ، ومطلع نجوم أدباء الأرض<sup>(٤)</sup> .

كذلك سمع الحديث من شيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي ، ومن أبي  
سعد الشقاني<sup>(٥)</sup> ، ومن أبي الخطاب بن أبي البطر<sup>(٦)</sup> .

(١) الديوان ٥٧ ، ووفيات الأعيان ٢٥٨/٤ ، ومعجم الأدباء ١٢٤/١٩ مع بعض  
تغيير ، وشذرات الذهب ١٢٠/٤ ، ومראה الجنان ٢٧٠/٣ ، وإنباء الرواة ٢٦٧/٣ .

(٢) مرآة الجنان ٢٧٠/٣

(٣) وفيات الأعيان ١٠٧/٢ ، ومعجم الأدباء ١٢٧/١٩

(٤) بنية النهر ١٠١/٤

(٥) معجم الأدباء ١٢٧ / ١٩ وبنية الرواة ٣٨٨

لم أعثر على ترجمة للحارثي في كتب الطبقات والتراجم ، وأما الشقاني ففتح العين على  
الشهور وبكسرهما على الصحيح فلم أحد فيمن يعرف بهذه النسبة من يكنى أباسعد أو أباسعيد ،  
بل وجدت من المشهورين بالحديث أبا الفضل العباس بن الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن  
الشقاني الحسنوي من أهل نيسابور ، كان فقيها محدثاً أنفق عمره في الكتابة ، وسمع الحديث ،  
وصحبه الأكابر ، ولزوم المجالس ، والطواف على الشايخ ، وإفادة الصبيان والشان ، وكان أبوه  
من أفذاذ أئمة الأصول . توفي أبو الفضل سنة ٥٠٦ هـ ( الأنساب للسمعاني ورقة ٣٣٦ )

(٦) طبقات المفسرين ٤١ : لم أعثر له على ترجمة في كتب التراجم والطبقات

وقد أخذ الأدب عن أبي علي الحسن بن المظفر النيسابوري<sup>(١)</sup>

ونجد في تاريخه أنه اجتمع في بغداد بالفقيه الحنفى الدامغانى<sup>(٢)</sup> وبالشريف ابن الشجرى<sup>(٣)</sup>. وقال القفطى<sup>(٤)</sup> إن الزمخشري قدم علينا ببغداد سنة ٥٣٣هـ، ورأيت مرتين عند شيخنا أبي منصور بن الجوالقي<sup>(٥)</sup> قارئاً عليه بعض كتب اللغة من فوائدها ومستعجزاً لها.

كذلك نجد في تاريخه أنه قرأ في مكة كتاب سيبويه على عبد الله بن طلحة اليابرى<sup>(٦)</sup>. فإذا صحت رواية القفطى أن الزمخشري قرأ على الجوالقي بعض

(١) معجم الأدباء ١٩/١٢٧. وكان الأصل (عن أبي الحسن طى بن المظفر) ولكن صوبته من المعجم نفسه ٩/١٩١. والحسن هذا كاتب شاعر مؤلف. كان في عصره مؤدب أهل خوارزم ومخرجهم وشاعرهم ومقدمهم، وهو شيخ الزمخشري قبل أبي مضر، وله مؤلفات منها: تهذيب ديوان الأدب، وتهذيب إصلاح النطق، ومحاسن من اسمه الحسن (وهذا يؤكد أن اسمه الحسن) وزيادات أخبار خوارزم، وديوان شعر، وديوان رسائل (معجم الأدباء ٩/١٩٠).  
(٢) وفيات الأعيان ٢/٢٥٥. الدامغانى بفتح الميم بلد من بلاد قومس، من علمائها في الحديث قاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن علي الدامغانى، ولى قضاء بغداد مدة، وكان إليه القضاء والرياسة والتقدم، وكان فقيهاً فاضلاً، توفى ببغداد سنة ٤٩٨هـ. (الأنساب ورقة ٢١٩) وكان حنفى المذهب، وقد ناظر الشيرازى [طبقات الشافعية ٣/١٠٠].

(٣) نزهة الألبا ٤٧٠. ابن الشجرى هو حبة الله بن علي أبو السعادات ينتهى نسبه إلى طى ابن أبى طالب، كان فرد زمانه في العلوم العربية، وعلم النحو سبعين سنة، توفى سنة ٥٤٢هـ، وله من المؤلفات: الأمالى، والانتصار على ابن الحشاش، والحجاسة ضامى به حجاسة بن تمام، وشرح اللمع لابن جنى، وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه، وشرح التصريف الملوك، وغيرها [معجم الأدباء ١٩/٢٨٢].

(٤) إنباء الرواة ٣/٢٧٠.

(٥) هو موهوب بن أبى طاهر أحد الجوالقي، كان إماماً في فنون الأدب، وهو من مفاخر بغداد، درس الأدب في المدرسة النظامية بعد الخطيب التبريزى، وكان في اللغة أمثلاً منه في النحو، وكان متواضعاً من أهل السنة، وله حسن التصانيف المفيدة التى انتشرت عنه، مثل شرح أدب الكاتب، والعرب من الكلام الأعجمى، والشكيلة فيما يلحن فيه العامة، أكل به درة الفواص للحريرى، ولد سنة ٤٤٦هـ وتوفى ببغداد سنة ٥٣٩هـ (وفيات الأعيان ٤/٤٢٤ ومعجم الأدباء ١٩/٢٠٥ وبغية الرواة ٤٠١).

(٦) بغية الرواة ٢٨٤ وطبقات المفسرين ٣١. هو نحوى أصولى فقيه توفى سنة ٥١٨هـ [بغية الرواة ٢٨٤].

كتب اللغة سنة ٥٣٣ هـ ليستجيزه كانت دليلاً على أنه وهو في السادسة والستين من عمره ، وقبل أن يودع الحياة بخمس سنوات ، لم يأنف أن يجلس جلسة الطالب المستزيد ، مع أنه بعد مرضه سنة ٥١٢ هـ زار بغداد وناظر بها<sup>(١)</sup> ، وألف كثيراً من كتبه .

---

(١) تاريخ أبي القدا ١٦/٣

## الفصل الثالث

# تلاميذه

كان الزمخشري صاديا إلى الثقافة يتردد على مناهلها ، ويرتوى من رجالها ، ثم كان له تلاميذ عطاش إلى منهلها ، يسرعون إليه في كل بلد حله ، فيستقون منه ، ويجرون ما استقوه جداول تنفع غلة الناس .

يذكر القفطي<sup>(١)</sup> أنه دخل خراسان ، وورد العراق ، وما دخل بلدا إلا اجتمع الناس عليه ، وتلمذوا له ، واستفادوا منه . ويقول إنه أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل ، وتحط بفنائهم رجال الرجال ، وتحدي باسمه مطايا الآمال . ويذكر ياقوت أنه قدم بغداد ، في طريقه إلى الحج فاجتمع الناس حوله ليسمعوا منه<sup>(٢)</sup> .

وهؤلاء التلاميذ كثير ، منهم زمخشري أبو عمرو عامر بن الحسن السمار ، وبطبرستان أبو الحسن إسماعيل بن عبد الله الطويل ، وبأبيورد أبو الحسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز ، وبسمرقند أبو سعد أحمد بن محمود الشامي ، وغيرهم<sup>(٣)</sup> . ومنهم بخوارزم أبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه ، والموفق بن أحمد بن أبي سعيد المعروف بأخطب خوارزم ، كان متمكنا في العربية غزير العلم فقيها أدبيا شاعرا<sup>(٤)</sup> ، ومنهم علي بن محمد القمрани الخوارزمي ،

(١) إنباء الرواة ٢٦٦/٣

(٢) معجم الأدباء ١٢٨/١٩

(٣) الأنساب للسماعي ٢٧٨

(٤) بنية الوعاة ٤٠١ والأنساب ٢٧٨

أبو الحسن الأديب ، الملقب بحجة الأفاضل ونخلة المشايخ ، المتوفى حوالى سنة ٥٦٦ هـ ، قرأ الأدب على الزمخشري فصار أكبر أصحابه وأوفرهم حظا من غرائب آدابه ، وجعل أيامه فى آخر عمره مقصورة على نشر العلم ، وفزع الناس إليه فى حل المشكلات وشرح المضلات ، وكان مولعا بالسماع كتبها ، وهو مع علمه الغزير وفضله ، الكثير علم فى الدين والصلاح ، وكان يذهب مذهب المعتزلة ، وله تصانيف حسان منها : كتاب المواضع والبلدان ، وكتاب تفسير القرآن ، وكتاب اشتقاق الأسماء <sup>(١)</sup> .

وتَلَمَّذَ له محمد بن أبى القاسم بايجوك ، أبو الفضل البقالى الخوارزمى الأدمى الملقب زين المشايخ ( ٥٦٢ هـ ) النحوى الأديب ، كان إماما فى الأدب ، وحجة فى لسان العرب ، أخذ اللغة وعلم الإعراب عن أبى القاسم الزمخشري ، وجلس بعده مكانه ، وله الحديث منه ومن غيره ، وله من التصانيف : مفتاح التنزيل ، وتقوم اللسان فى نحو ، والإعجاب فى الإعراب ، والبداية فى المعانى والبيان ، وكتاب منازل العرب ، وشرح أسماء الله الحسنى ، وغير ذلك <sup>(٢)</sup> .

وتَلَمَّذَ له أبو يوسف يعقوب بن على بن محمد بن جعفر البلخى ، أحد الأئمة فى النحو والأدب ، أخذ عنه ولزمه <sup>(٣)</sup> .

ومن تلاميذه على بن عيسى بن حمزة بن وهّاس ، من ولد سليمان بن حسن ابن على بن أبى طالب ، كان شريفا جليلا هماما من أهل مكة وشرفائها وأمرائها ، وكان ذا فضل غزير ، وله تصانيف مفيدة ، وقرينة فى النظم والنثر مجيدة ، قرأ على الزمخشري بمكة ، وبرز عليه ، وصرفت أخته طلب العلم إليه ،

(١) معجم الأدباء ١٥ / ٦١ وبضية الوفاة ٣٥٠

(٢) معجم الأدباء ١٩ / ٥

(٣) معجم الأدباء ٢٠ / ٥٥

(توفي سنة نيف وخمسين وخمسة) <sup>(١)</sup> وهو الذى مدحه بأبيات منها :

وكم للأمام الفرد عندي من يد      وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا <sup>(٢)</sup>

ومنهم زينب بنت الشعرى التى أجازت ابن خلكان <sup>(٣)</sup> .

ومن استجازوه محمد بن عبد الملك البلخى الذى ينهى نسبه إلى عمر بن الخطاب المعروف برشيد الدين الوطواط، كان أبرع معاصريه فى النظم والنثر، وكان ينشئ فى وقت واحد بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر، ويمليهما معا، وكان شاعر البلاط وكاتب الإنشاء فى عهد السلطان الخوارزمى أتسز وفى عهد إيل أرسلان وابنه علاء الدين تكش، وله مصنفات منها حدائق السحر فى دقائق الشعر <sup>(٤)</sup> .

وحينما كان بمكة مجاورا كتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفى من الإسكندرية يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته ، فرد عليه بما لا يشفى الغليل ، فلما كان العام الثانى كتب إليه رسالة أخرى مع الحجاج يستجيزه ، قال فى آخرها : « ولا يحوج — أدام الله توفيقه — إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة ، وقد كاتبت فى السنة الماضية ، فلم يجبر بما يشفى الغليل ، وله فى ذلك الأجر الجزيل » . فرد عليه الزمخشري فى تواضع وتهرب من الإجازة ، وقد ذكر ابن خلكان أكثر رسالة الزمخشري ، وعقب عليها بقوله : ما أعلم هل أجازته ، بعد ذلك أو لا <sup>(٥)</sup> ؟ .

وليس من شك فى أن تلاميذ كتبه كانوا كثرة ، وأن قراء مؤلفاته كانوا يقدرون علمه ، لأنه كان فى عصره كما قال القفطى علامة الأدب ، ونسابة

(١) معجم الأدباء ٨٥/١٤ ، وإنباء الرواة ٢٦٨ / ٣

(٢) معجم الأدباء ٤٠٠ / ٤

(٣) وفيات الأعيان ٢٥٧/٤

(٤) معجم الأدباء ١٠٣/١ ، ٢٩/١٩

(٥) وفيات الأعيان ٢٥٦/٤ ، وشذرات الذهب ١٢٠/٤ ، وبنية الوعاة ٣٨٨ ،

ومعجم الأدباء ١٣٢/١٩

العرب ، وكان أعلم فضلاء المعجم بالعربية في زمانه ، وأكثرهم أنسا واطلاعا على كتبها ، وبه ختم فضلاؤهم<sup>(١)</sup> . من هؤلاء الأمير شبل الدولة أبو الهيجاء مقبل بن عطية البكري ، ختن نظام الملك ، فقد أرسل إليه هذه الأبيات :

هذا أديب فاضل      مثل الدراري درره  
زنجشري فاضل      أنجبه زنجشره  
كالبحر إن لم أره      فقد أتاني خبره  
فرد عليه الزنجشري بقوله :

شعره أمطر شعبي طرفاً      فاعتلى منه نبت الجسد  
كيف لا يستأسد النبت إذا      بات مستقياً بنوء الأسد<sup>(٢)</sup>

ومنهم منتجب الملك أبو جعفر محمد أحد كبراء دولة السلطان السلجوقي سنجر ، فقد بعث إليه رسالة وقصيدة وهو في مكة ، من قصيدته قوله<sup>(٣)</sup> :

إليك يهزني الحب المطاع      ويسكرني لرؤيتك النزاع  
فهل لك يا شقيق النفس علم      بما أنبات عنه واطلاع  
وأنت لكل منقبة معانٍ      ومن در العلوم لك ارتضاع  
ولما كنت جار الله صارت      تسير بك الأماكن والبقاع  
تضيء بملك الدنيا فيضحي      له في كل ناحية شعاع

(١) لنباه الرواة ٢٦٦/٣ ، ٢٧٠ .

(٢) لنباه الرواة ٢٧١/٣ .

(٣) لنباه الرواة ٢٧٢/٣ .



## الفصل الرابع

# مؤلفاته

نشأ في خوارزم ، وهي إقليم إسلامي كان جيرانه يتطلعون إلى امتلاكه ، ويودون أن يبدل أهله دينهم ، فهو يقول : « إن خوارزم ثغر من ثغور الإسلام ، قد اكتنفه أهل الشرك ، وأطافت به قبائل الترك ، فغزو أهله معهم دائم ، والقتال بينهم قائم ، قد أخلصوا في ذلك نياتهم ، وأحصوا عن طوياتهم ، وقد تكفل الله بنصرهم في عامة الأوقات ، ومنحهم الغلبة في كافة الوقعات ، ثم حصنه الله بمجيحون ، بواد عسير المعبر ، بعيد المسالك ، غزير الماء ، كبير المهالك ، فلا يتوغل<sup>١</sup> متوغل إلا خاطر بمهجته ، ولا سلك منافذه سالك إلا كان على يأس من سلامته »<sup>(١)</sup> .

وقد كان لهذا أثر عميق في حماسة السكان وحماسة الزمخشري للإسلام ، فهم يغارون على دينهم أن يمسه أذى أو عدوان ، وهم أيقاظ للدفاع عنه ، ولهذا جرد الزمخشري قلمه للتأليف في ميدان اللغة العربية والشريعة الإسلامية .

وكانت النهضة العلمية والأدبية التي بلغت أوجها في القرن الرابع ما تزال قوية الدفع ، بعيدة الآثار ، وكانت الدول التي انفصلت من الحكم العربي كالدولة السامانية والدولة السلجوقية والدولة الخوارزمية تجد في الازدهار

---

(١) ربيع الأبرار : الباب التاسع . مخطوطا

العلمى والأدبى حياة لها وقوة وشهرة بحسن الأحدثوة بين الناس ، فقربت إليها العلماء ، وشجعت على التأليف والتعليم كما سبق فى تصور الحياة الثقافية .

وكان الزمخشري منذ صباه مشغولاً بالدرس والبحث ، وقد امتزج بالعلوم العربية والإسلامية امتزاجاً شغل قلبه ، وامتلك نفسه وكان أعزب لاتصرفه عن التأليف شواغل الآباء والأسيرة والأبناء .

لهذا كله فرغ للعلم ، فانهمرت عليه سحائب العلم ، ومنح الثقافة جهده ، فجادت عليه الثقافة بأوفر نصيب ، وحبس على التأليف نشاطه فكثرت مؤلفاته وتنوعت ، وخلد كثير منها إلى اليوم .

ويتضح من كلامه أنه كان يختص مؤلفاته بإعزازه وحبه ، حتى لقد اتخذ منها أبناء البررة ، واستعاض بها عن النسل ، وفضلها على البنين والبنات ، لأنها مبرأة من العقوق والمشاكسة ، فقال (١) :

بَنِي فاعلم بناتُ فكري	حَصَانُهُمْ أُمَّةُ الدَّرَاسَةِ (٢)
أَبْنَاءُ صَدَقٍ لَمْ تَفُوسْ	وَصِفْنِ بِالْفَضْلِ وَالنَّفَاسِ
مُحَامَةُ عَرْضِي مُحَصَّنُوهُ	فِي كَنْفِ الصُّونِ وَالْحِرَاسِ
بِرٌّ صَرِيحٌ بَلَا عَقُوقَ	خَلَقَ صَحِيحٌ بَلَا شَكَاةِ
مَا نَسَلُ قَلْبِي كَنْسَلِ صَلْبِي	مَنْ قَاسَ رُودًا لَهُ قِيَاسَهُ
كَمْ بَيْنَ ذِي مَسَلِكٍ طَهُورٍ	وَسَالِكٍ مَسَلِكِ الْخُسَاسِ
مَنْ سَاسَ أَبْنَاءَهُ فَإِنَّا	لَهُؤُلَاءِ الْبَنِينَ سَاسَهُ

(١) ديوان الزمخشري ٢٦ .

(٢) يريد أن أهم الغيبة هي الدراسة .

وقد ذكر مؤلفاته أكثر الذين ترجموا له<sup>(١)</sup>، وسأذكرها مسلوكة في مجموعات، متناسقة ثم أعرض لها بالتحليل فيما بعد :

( ١ )

### في العلوم الدينية ورجالها

١ — الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .  
طبع أول مرة بالمطبعة البهية المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ في مجلدين ،  
وبهامشه كتاب ( الانتصاف من الكشف ) لناصر الدين أحمد  
ابن محمد بن منصور الإسكندري المالكي المشهور بابن المنير، ثم طبع بعد ذلك .

٢ — رموس المسائل ( في الفقه ) غير معروف .

٣ — معجم الحدود ( في الفقه ) غير معروف .

٤ — المنهاج ( في الأصول ) غير معروف .

٥ — ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض . غير معروف .

٦ — مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة . ( الأصل لأبي سعيد  
الرازي إسماعيل . غير معروف ) .

٧ — شقائق النعمان في حقائق النعمان ( في مناقب أبي حنيفة ) . غير  
معروف .

٨ — شافى العي ( أو العي ) من كلام الشافعي . غير معروف .

---

(١) وفيات الأعيان ٢٥٤/٤ ، ومعجم الأدباء ١٣٤/١٩ ، وعذرات الذهب ١١٩/٤  
وبنية الوعاة ٣٨٨ ، وإنباء الرواة ٢٦٦/٣ ، ولسان الميزان ٤/٦ . وتاريخ آداب اللغة العربية  
لمرجى زيدان ٤٨/٣ .

٩ — رسالة في حكمة الشهادة ، وأخرى في نص العشرة ، ذكرهما جرجى زيدان ، وقال إنهما مخطوطان في برلين .

( ٢ )

في اللغة

١٠ — أساس البلاغة .

طبع في مجلدين بمطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م .

١١ — الفائق في غريب الحديث .

طبع في حيدر آباد في مجلدين سنة ١٣١٤ ، وطبع في ثلاثة مجلدات بمطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ، بتحقيق الأستاذين علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم من سنة ١٣٦٤ هـ — ١٣٦٧ هـ ( ١٩٤٥ — ١٩٤٨ م ) .

١٢ — الجبال والأمكنة والمياه .

طبع في ليدن سنة ١٨٨٥ م في مجلد واحد عدد صفحاته ١٦٩ . مضافاً إليها فهرس في ٣٢ صفحة وترجمة إلى اللاتينية في ٣٢ صفحة .

١٣ — أعجب العجب في شرح لامية العرب .

طبع الطبعة الأولى بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية

وطبع الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ في ٦٦ صفحة من القطع المتوسط .

١٤ — شرح مقامات الزمخشري .

طبع الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ ، والطبعة الثانية بمطبعة التوفيق

بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ في ٢٣٨ صفحة من القطع المتوسط .

١٥ — المستقصى في أمثال العرب .

يحتوي على ٣٤٦١ مثلاً ، طبع الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية

بمحيدر آباد الدكن الهند سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م في مجلدين كبيرين .

١٦ — جواهر اللغة . غير معروف .

وجاء في أسماء مؤلفاته كتاب الأسماء ، وأرجح أنه جزء من مقدمة الأدب ، لأن القسم الأول في الأسماء ، والقسم الرابع في تصريف الأسماء .

١٧ — متشابه أسامي الرواة . غير معروف . ولعله المقصود بقول ابن حجر المستقلاني رأيت له مصنفًا في المشتبه في مجلد واحد ، وفيه فوائد جلية .

١٨ — صميم العربية . غير معروف .

١٩ — معجم عربي فارسي . نشره قزشتاين . ليبزج سنة ١٨٤٣ (١) .

(٣)

٢٠ — الفصل . في النحو .

ترجم إلى الألمانية وطبع سنة ١٨٧٣ ، وطبع في كريستيانا سنة ١٨٧٩ م ، وطبع مع شرح موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش في ليسيك سنة ١٨٨٢ م ، وإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة في عشرة أجزاء .

٢١ — الأنموذج .

وهو مقتضب من الفصل ، طبع أول مرة بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ في ٢٣ صفحة ملحقًا بكتاب ( نزهة الطرف في علم الصرف ) لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني ، وبعده كتاب ( قواعد الإعراب ) لجمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن هشام ، وطبع بمصر سنة ١٢٩٨ هـ .

٢٢ — شرح أبيات كتاب سيبويه .

غير معروف . وليس شرحًا لكتاب سيبويه كما في بعض المراجع ، لأن الزمخشري نفسه ذكر اسم كتابه كذلك (٢) .

٢٣ — الحاجة بالمسائل النحوية أو الأحاجي النحوية .

(١) تاريخ الأدب في إيران ٤٥٩ .

(٢) ديوان الزمخشري ٢٣ .

مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٨ ش نحو ، ١١٦ مجاميع ، وهو في ٢٧ ورقة في مخطوطة الشنقيطى و ٢٥ في المجاميع .

وهذا الكتاب أفاض ومسائل نحوية يقصد بها المعاينة والأفان .

#### ٢٤ — مقدمة الأدب .

أكثره في النحو ، طبع القسم الأول والثانى منه في مجلد واحد في مدينة ليبسيك سنة ١٨٤٣ م وطبع الباقي سنة ١٨٥٠ م ، وبادار الكتب القسم الثانى والثالث والرابع والخامس في مخطوط ٢٧٢ لغة في ٢٢٠ ورقة ( ٤٤٠ صفحة ) وبين سطور القسمين الأول والثانى ترجمة فارسية للكتاب .

#### ٢٥ — نكت الأعراب في غريب الإعراب ( في غريب إعراب القرآن )

غير معروف .

#### ٢٦ — الأمالى في النحو . غير معروف .

#### ٢٧ — المفرد والمركب أو المؤلف . غير معروف .

#### ٢٨ — شرح بعض مشكلات المفصل . غير معروف .

(٤)

#### في العروض

#### ٢٩ — القسطاس . ذكر جرجى زيدان أنه مخطوط في برلين وليدن .

(٥)

#### في الأدب

#### ٣٠ — نوابغ الكلم .

حكم قصار متوالية ، طبعت الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ ( ١٩١٤ م )

في ٥٠ صفحة من القطع الصغير ، وطبعت طبعة أخرى بمصر سنة ١٩٢٧ م

وطبعت في باريس مع ترجمة إلى الفرنسية سنة ١٨٧٦ م بتحقيق س. كاربيير

مينارد ، وطبعت في إستانبول وبيروت .

٣١ — مقامات الزمخشري .

خسون مقامة في النصيح والإرشاد ، موجهة كلها إلى نفسه ، ولكل منها عنوان . وقد شرحها بقلمه ، وطبعت مع شرحه لها [ رقم ١٤ في مؤلفاته ]

٣٢ — أطواق الذهب .

مئة مقالة في المواعظ والنصائح والحكم ومكارم الأخلاق ، كل منها في بضعة أسطر ، وليست معنونة . ترجم إلى الألمانية ، وطبع مع الأصل في فيينا سنة ١٨٣٥ م وفي ستجارت سنة ١٨٦٣ م ، وترجم إلى الفرنسية وطبع في باريس سنة ١٨٧٦ م ، وطبع بشرح الشيخ يوسف أفندي الأسير ، الطبعة الثالثة ببيروت سنة ١٣١٤ هـ في ١١٢ صفحة من القطع المتوسط ، وطبع بشرح الميرزا يوسف خان بن اعتصام الملك بعنوان ( قلائد الأدب في شرح أطواق الذهب ) بمطبعة التمدن بمصر في ١٥٤ صفحة من القطع المتوسط سنة ١٣٢١ هـ

٣٣ — ديوان الزمخشري .

مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٩ أدب في ١١٩ ورقة ( ٢٣٨ صفحة ) من القطع الكبير .

٣٤ — القصيدة البعوضية وأخرى في مسائل الغزالي . مخطوط في برلين .

٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأخيار .

مختارات شتى من الأدب والتاريخ والعلوم ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٥ أدب في ٤٠٢ ورقة ( ٨٠٤ صفحة ) ، وله مختصرات كثيرة ، وطبع بالقاهرة .

٣٦ — النصائح الصغار والبوالغ الكبار .

ذكر بعض مؤرخى الزمخشري أن له كتابين أحدهما النصائح الكبار، وقال جرجى زيدان إنه مطبوع بالقاهرة، والآخر النصائح الصغار، وقال جرجى زيدان إنه مخطوط فى برلين وفى المتحف البريطانى .

ولكنى وجدت الكتاب بهذا الاسم ( النصائح الصغار والبوالغ الكبار ) مخطوطاً بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٣٤٧٨ ز مع نوابغ الكلم، فى ١٦ ورقة، وفى نهاية الكتاب فصل به مئة حكمة للإمام على بن أبى طالب .

٣٧ — نزهة المستأنس . مخطوط فى أيا صوفيا .

٣٨ — ديوان الرسائل . غير معروف

٣٩ — ديوان خطب . غير معروف

٤٠ — ديوان التمثيل . غير معروف

٤١ — تسلية الضرر . غير معروف

٤٢ — رسالة الأسرار . غير معروف

٤٣ — الرسالة الناصحة . غير معروف

٤٤ — سوائر الأمثال . غير معروف

٤٥ — رسالة المسامة غير معروف

(٦)

٤٦ — عقل الكل . غير معروف

٤٧ — كتاب الأجناس . غير معروف

وربما كان الكتابان الأخيران فى المنطق .



## الفصل الخامس

# معالم شخصية

تطلق الشخصية على مجموعة الصفات الجنسية والعقلية والخلقية التي يتصف بها الإنسان ، سواء أ كانت حسنة أم قبيحة .

وكثيرا ما يتميز إنسان من غيره بالطابع العام لهذه الصفات .

وهذه الشخصية لها مصدران : الفطرة ، والتربية ، فهي إذن موهوبة ومكتسبة ، ولكن الفطرية أقوى .

وليس معنى هذا أن نقض من أثر التربية ، لأننا لو اعتمدنا على الهبات الفطرية وحدها لصرنا ضحايا الظروف ، ولفقدت التربية آثارها في بناء العظماء من رجال العلم والأدب والدين والفن .

ولهذه الشخصية عناصر أساسية تقوم عليها : منها الذكاء ، والجاذبية ، والمشاركة الوجدانية ، والشجاعة ، والحكمة ، والتفاؤل ، والتواضع ، وقوة البيان ، والثقة بالنفس والاعتماد عليها ، واعتدال المزاج ، والمظهر العام للجسم وحسن الهندام<sup>(١)</sup> .

فهل نستطيع تصوير الرجل على حقيقته ، ونكشف عن معالم شخصيته ، فيتبين منها الحمود وغير الحمود ؟ لأنه إنسان تغلب قوته ضعفه آنا ، ويغلب ضعفه قوته آنا آخر ، ولأنه من الخطأ أن يتكلف مؤرخ لشخص أن يضيق

---

(١) راجع في علم النفس ٣ / ٣٧٠ .

عليه حالة من الجلال والكمال ، فإذا اعترضه عيب تفاضى عنه ، أو تلمس له دفاعا قائما على العمل ومحافة الحق ، فإن هذا نهج متعيز ينكره البحث العلمى النصف .

فلننتقل الآن إلى إبراز المعالم العامة التى نعرفها من شخصية الزمخشري .

### (١)

#### صفاته الجسدية

لم أجد فيما كتب عنه شيئا يمت إلى صفاته الجسدية من قرب ولا من بعد ، لأن كتاب التراجم القدماء كانوا كثيرا ما يتجاوزون هذه الأوصاف ، إذ كانت فى نظرهم غير وثيقة الصلة بالشخصية التى يترجمون لها .

والشئ الوحيد الذى عرض له كثير من مؤرخيه أنه كان أعرج يمشى فى رجل من خشب ، لأن رجله قطعت فى سفرة من أسفاره كما سيجى .  
ولعله قصد نفسه بقوله « كم رأيت من أعرج ، فى درج المعالى أعرج ، ومن صحيح القدم ، ليس له فى الخير قدم »<sup>(١)</sup> .

### (٢)

#### شغفه بالثقافة

كان الزمخشري ذكيا ومشغوفا بالثقافة ، تبشر مخايله بمستقبل واعد ، حتى لقد أعجب أستاذه أبو مضر بذكائه وجده ، فتعهد برعايته وتوجيهه ، وساعده بماله مؤملا أن يخلفه .

وكانت يثته الخاصة والعامة مذكية لهذا الشغف ، فدرس فى زمخشر أول مدارس ، ثم شخص إلى بخارى لينهل من مناهلها ، ثم زار بغداد والشام ومكة ،

---

(١) نوابغ الكلم ١٤ أعرج الثانية : أرق وأمسد .

وسمع من بعض العلماء ؛ وقرأ كثيرا من الكتب ، وبلغ من كلفه بالثقافة أنه وهو في السادسة والستين - كما ذكر القفطي <sup>(١)</sup> - قرأ بعض كتب اللغة على أبي منصور الجواليقي مستجيزاً لها .

ومن السهل أن نعرف من أسماء أساتذته ومن مؤلفاته أنه درس اللغة ، والنحو ، والعروض ، والأدب ، والبلاغة ، والتفسير ، والقراءات ، والحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والمنطق ، دراسة المتذوق للتعلم ، ولهذا اعتر بدراسته ومؤلفاته ، واقتصر بها في قوله <sup>(٢)</sup> :

تراني في علم المنزل عالماً	وما أنا في علم الأحاديث راسفاً
فللثقة البيضاء في مناجح	ويبغي كتاب الله مني المعارفاً
وما أنا من علم الديانات عابلاً	فأحسن حلّ لم يزل لي شاففاً
وما للغات العرب مثلي مقوم	أبي كل نذب متقن أن يخالفنا
وبى يستفيد النحو من أن يسوسه	كهي لم يجدها الذائقون حصافنا
وعلم المعاني والبيان كلاهما	أزف إلى الخطاب منه وصايفنا
وعلم القوافي والأعاريض شاهد	بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفاً
أقرت بي الآداب أصلاً لها ومن	رأى مشرفيات جعدن المشارفاً
وديوان منظومي يريك بدائعاً	وديوان منشوري يريك طرائفاً

ويظهر من مؤلفاته أنه لم يستوعب أكثر ثقافة عصره فحسب ، بل ساهم في حقولها بشجرات شهيوات الثمرات ، وقد سبقت هذه المؤلفات التي نستطيع منها تقسيم ثقافته إلى عدة مناج : ففاحية دينية تتمثل في تفسيره (الكشاف) بما

(١) إنباء الرواة ٣/ ٢٧٠ .

(٢) ديوان الزمخشري ٧٨ .

تضمن من مسائل شتى، منها علم الكلام، والفقه، وتمثل في مؤلفاته التسعة، وجانب لغوى تمثله مؤلفاته العشرة، واتجاه أدبي يوضح في كتبه الستة عشر، وإحاطة بالنحو تنبئ عنها تسعة كتب، ومساهمة في العروض بكتاب واحد، وكتابان لم يصلإ إلينا، ولم أستطع معرفة موضوعهما، لعلهما أول ل أحدهما في المنطق.

على أنه كان يتقن اللغة الفارسية، فقد ألف معجما بالفارسية والعربية طبع في ليزج سنة ١٨٤٣م كما أن القسم الأول والثاني من كتابه (مقدمة الأدب) وهما في الأسماء والأفعال باللغة العربية واللغة الفارسية.

وهذه الكتب السبعة والأربعون التي منها الكبير ومنها الصغير خير شاهد بالصدق على أن الزمخشري كان متنوع الثقافة، وأنه وهب الدين والعلم واللغة والأدب جهوده وحياته، هبة الباذل الكلف الراغب في مضاعفة البذل والسخاء.

على أنه لم يكن مثل بعض المؤلفين جماعا للمعارف، لاجهد له إلا التنسيق أو الاختيار، بل كان حر الفكر، وكان صاحب كثير من الآراء المبتكرة، كما سيتجلى من تحليل كتبه.

وكان إلى ذكائه وسعة اطلاعه قوى الحجة، قديرا على استنباط المعاني، بارعا في الجدل، حتى لقد طبق تفسيره وتأويله للقرآن الكريم على مذهب المعتزلة تطبيقا لم يسبق إليه على هذه الصورة الكاملة، ولم يحى بعده من صنع صنعه.

(٣)

اعتزاله

كانت خوارزم — كما سبق — تموج بالاعتزال، وتعج بالمعتزلة، وقد ولد الزمخشري بها، ونشأ في ربوعها، ودرس دراسته الأولى على علمائها، وكان

« أبو مضر » أحب أساتذته إلى قلبه ، وأعظمهم تأثيرا في عقله ، وهو معتزلي كما تقدم .

وكان الزمخشري بطبعه كلنا بحرية الرأي ، ميلا إلى عمق الفكر وتقليب وجهات النظر ، وإلى المناقشة والجدل ، فهو يقول <sup>(١)</sup> :

« لا تنفع بالرواية عن فلان وفلان ، وامش في دينك تحت راية السلطان <sup>(٢)</sup> ،  
فما الأسد المحتجب في عرينه أعز من الرجل المحتج على قريته ، وما العنز الجرباء  
تحت الشمال البليل أذل من المقلد بين يدي صاحب الدليل ، وجامع الروايات  
المحوية ، ولا حجة عنده مقوية ، أوفر ظهره بالخطب ، واعتقل زنده بلا سبب .

لم أر فرس رهان مثل الحق والبرهان ، لله درهما متخاصمين ، ولا عديتهما  
متناصرين . . من شد يدية بفرزها فقد اعتر بعزها ، ومن زل عنها فهو من  
الذلة أذل ، ومن القلة أقل <sup>(٣)</sup> .

لهذا دان الزمخشري بالاعتزال ، ونافع عنه ، وطبق على مذهب المعتزلة  
تأويله للقرآن الكريم — كما سيجي — وكان يجد راحة نفسه في إعلان مذهبه ،  
حتى نقل عنه أنه إذا قصد صاحباه واستأذن عليه في الدخول قال لمن يأخذ له  
الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب <sup>(٤)</sup> .

وذكر ابن خلكان أن الزمخشري لما كتب التفسير قال في افتتاح الخطبة  
« الحمد لله الذي خلق القرآن » ف قيل له : إن تركته على هذه الهيئة هجره الناس ،  
ولم يرغب فيه أحد ، فغيره بقوله : « الحمد لله الذي جعل القرآن » لأن جعل

(١) أطوار الذهب ٧١ .

(٢) السلطان : المراد العقل .

(٣) فلائد الأدب في شرح أطوار الذهب ٧١ .

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤ ، وحذرات الذهب ٧٢٠/٤ .

عند المعتزلة بمعنى خلق . ورأيت كثيراً من النسخ فيها « الحمد لله الذى أنزل القرآن » وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف<sup>(١)</sup> .

والنسخ المطبوعة تبدأ بهذا التعبير الذى ذكر ابن حلكان أنه من إصلاح الناس « الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً ، ونزله بحسب المصالح مُنَجَّماً ، وجعله بالتحديد مفتوحاً ، وبالإستعاذة مختتماً »<sup>(٢)</sup> .

وأرجح أن هذه دعوى لا صحة لها ، لأن الزمخشري لم يكن ليفر من التعبير بأنزل وهو يعلم أن القرآن الكريم يردد هذا التعبير فى كثير من سورته ، مثل قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ »<sup>(٣)</sup> . وقوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم »<sup>(٤)</sup> . وقوله : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس »<sup>(٥)</sup> .

وقد نفى الفيروز آبادى صاحب القاموس المحيط هذه الدعوى فقال فيما كتبه على خطبة الكشف : قال بعض الطلبة ، وأثبتته بعض المعتننين بالكشاف فى تعليق له عليه : إنه كان فى الأصل كتب ( خلق ) مكان ( أنزل ) ، وأخيراً غيره المصنف أو غيره حذراً عن الشناعة الواضحة .

وهذا قول ساقط جداً ، وقد عرضته على أستاذى فأنكره غاية الإنكار ، وأشار إلى أن هذا القول بمعزل عن الصواب لوجهين :

---

(١) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤ .

(٢) الكشف ٢/١ .

(٣) سورة آل عمران : ٧ .

(٤) سورة النساء ١١٣ .

(٥) سورة الأنعام ٩١ .

أحدهما : أن الزمخشري لم يكن أهلاً لأن تفوته اللطائف المذكورة في أنزل  
وفي نزل في مفتاح كلامه ، ووضع كلمة خالية من ذلك .

والثاني : أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلى الاعتزال ، وإعما كان يفتخر  
بذلك ، وأيضاً أتى عقيبه بما هو صريح في المعنى - إذ قال : أنشأ كتاباً ساطعاً  
ببانه<sup>(١)</sup> - ولم يبال بأنه قبيح .

وقد رأيت النسخة التي بخط يده بمدينة السلام مختبئة في تربة الإمام أبي  
حنيفة ، خالية من أثر كشط وإصلاح<sup>(٢)</sup> .

#### (٤)

##### عزة نفسه

لقد كان إلى تقواه وتواضعه أبي النفس ، يأنف من الضيم ، ويؤثر الغربة  
على الإقامة في وطنه إن لم يتبوأ المكان اللائق به ، فيرحل إلى حيث يستمتع  
بالتكريم ، ويشعر بالاعتزاز .

وقد سبق في حياته أنه مدح نظام الملك وشكاً إليه ، ونوه بعلمه وأدبه ،  
وجعلهما قرابة وشيجة بينه وبين الوزير الكبير ، ولم يكتف بهذا ، بل عرض  
بتقصير الوزير في رعايته ، وختم القصيدة بالاعتداد المقرون بتعدي نظام الملك  
أن يجله نظيراً في جميع من يرى ، ثم هده بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم  
يسغه بما يريد ، ولأمله على أنه ضيع آماله ، على حين أزد من هم دونه ظفروا  
بما لم يظفر به :

وما حق مثلي أن يكون مُضَيَّعاً      وقد عظمت عند الوزير وسائل

(١) في المقدمة : أنشأ كتاباً ساطعاً ببانه ، ساطعاً برمانه .

(٢) كشف الظنون ٣١٥/٢ .

وأعظمها أني نسيبُ نصابه إذا عرُضتْ أنساب هذى القبائل  
فكلُّ امرئٍ آمالهُ عدد الحضا وهات نظيري في جميع المحافل  
لئن كان امرئ في خوارزم ما أرى فإن رحالي في ظهور الرّواحل<sup>(١)</sup>

فلما صوح أمله اعتزم الرحيل من خوارزم على كره منه ؛ لأن البلد الذي  
مكفل له الكرامة والتقدير خير له من وطنه الجاحد :

أحبُّ بلاد الله شرقاً ومغرباً إلى التي فيها عُذيتُ وليداً  
ولكن توأسي بالكرامة غيرها وهذي أرى فيها الهوان عتيداً<sup>(٢)</sup>

ولم يلبث بعد تطوافه بخراسان وأصفهان أن مرض مرضاً سماه ناهكا ومنذراً،  
فعاهد الله أنه إن برى فلن يتصل بسُلطان ولا بتابع من أتباع سلطان ، وأن  
يهب العلم والتأليف جهده ووقته .

وهنا قد يخطر هذا السؤال : كيف سولت الملامح شري نفسه أن يمدح  
السلاطين والوزراء ويشكو حالته ، ويحجر بمطالبه ؟

وجواب ذلك أنه — كما صور حاله — فقير . وهو إلى فقره عالم أديب ذكي ،  
غلب عليه في شبابه الطموح إلى الشهرة ، والنزوع إلى الثراء ، والتطلع إلى الجاه ،  
وكان يرى أنه أجدر بالرعاية ممن تستعين بهم الدولة ، وتكل إليهم شئونها ، أو  
تثيهم وترعاهم بوسائل شتى ، وبخاصة قبل أن تتقدم به السن ، ويغلب عليه  
الزهد في مباحج الحياة .

ولقد رأى المال في عصره بأيدي المتسلطين والمنهزين ، وفي حوزة الذين

(١) ديوان الزمخشري ٩٠ .

(٢) الديوان ٣٧ .



واتاهم الحظ بالمناصب والسلطان ، ورأى الجاه حكرةً للمقرين إلى الحكام ،  
والمترلفين إلى ذوى الجاه .

وما من شك في أنه كان يوازن بين شقائه وسعادتهم ، وبين علمه وجهل  
كثير منهم ، وبين كفايته وعجز الآخرين .

وهذه الموازنات شوقته إلى المال وإلى الجاه ، فطمع في هبات السلاطين  
والوزراء على عادة كثير من العلماء والأدباء في ذلك العصر وفيما قبله وبعده .  
وستأتى في دراسة شعره موازنة بينه وبين بعض الشعراء في الطلب الصراح .  
على أن عزة نفسه كانت تتجلى في مدائحهم وشكواهم ، فلا يفتأ ينوه بعلمه ،  
وَيُبدِلُ بكفايته ، ويعتد نفسه صاحب جهد يستحق التقدير ، وصاحب حق على  
الدولة ينبغي أن تقوم به وترعاه .

وإنه ليمرر هذا ما سبق في التعريف بنظام الملك وزير السلاجقة من حدب  
على العلماء ، وتشجيع للأكفاء .

ويبدو لي أن الزمخشري يشبه سلفه أياحيان التوحيدى (المتوفى سنة ٥١٤هـ)  
في أن كليهما سبق عصره بما نسميه اليوم (منحة التفرغ) ، وهى فكرة كانت  
بعيدة عن الأذهان في عصريهما ، ولم تعرف إلا منذ سنوات .

ذلك أن الدولة تكفل اليوم لكثير من أصحاب المواهب أرزاقهم زمناً  
معيناً ، ليفرغوا للعمل أدبى أو فنى أو علمى ، لأنه ليس أقتل للشغف بالإنتاج  
من زحمة الوقت بالعمل لكسب الرزق .

والدولة إذ تختص اليوم أناساً بمنحة التفرغ لا تتوخى إلا ما يعود على الوطن  
كله بالخيرات ، لأن هؤلاء المتفرغين لا يختصون فرداً أو جماعة بما تجود به  
قرايحهم من ثمرات .

(٥)

## بين الطموح والقناعة

١ - مازال الزمخشري إلى الخامسة والأربعين من عمره تواقا إلى المنصب، مشتاقا إلى المال، متعلقا بالشهرة، يعتقد أن علمه وأدبه وكفايته هي الوسائل إلى ظفـره بما يأمل

وأغلب الظن أن مرد هذا إلى المنافسات التي علاذكويها بين علماء العصر وأدبائه، فكل منهم يُزْهِى بما نال من جاه وأحرز من منصب، وإلى أن الزمخشري كان في هذه السن يستجيب لآماله ولا يكبحها، وكان يبتغي من الوظيفة والمال والجاه الطمأنينة التي تكفل له التفرغ إلى العلم والأدب، إذ كان فقيرا رعا بهامه أستاذه أبو مضر، كما تحدث هو بذلك<sup>(١)</sup>، وطالما شكوا الفقر في قصائده، وكاشف به نظام الملك مكاشفة المعتد بنفسه وبعلمه الذي لا يجد في الفقر عابا، لأنه ليس من صنعه، كقوله لنظام الملك<sup>(٢)</sup> :

غنى من الآداب لكنني إذا نظرت فما في الكف غير الأنامل  
وقوله<sup>(٣)</sup> :

أشكو الزمان ولا أرى لي مُشْكيا      من يرى شِعْثِي ورَقَّةً حالي  
يا جسر تان من لي بصفقة راجح      في مَشْجَرٍ والفضل رأس المال  
يا ويح أهل العلم كيف تأخروا      والسبق كل سبق للجهال  
في ذمة الأيام لي دين من متى      استَنْفِضِهِ لاقيت طول مطال  
فإلى إلهي المشتكى وبصنعه      دون الأنام منوطة آمالي

(١) الديوان ٩١

(٢) الديوان ٩٤

(٣) الديوان ٩٥

وكثيراً ما نوه بعلمه وفضله في مدائمه وشكاواه قبل أن تتخطى الخامسة والأربعين من عمره ، كقوله في قصيدة مدح بها نظام الملك<sup>(١)</sup> :

ومما شجاني أن غرّ مناقبي      وتغنى بها الركبان بين القوافل  
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي      وسارت مسير النيرات رسائل  
ولي في دقيق النحو والنقد منطق      إذا قلته لم أبق قولاً لقائل  
وقوله لجير الدولة<sup>(٢)</sup> :

فمن مبلغ عني الوزير بأني      كفيل بغادر من ثناه ورائح  
فليت رجالى ألقيت بفنائه      فأرتع في نسمائه غير نازح  
ويقدح زنداً واريّاً من مناقبي      إذا صلّدت كل الزناد لقادح  
وفي شرح أبيات الكتاب<sup>(٣)</sup> لبعض ما      يرى في صفاتي مجللاً أي شارح  
وأنموذجاً<sup>(٤)</sup> أفذت منه يضمه      رجائي أرى فيه وجوه المناجح  
ولعله اقتدى في نغره بالمتنبى حيث يقول<sup>(٥)</sup> :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي      إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا  
فسار به من لا يسير مشراً      وغنى به من لا يغنى مفرداً  
وحيث يقول<sup>(٦)</sup> :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي      وأسمعت كلماتي من به صمم  
أنام ملء جفوني عن شواردها      ويسهر الخلق جرّاهاً ويختصم

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٢٣

(٣) يقصد شرحه لكتاب سيبويه

(٤) يقصد كتابه الأنموذج في النحو

(٥) ديوان المتنبى ١/١٩٣

(٦) ديوان المتنبى ٢/٢٦١

والزنجشري يقرن فخاره هذا بسخريته من الحياة ، التي لم تنوله ما نولت  
سواه ، وبسخطه على الزمن الذي قتر عليه ، وسخا على الذين هم دونه فضلاً  
وعلماً وكفاية ، كقوله<sup>(١)</sup> :

خليلى هل تجدى على فضائلى	إذا أنا لم أرفع على كل جاهل؟
من الفبن ذو نقص يصيب فضائلاً	أخوالفضل محقوق بتلك الفضائل
كذا الدهر كم شوهاة فى الخلى جيدها	وكم جيد حسناء المقلد عاطل
فياليتنى أصبحت مستغنياً ولم	أكن فخر خورزم ورأس الأفاضل
ويا ليتنى مرض صديقى ومسخط	عدوى وأنى فى فهاهة باقل
فلست بفضلى بالغاً ولو اتنى	كقس إباد أو كسحبان وائل

وفى هذه المرحلة من حياته كان يُقرع معاصريه ، ويقسو على مواطنيه ،  
ويصفهم باللؤم والغباء والجهل ، كقوله فى مدح أحمد بن محمد بن على<sup>(٢)</sup> :

لولاك يا بن الفضل لم أك قاطناً	فى بلدة جارت على أمشالى
فى أرض خورزم كريم واحد	ودع اللثام فهم عديد رمال
وإذا وجدت الربيع أصبح أهلاً	بسوى الكرام فذاك ربيع خالى

وقوله فى مدح نظام الملك<sup>(٣)</sup> :

لئن كان أمرى فى خوارزم ما أرى      فإن رجالى فى ظهور الرواحل  
وقوله فى قصيدة لصدر الملك الوزير<sup>(٤)</sup> يدافع عن نفسه ويبرر رحيله من خوارزم :

وترحالمها ليس اغتراباً وإنما      إقامتها فى الناقصين اغترابها

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٩٥

(٣) الديوان ٩٤

(٤) الديوان ١٢

ونستطيع أن نستشف من لومه نفسه بعد ذلك أنه كان يهش إلى الثناء ،  
وذيوع الصيت ، ووصفه بالتفوق في اللغة والنحو والبلاغة والعروض والشعر  
والنثر والعلوم الشرعية ، مثل قوله في مقامة العمل <sup>(١)</sup> :

« يا أبا القاسم لا تسمع لقولهم : فضل مبین ، وأدب متین ، واسم في  
المهارة بهما شهير ، وصيت في إتقانها جدير ، وفتى طَيَّان <sup>(٢)</sup> من المناقص  
والرذائل ، رَيَّانُ من المناقب والفضائل ، إن ذُكِرَ مَتْنُ اللغة فحِلْسٌ من  
أحلاس <sup>(٣)</sup> ، أو قِياس <sup>(٤)</sup> فسانس أفراسه ، أو النحو فهو سيبويه وكتابه ،  
ينطق عنه تراجمه وأبوابه ، فمن مساجله ومُسانيه <sup>(٥)</sup> ، ومزاوله ومعيانيه ، ومن  
يفوص على معان كعانيه ؟ أو نقدُ الكلام فالنَّقدُ إليه كأنهم النَّقد <sup>(٦)</sup> ، وقد  
عاث فيه الذئب الأعقد <sup>(٧)</sup> ، أو العروض فابن بجدتها <sup>(٨)</sup> ، وطلاع أنجدتها ،  
أو القوافي فأبداعه فيها يلقطُك ثمرات الغراب <sup>(٩)</sup> ، وإغرابه فيها يحثو التراب  
في وجوه أهل الإغراب ، أو الشعر فزياده <sup>(١٠)</sup> وحسانه ، وإحسانه كما دَجَّج  
الروض نيسانه <sup>(١١)</sup> ، أو النثر . . . أو معرفة الكتابة والخط فقد لجج <sup>(١٢)</sup>

(١) المقامات ٩٨ .

(٢) طَيَّان من المناقص : مجاز عن خلوه منها ونزاهته .

(٣) فارس من فرسانه من قولهم للعارف بركوب الخيل المعاودة هو من أحلاس الخيل  
شبه في ثباته على متن الفرس بالجلس الذي يجلس به .

(٤) أراد بقياس اللغة علم الاشتقاق ، ويسمى علم المفائيس والأبنية علم التصريف الذي  
هو أدق شطري النحو وأعوصهما ، وإلا فكان حقه أن يقدم ، لأن علم ذوات الكلم مقدم على  
علم أصولها .

(٥) المساجل : المبارى في السقي من السجل وهو الدلو . المساني : مثله من السانية .

(٦) النَّقْد : جنس قبيح من الغم .

(٧) الأعقد : المتلوى اللب .

(٨) يقال للدليل الماهر هو ابن بجدتها وهو من يجد بالمكان إذا أقام به .

(٩) ثمر الغراب مثل في الطيب المتقى لأنه لا يأكل من الثمر إلا أعلاه وأينعه .

(١٠) زياد : النابغة الذبياني .

(١١) نيسانه : المراد الربيع .

(١٢) لجج : خاض اللج .

وترك الناس على الشط ، أو حفظ ما يحاضر به فصَّيبٌ بفيض وبحر لا يفيض ،  
وليس بعريان كعود النبع من ثمر علوم الشرع .

٢ - لكن الزمخشري يئس ، أو قاربه اليأس ، في الوقت الذي مرض  
فيه مرضاً ظنه قاضياً سنة ٥١٢ هـ ، فبصر بما لم يكن يبصر به من قبل ، وعلم  
أن المنصب حلية الخامل ، وأن المال ظل زائل ، فندم على ما أنفق من عمره  
في طلبهما ، وقصر على الإنتاج العلمي والأدبي جهوده ، وجعله وسيلته وغايته .

وحينئذ بدأت مرحلة القناعة والرضا ، وجعل الزمخشري يردد نصائح هي  
أقرب ما تكون إلى الزهد والتصوف ، حتى لقد سمي بعض مقاماته مقامة  
القناعة ، وسمى أخرى مقامة الزهد ، وسمى ثالثة مقامة العزلة ، وسمى رابعة  
مقامة الخمول ، وفي هذه المقامة يقول <sup>(١)</sup> : « يا أبا القاسم ، يا أسنى الخلى  
ما أمضيت من عمرك ، في طلب أن يشاد بذكرك ، ويشار إليك بأصابع بني  
عصرك . عَنيتَ على ذلك طويلاً ، فما أغنيت عنك فتيلاً <sup>(٢)</sup> . وما أدرأك  
يا غافل ما الكامل ؟ الكامل هو العامل الخامل ، الذي هو عند الناس  
منكور ، وهو عند الله مذكور » .

وقال في مقدمته : « اللهم إني أحمدك ... فككت من رقبتي التبعات عني ،  
ومنت بحل إساري وعيتني ، ورقيتني إلى رتبة القناعة وهي الرتبة العليا ، وزهدتني  
في الحرص على زخارف الدنيا »

وقال : <sup>(٣)</sup> « آثر الخمول على النهاة ، واسحب الستر على الوجاهة ، تعش  
أنجي من أظفار الجبن ، وأنأي من إضممار الإحن ، وإن ذا الشرف محسود

(١) مقامات الزمخشري ١٧١ .

(٢) الفتيل : ما في شق النواة مثل الشعرة .

(٣) فلائد الأدب في شرح أطواق الذهب ٢١ ، وأطواق الذهب ١٤ .

أو حاسد ، محفود عليه أو حاقد . وتلك بلية تتقلقل تحتها الأحشاء ، ويفعل الله فيها ما يشاء »

وقال في مقامة القناعة<sup>(١)</sup> :

« يا أبا القاسم اقنع<sup>(٢)</sup> من القناعة<sup>(٣)</sup> لا من القنوع ، تستغن عن كل معطاء ومنوع ، لا تُخَلِّقْ أديم وجهك إلا عند من خلقه وخلقك ، ولا تسترزق إلا من رزقه وإن شاء رزقك . القناعة مملكة تحتها كل مملكة ، لا سبيل عليها لمملكة ، لا يتوقع صاحبها أن يفتقر بعد غنيته ، ولا يقع النفاق في كثره ومُنِيته » .

(٦)

تدينه

هذا العلامة البصير بفضيلة الإسلام ، الخبير بخصائصه ، الضيور على حماءه ، الممارع إلى إحباط ما قد يوجه إليه من أباطيل الكيد والشبهات ، لم يكن يصدر في هذا كله عن علمه وحده ، ولا عن عقله وحده ، بل كان يتخذ عدته من علمه وفكره ووجدانه العميق وتدينه الراسخ ، حتى إن بعض مؤرخيه لم يجدوا في تدينه مضمرا إلا الاعتزال ، فقال ابن حجر العسقلاني إنه صالح لكنه داعية إلى الاعتزال<sup>(٤)</sup> .

ولاشك أن بيئته العامة وبيئته الخاصة كان لهما أثر عظيم في هذا التدين ، فأما البيئة العامة فتتمثلها مدارس الحديث الكثيرة التي أنشأها نظام الملك ،

(١) المقامات ٥٨ .

(٢) اقنع يكون أمراً من قنع بمعنى رضى رضى وزناً ومعنى ، ويكون من قنع يفسح بمعنى سأل يسأل وزناً ومعنى .

(٣) القناعة : الرضى باليسير .

(٤) لسان الميزان ٤/٦ .

وتمثلها مجالسه التي كان يعمرها القراء والفقهاء وأهل الخير والصلاح ، وكان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني يقوم لهما ، ويجلس في مكانه كما هو ، وإذا دخل عليه أبو علي الفارندي يقوم إليه ويجلسه في مكانه ، ويجلس بين يديه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا عليّ يقولون لي : أنت كذا وكذا يثنون علي بما ليس في ، فيزيدني كلامهم عجاوتها ، وهذا الشيخ يذكرني عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم ، فتتكسر نفسي لذلك ، وأرجع عن كثير مما أنا فيه <sup>(١)</sup> .

وأما البيئة الخاصة فإن الزمخشري ثمرة طيبة من شجرة طيبة ، فقد ساهم والداه في تربية عاطفته الدينية ، إذ كان أبوه عالما ورعا صواما قواما حريصا على مكارم الأخلاق ، وقد أشاد الزمخشري بهذا ، وبتذوق أبيه للأدب في قوله يرثيه <sup>(٢)</sup> :

فقدته فاضلا فاضت مآثره العلم والأدب المآثور والورع  
أخا طباع مصفاة مناسبة ماء السحابة ما في بعضها طبع  
لم يأل ما عاش جدًّا في تقاه يرى أن الحريص على دنياه منخدع  
صام النهار وقام الليل وهو شجر من خشية الله كاني اللون ممتقع  
قريب عهد بوخط الشيب عارضه إثر الشباب ووخف الليل متبع  
من المروءة في علياء متسع صدرا وإن لم يكن في المال متسع

لم يذق الخمر ، ولم يذقها أبوه ، ولا أحد من أسرته ، والناس شهود على ذلك ، قال في وصف الخمر <sup>(٣)</sup> :

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦ ، ٧١ ، وتاريخ آل سلجوق ٥٤ .

(٢) ديوان الزمخشري ٧٢ .

(٣) ديوان الزمخشري ٨٥ .



هات التي ظلمنا شَبَّهتْ بـ شمس ضحا لو عارضتها لَفَطَتْها بإشراق  
 أستغفر الله أنى قد نَسَبْتُ بها ولم أكن لِحَيَّاهَا بنوَّاق  
 ولم يذقها أبى كلا ولا أحدٌ من أسرتى ، واتفاق الناس مصداق  
 كذلك كانت أمه متدينة رحيمة القلب ، بلغ من تأمها وعطفها على العصفور  
 أن غضبت من ابنتها ، واحتاجت فدعت عليه دعوة خطيرة نفست بها عن موجدتها ،  
 فهو يقص حدثا من أحداثه فى صباه فيقول <sup>(١)</sup> : كنت فى صباى أمسكت  
 عصفورا ، وربطته بخيط فى رجله ، فأفلت من يدي ، فأدركته وقد دخل فى خرُق ،  
 فجذبتة ، فانقطعت رجله فى الخيط ، فتألمت والدتى لذلك ، وقالت : قطع الله رجلك  
 كما قطعت رجله . فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم ،  
 فسقطت من الدابة ، فانبكسرت رجلى ، وأصابنى ألم أوجب قطعها .

ويظهر أن البرد الشديد أثر فى الكسر فاضطره إلى قطع رجله ، لأن الثلج  
 والبرد — كما يقول ابن خلكان — كثيرا ما يؤثر فى الأطراف فى تلك البلاد ،  
 فتسقط ، خصوصا فى خوارزم ، فإنها فى غاية البرد ، ولقد شاهدت خلقا كثيرا ممن  
 سقطت أطرافهم بهذا السبب ، فلا يستبعد من لا يعرفه <sup>(٢)</sup> .

ومن مظاهر تدينه المتصلة بقطع رجله أنه عزا قطعها إلى دعاء والدته ، فقد  
 سأله الدامغانى الفقيه الحنفى المتكلم عن السبب فقال : دعاء الوالدة <sup>(٣)</sup> .

ويذكر ابن خلكان أنه لما سقطت رجله أشهد فى محضر خلقا كثيرا  
 ممن اطلعوا على حقيقة ذلك ، خوفا من أن يظن من لم يعلم الحقيقة أنها قطعت  
 لرؤية ، ثم اتخذ رجلا من خشب .

(١) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤ ، ومعجم الأدباء ١٢٧/١٩ .

(٢) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤ .

(٣) وفيات الأعيان ٢٧٥/٤ ، ومعجم الأدباء ١٢٧/١٩ ، وشذرات الذهب ١١٩/٤ ،

ومرآة الجنان ٢٦٩/٣ ، وإنباء الرواة ٢٦٨/٣ .

بدفع من هذا التدين حجرات ، واعتزم أن يقيم بمكة لا يفتنى عنها حولا ،  
فلما غالبه الشوق إلى وطنه غادرها تلتفت إليها عينه ، حتى توارت معالمها  
فتلفت قلبه ، ثم لم يلبث أن اشتاق إليها أشد الشوق ، وحن إليها أعظم الحنين ،  
وقرع نفسه على فراقها ، فسارع إليها مرة ثانية ، وأقام بها سنوات ، وسمى نفسه في  
هذه المرة جار الله :

أنا الجار جار الله مكة مركزى ومضرب أوتادى ومُعقِدُ أطنابى  
فمن يُلقَى في بعض القرىَات رحله فأم القرى مُلقَى رحالى ومنتابى  
ومن كان في بعض المحاريب راكعا فللكعبة البيت المحرم محرابى  
ولا يخلو كتاب من كتبه من دلائل تقواه ، وحضه على الطاعة والعبادة  
نفسه وسواه ، وكلفه بالحكمة والموعظة التي تهذب الأخلاق وتسمو بالنفوس .  
لهذا قال في مقدمة المقامات <sup>(١)</sup> : « وأنا أقدم قبل الخوض في ذلك تنبيهك  
على ألا تطالع هذه النصائح إلا ملقيا فكريك إلى معانيها ، مُحضِرًا ذهنك لأوامرها  
ونواهيها . حتى يكون اقتباسك منها في أخلاقك وأفعالك أوفر من استفادتك  
لبلاغتها وبراعتها ، فقد علمت ببعض ما فيها مما يهذب النفس ، ويطهر القلب » .  
ثم قال إنه عاهد نفسه ألا يُدرّس من العلوم إلا ما هو مُهيّب بدارسه إلى  
الهدى ، رادع له عن مشايعة الهوى ، ومُجدِّ عليه في علوم القراءات والحديث  
وأبواب الشرع ، من <sup>(٢)</sup> عرف منه أنه يقصد بارتياده وجه الله تعالى ، ويرمى  
به الغرض الراجع إلى الدين ، ضاربا صفحا عن يطلبه ليتخذ أهبة للمباهاة ، وآلة  
للمنافسة ، ووسيلة إلى الخطوة عند الخائضين في غمرات الدنيا ، والتسمى بين  
ظهرانهم بالفاضل والتلقب بالبارع » .

(١) مقامات الزمخشري ٨

(٢) من عرف : مفعول يدرس ، ودرس متعد إلى مفعولين .

وخطب نفسه بقوله <sup>(١)</sup> : « يا أبا القاسم ، العمر قصير ، وإلى الله المصير ، فما هذا التقصير ؟ إن زبرج الدنيا قد أضلك ، وشيطان الهوى قد استزلك <sup>(٢)</sup> ، ألا إن الأحبى بك أن تلوذ بالركن الأقوى ، ولا ركن أقوى من ركن التقوى » .

ونهى نفسه في مقامة العمل عن الاغترار بالثناء عليه ، ووصفه بالبراعة في العلوم والأدب ، وعقب على هذا بأن الأديب هو الداعية إلى الفضائل ، المبرأ من العيوب ، والماتل هو الذي يبتغى من أعماله أن يكون عند الله وجيها ، لأن العلم بلا عمل كالقوس بلا وتر : « لعمر الله ليس بأديب ولا أريب ، كل مُعربٍ وحافظ غريب . الأديب من أخذ نفسه بأداب الله فهدبها ، ونقح أخلاقه من المقد الشائنة فشذبها . والأديب الفاضل من لم يكن له أرب ولا وطر ، إلا أن يكون له عند الله فضل وخطر ، ماغناء من قوى علمه وعمله قد فتر ؟ إن علما بلا عمل كقوس بلا وتر ، حاملها حيران مرتبك في العماية ، لا يهتدى وإن كان ابن تقن <sup>(٣)</sup> إلى وجه الرماية . . . . . واعلم أن العلم إنما يُتَعَلَّم ، لأنه إلى العمل سُلَّمٌ ، كما أن العمل إلى ما عند الله ذريعة ، ولولاها ما علم علم ولا شرعت شريعة <sup>(٤)</sup> » .

وقال في مقدمة ( أطواق الذهب ) وهي مواعظ أنشأها في مكة :

« أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها ما وجب للجار ، من حق الدِّمَامِ والدِّمَارِ ، لأنها وُجِدَتْ في حرمك المطهر ، وولدت في حجر بيتك المستر » .

وذكر يوسف الإشتياني شارحها أنه كان يطوف ببيت الله ، فإذا فرع من

(١) المقامات ١٥

(٢) استزلك : جرك إلى الزلل .

(٣) ابن تقن : اسمه عمرو بن تقن من فاد ضربت به العرب المثل في جودة الرمي .

(٤) المقامات ١٠١

للطواف ألف مقالة، ثم يقوم ويطوف وينشئ مقالة، وما زال على ذلك إلى أن بلغت مئة كاملة<sup>(١)</sup>.

وذكر ابن خلكان<sup>(٢)</sup> أنه سمع من بعض فضلاء حلب أن الزمخشري أنشده هذه الأبيات، وأوصى أن تكتب على لوح قبره، وهي الأبيات التي استشهد بها عند تفسير قوله تعالى: «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها»<sup>(٣)</sup>:

يا من يرى مدّ البعوض جناحها      في ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى عروق نياطها في نحرها      والمخ في تلك العظام النحل  
اغفر لعبد تاب من فرطاته      ما كان منه في الزمان الأول  
وعلى هدى من تدينه وتقواه      اتخذ لنفسه دستوراً لا يتعداه، وتبرم بمعاصره،  
وآثر الوحدة على مخالطهم، لأنهم أهل غيبة وانحراف عن الدين وتعاون  
على الآثام.

قال في مقامة العزلة<sup>(٤)</sup>: «قاتل الله بني هذه الأيام، فإنهم طلائع الشرور والآثام، حوارم غوار، ونقالهم نقار»<sup>(٥)</sup>، ووافقهم نفاق، تسلق بالسنتهم الأعراض، كما ترشق بسهامهم الأغراض. تجمع الندوة كبارهم فلا يتواصون بالصبر، بل يتناصون على الصدر»<sup>(٦)</sup>.

إن آنسوك حدت الوحشة، وإن جالسوك وددت الوحدة، بينا أنت في

(١) فلائد الادب في شرح أطواق الذهب ٩.

(٢) وفيات الأعيان ٢٥٩/٤.

(٣) سورة البقرة ٢٦.

(٤) المقامات ٧٢.

(٥) نقالهم: منافلتهم الكلام. نقار: منافرة ينقر بعضهم بعضاً بالنقب. وفي نوايح الكلم (الزبد النوار ما اسود القار).

(٦) يتناصون: يأخذ بعضهم بناصية بعض على صدر المجلس.

خلواتك وأفرادك ، مكبا على أحزابك<sup>(١)</sup> وأورادك . . . . إذ فوجئت بمُثاقنة<sup>(٢)</sup> بعضهم ، من الذين أخذك الله يفضهم ، فضرب بينك وبين ما كنت فيه بأسداد ، ورماك بأمر من تلك الأول بأسداد ، ملقيا أسباب الفتن بين يدي افتنانه ، مخلفا للأدب والسنن وراء استنانه ، لا يدفع في صدره من حياء دافع ، ولا يزعه من دين حقّ وازع .

فإذا أنشأ يأكل لحم أخيه بالنقيصة والثلب ، ويبلغ في دمه الحرام ولوغ الكلب ، ويصوب ويصعد في تمزيق فروته ، ويقوم ويقعد في قرع مروته<sup>(٣)</sup> ويخلط ذلك باستهزاء متتابع ، واستغراب متدافع ، لم يملك حينئذ عنانه ، ولم يثبّط عن استهزائه جنانه<sup>(٤)</sup> .

فإن لم تقبل عليه بوجهك وصفك بالكبرياء ، وإن لم ترعه سمعك نسبك إلى الرياء ، وإن أعطيته من نفسك ما يريد ، فكلّا كما والشيطان المرید :

الإنسُ مشتقٌّ من الأنس والأُنسُ أز تنأى عن الإنس  
نيسابهم مُنْسٌ ولكنّها على ذئاب منهم طلس<sup>(٥)</sup>

(٧)

تواضعه

وهو مع إباطه وعزة نفسه متواضع ، لطيف المعاملة ، ظريف المجاملة .

(١) الحزب : الورد يقال : قرأت حزبي من القرآن .

(٢) المثاقنة : المجالسة وقال اللحياني ثاقنه : لازمه ولم يبارحه .

(٣) المروّة : الحجرة الصلبة ، والمراد هنا الأصل .

(٤) الحنان : جمع جان .

(٥) طلس : جمع أطلس وهو الذئب في لونه غبرة إلى سواد .

قدم إلى بغداد في طريقه إلى مكة ثاني مرة ، فزاره كثير من الناس لتكريمه  
والسمع منه ، وكان فيهم الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجري ، فلما جلس  
إليه بهره الزمخشري علما وأخلاقا ، فأنشد ابن الشجري متمثلا :

كانت مساءلة الركبان تخبرني      عن أحمد بن دُوادٍ أطيّب الخبر  
حتى التقينا فلا والله ما سمعت      أذني بأحسن مما قد رأى بصري  
وأنشده أيضا :

وأستكبر الأخبارَ قبل لقائه      فلما التقينا صغّرَ الخبرَ الخبرُ  
ثم أخذ يثنى عليه . فلما فرغ من كلامه شكر الزمخشري له ، وعظمه ، وتصاغره ،  
وقال إن زيد الخيل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بصر بالنبي  
رفع صوته بالشهادتين ، فقال له النبي : يا زيد الخيل ، كل رجل وصف لي وجده  
دون الصفة إلا أنت ، فإنك فوق ما وصفت ، وكذلك سيدنا الشريف . ثم  
دعاه وأثنى عليه<sup>(١)</sup> .

وكتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي من الإسكندرية - وهو  
مجاور بمكة - يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته ، فرد جوابه بما لا يشقى الغليل .  
فلما كان العام الثاني كتب إليه أيضا مع الحجاج استجازه أخرى اقترح فيها مقصوده ،  
وقال في آخرها : ولا يحوج - أدام الله توفيقه - إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة ،  
وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشقى الغليل ، وله في ذلك الأجر الجزيل .

فرد عليه الزمخشري ردا حافلا بالتواضع والسلامة من الغرور ومن التعالي  
والتعالم ، صور فيه نفسه بين العلماء صغير القدر ، ضحل المعرفة ، وذكر أن حظه  
من الدراية نزر ، ونصيبه من الرواية قليل ، وتنصل من ثناء الناس عليه ، وعلل

(١) معجم الأدباء ١٢٨/١٩ ونزعة الألباء ١/٧٠ ،

له بأنه اغترار منهم بالظاهر الملموء، ثم التمس لهم العذر، لأنهم ربما أعجبوا بنصحه للمسلمين، وبترفعه عن حطام الدنيا وسفاسفها، وختم الرسالة بتوكيده أنه صادق فيما يقول :

من رسالته قوله : مامثل مع أعلام العلماء ، إلا كمثل الشها<sup>(١)</sup> مع مصابيح السماء، والجهم<sup>(٢)</sup> الصف<sup>(٣)</sup> مع الرهام<sup>(٤)</sup>، ومع الفوادي الغامرة للقيعان والآكام، والشكيت<sup>(٥)</sup> الخلف مع خيل السباق، والبغات<sup>(٦)</sup> مع الطير العتاق .

وما التقيب بالعلامة ، إلا شبه الرقم بالعلامة ، والعلم مدينة أحد بابيها الدراية ، والثاني الرواية ، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مُرجاة<sup>(٧)</sup> ، ظلّ فيها أقلص من ظل حصاة .

أما الرواية فحديثه الميلاد ، قريية الإسناد ، لم تستند إلى علماء نحارير<sup>(٨)</sup> ، ولا إلى أعلام مشاهير .

وأما الدراية فشمد<sup>(٩)</sup> لا يبلغ أفواها ، وجرض<sup>(١٠)</sup> ما يبل شفاها .

ثم قال : لا يفرنكم قول فلان في ولاقول فلان . وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطع من الشعر ، وأوردها كلها .

- 
- (١) الشها : كوكب خفي في بنات نعل الصغرى .  
 (٢) الجهم : السحاب لا ماء فيه .  
 (٣) الصف : الخالي .  
 (٤) الرهام : جمع رهمة وهي الطر الضيف الدائم .  
 (٥) الشكيت : آخر خيل الحلبة .  
 (٦) البغات : أضف الطير .  
 (٧) مرجاة : قليلة .  
 (٨) نحارير : جمع نحير وهو الخاذق الفطن الحبير .  
 (٩) الشمد : الماء القليل .  
 (١٠) جرّض : قليل .

ثم قال : فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر الموه ، وجهل بالباطن المشوه . ولعل الذي غرهم منى مارأوا من حسن النصيح للمسلمين ، وتبليغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع عنهم ، وإفادة المبرار والمصنائع عليهم ، وعزة النفس ، والرب بها عن السفاسف الدنيات ، والإقبال على خو يصق ، والإعراض عما لا يعنيني ، فجلت في عيونهم ، وغلطوا في ، ونسبوني إلى مالت منه في قبيل ولا دبير<sup>(١)</sup> .

وما أنا فيما أقول بها ضم لنفسي ، كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قول أبي بكر الصديق رضوان الله عليه : « وَلَيْتُكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ » إن المؤمن ليهضم نفسه ، وإنما صدقت الفاحص عني ، وعن كنه روايتي ودرايتي ، ومن لقيت وأخذت عنه ، وما بلغ علي وقصاري فضلي ، وأطلعت طلع أمري ، وأفضيت إليه بخبيئة سري ، وألقيت إليه هجري وجرى<sup>(٢)</sup> ، وأعلمته نجمي وشجري<sup>(٣)</sup> . وقال ابن خلكان : ما أعلم هل أجازه بعد ذلك أولا<sup>(٤)</sup> .

وقال في مقامة العمل يخاطب نفسه : « نعم يا أبا القاسم إن سمعهم يقولون : ما أكثر فضلك فقل إن فضولي أكثر ، وما أغزر أدبك فقل إن قلة أدبي أغزر »<sup>(٥)</sup> .

ولم ينس أن يشيد بخلق التواضع في استنباطه بعض الأخلاق من تفسيره

(١) فلان ما يعرف قبلا من دبير أي ما يعرف الشاة المقابلة من المدابرة ، أو ما يعرف من يقبل عليه ممن يدبر عنه ، أو ما يعرف نسب أمه من نسب أبيه (القاموس المحيط مادة قبل) وأصله من قتل الحبل إذا مسح اليمين على اليسار علواً فهو قليل وإذا مسحها عليها سفلاً فهو دبير (أساس البلاغة مادة قبل) .

(٢) المراد أطلعت على عبوبي ، وأصل المجر العروق المتعقدة الناتجة ، والبحر ما تعقد منها على البطن خاصة (أساس البلاغة مادة يجر) .

(٣) النجم ما نجم من النبات على غير ساق .

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٦/٤ ومعجم الأدباء ١٣٢/١٩

(٥) مقامات الزمخشري ١٠١



قوله تعالى : ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين»<sup>(١)</sup>

قال: في الآية دليل على شرف العلم، وإنافة محله، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجرزل القسم ، وأن من أوتيته فقد أوتي فضلا على كثير من عباد الله ، كما قال تعالى : « يرفعُ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجات »<sup>(٢)</sup> .

وماسمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة ، لأنهم القوام بما بعثوا من أجله .

وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم ، منها أن يحمّدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم ، وفيها التذكير بالتواضع ، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم ، وما أحسن قول عمر : كل الناس أفقه من عمر<sup>(٣)</sup> .

## (٨)

### حبه للعرب والعربية

كانت العصبية الجنسية قد بلغت أشدها في ذلك العصر الذي طاش فيه الزمخشرني ، وكان كثير من الأعاجم قد انتهزوا ضعف الخلافة العباسية ، وتفرق العرب ، وقيام دويلات غير عربية ، فجعلوا يتعالون على العرب ، وينتقصون من قدرهم ، ويتهجمون على تاريخهم ، وأخلاقهم ، ويحاولون أن يحيا لغاتهم القومية ، ويستعصوا بها عن العربية .

(١) سورة النمل ١٥

(٢) سورة المجادلة ١١

(٣) الكشاف ١٣٩/٢

ولكن الزمخشري العالم اللغوي الأديب وقف في تيار الشعوبية بصدده ما استطاع ، لأنه كان يصل ما بين العروبة والإسلام ، ويصل ما بين اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، قال في مقدمة كتابه ( الفصل ) :

« الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية ، وجبلي على الغضب للعرب والعصية ، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي إلى لقيف الشعوبية وأنحاز ، وعصني من مذهبهم الذي لم يُجدِ عليهم إلا الرشق<sup>(١)</sup> بالسنة اللاعنين ، والمشق<sup>(٢)</sup> بأسنة الطاعنين .

ولعل الذين يفضون من العربية ويضعون من قدرها ، ويريدون أن يخفضوا مارفع الله من منارها - حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ، ولكن في عربيه - لا يبعدون عن الشعوبية منابذةً للحق الأبلج ، وزيفاً عن سواء المنهج ، ثم سفهم وعجب من دعاوهم وهم لا يدرسون إلا بالعربية « والذي يقضى منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقها وكلامها وعلى تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بَيِّن لا يدفع ، ومكشوف لا يتقنع »<sup>(٣)</sup> .

وقد جهر بتفضيل العرب في قوله :<sup>(٤)</sup>

العرب نبعٌ صلب المعاجم ، والغربُ مثلٌ للأعاجم<sup>(٥)</sup> .

وفي قوله :<sup>(٦)</sup>

فرقك بين الرطب والعجم<sup>(٧)</sup> ، هو الفرق بين العرب والعجم .

(١، ٢) الرشق : الإصابة بالمكروه . الشق : سرعة الطعن .

(٣) شرح الفصل ١/٣ - ١٦ .

(٤) نوابغ الكلم ٧ .

(٥) النبع : شجر صلب تتخذ منه القسي . الغرب : شجر ضعيف رخو .

(٦) نوابغ الكلم ٣٨ . (٧) العجم : نواة الثمر .

ولهج بالعرب وبأخلاقهم ، وسخر بالشعوبية في قوله<sup>(١)</sup> :

وقل هل فشا في الأرض غير لسانهم      لسان فُشُو الضوء واليوم شامس ؟  
به عَجَّ في أمصارها كل منبر      وطنت به في الخافقين المدارس  
على ظهرها لم يخلق الله أمة      تناسبهم في خصلة أو تلابس  
تقايِسُ بين الناس حتى إذا انتهى      إلى العرب المقياس طاح المقايِسُ  
أَجَلُ رسول منهم وبُلسَنهم      أجل كتاب فاعتبر يا منافس  
وقل للشعوبيين إن حديثكم      أضاليل من شيطانكم ووساوس  
لكم مذهب فَلَ يُفَرَّ بِمثله      أشايب حتى لا الرجال الأكايِسُ

وردد في كثير من كتبه إعجابه باللغة العربية وإيثاره إياها ، وثناؤه على بلغاتها ، فقال في مقدمة كتابه ( الفائق في غريب الحديث ) إنها أفصح اللغات ، وبلاغتها أتم البلاغات ، وأثني على عدنان وأبنائه ، وقحطان وأحيائه ، وعلى شعرائهم وخطبائهم الذين سحروا الناس ببلاغتهم .

وقال في كتابه ( مقدمة الأدب ) : « الحمد لله الذي فضل على جميع الألسنة لسان العرب ، كما فضل الكتاب المنزل به على جميع الكتب » .

لهذا كان براون محقا في قوله<sup>(٢)</sup> : إن الزمخشري من أقوى المعارضين لمذهب الشعوبية ، وهو المذهب الذي يفضل العجم على العرب في كل شيء .

(١) ديوان الزمخشري ٦١

(٢) تاريخ الأدب في إيران ٤٥٩

(٩)

### قسوته على مخالفيه

كان للزنجشري مخالفون في مذهبه أهمهم ثلاث طوائف، وله مع كل منها موقف. أما الأولون فهم الشافعية والمالكية والحنابلة، لأنه كان حنفي المذهب<sup>(١)</sup>، وقد باهى بحنفيته في قوله<sup>(٢)</sup> :

وَأُسْنَدُ دِينِي وَاعْتِقَادِي وَمَذْهَبِي إِلَى حُنَفَاءِ أَخْتَارِهِمْ وَحَنَائِفِ حَنِيفَةِ أَدْيَانِهِمْ حَنِيفِيَّةٌ مِزَاجُهُمْ لَا يَبْتَغُونَ الزَّعَانِفَا وَقَالَ<sup>(٣)</sup> : رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْعُلَمَاءِ الْخَاشِعِينَ مِنْ اللَّهِ وَحَسَابِهِ ، جَمَعُوا إِلَى الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ الْعِلْمَ الْحَنِفِي .

ولكنه على الرغم مما كان بين أتباع هذه المذاهب من خصومة في كثير من الأوقات والجهات لم يتعصب للحنفية، ولم يجرّح مخالفهم، بل كان يورد الآراء المختلفة بغير تعليق تارة، وبترجيح مذهب على آخر تارة، وقد يختار مذهب الشافعية، كما نجد في تفسيره للآية الكريمة: « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَيْضِ قُلْ هُوَ أَذْيٌ فَأَعْتَزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْحَيْضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ<sup>(٤)</sup> » وكما في تفسيره للآية الكريمة: « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ<sup>(٥)</sup> » .

وأما الفريق الثاني فهم السنية، وقد قسا عليهم مراراً، وسفه آراءهم، وضعف دينهم، ومن الإنصاف أن نذكر أن أهل السنة طالموا خاصموا المعتزلة،

---

(١) تاريخ أبي الفدا ١٦/٣

(٢) ديوان الأدب ٧٨

(٣) أطواق الذهب ٥٢

(٤) سورة البقرة ٢٢٢ والكشاف ١٠٣/١

(٥) سورة البقرة ٢٣٧ والكشاف ١١٤/١

وحرصوا عليهم ، وكفروهم ، ولا شك أن الزمخشري كان يعلم هذا ، وكان يجد من السنية المعاصرين له تنكرا ومخاصمة ، فلقبهم بمثل ما يلقونه به .

من قسوته على السنية ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ <sup>(١)</sup> » فقال : « العزيز الحكيم » صفتان مقررتان لما وصف الله به ذاته من الوحدانية والعدل . فإن قلت : ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم ، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله ؟ قلت : هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة ، والبراهين القاطعة ، وهم علماء العدل والتوحيد — يقصد المعتزلة — .

وقوله ( إن الدين عند الله الإسلام ) جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى ، لأن قوله ( لا إله إلا هو ) توحيد ، وقوله ( قَانِمًا بِالْقِسْطِ ) تعديل ، فإذا أردفه قوله ( إن الدين عند الله الإسلام ) فقد أذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد ، وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين . وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية ، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور ، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام .

وقد عقب ابن المنير على هذا بما يماثله في القسوة والتعجيز <sup>(٢)</sup> .

وأما الفريق الثالث فهم المتصوفة ، ولا عجب في مخاصمتهم لهم ، لأن بين المعتزلة والمتصوفة اختلافا جسيما .

ذلك بأن المتصوفة دانوا بالجبر صراحة ، فقد روى عن أبي عبد الله أحمد ابن يحيى الجلاء قوله : « من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ

(١) سورة آل عمران ١٨ — ١٩

(٢) الكشف وهاشمه ١٣٧/١

على القرائن في أول موافقتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحد لا يرى إلا واحدا<sup>(١)</sup> » ، على حين أن المعتزلة يدينون بالحرية والاختيار .

والمتصوفة غالوا في تقدير النبي عليه الصلاة والسلام مغالاة لم يعرفها المسلمون الأولون ، ولم يقرأها المعتزلة .

والمتصوفة يعتقدون في الولاية والأولياء اعتقادا خاصا ، فالأولياء في نظرهم أنواع وطبقات<sup>(٢)</sup> ، ولهم كرامات<sup>(٣)</sup> ، أما المعتزلة فلا يعترفون بالولاية على هذا النحو ، لأن المسلمين الطائعين في نظرهم أولياء الله وأحبائه .

وقد اشتهر بعض المتصوفة في القرنين الرابع والخامس بمعاشرة المخالفين ، ورفقة النساء ، وصحبة الأحداث ، وإيثار العزوبة ، على الرغم من أن أكثر الصوفية القدماء كانوا متزوجين<sup>(٤)</sup> ، وفي هذا يقول الحنجوري في القرن الخامس : إن شيوخ المتصوفة متفقون على أن العزوبة هي اللاتقة بالتصوف ، لتكون قلوبهم خالية من المشاغل ، وطباعهم مبرأة من الشهوات والمعصية ، وأساس التصوف هو العزوبة ، أما الزواج فلغيرهم<sup>(٥)</sup> .

والمتصوفة يتخذون وجدانهم وإلهامهم وسيلة للمعرفة ، على حين أن المعتزلة يجعلون وسيلتهم ما يفهمونه من القرآن والسنة وما يستنبطون منها بعقولهم . والمتصوفة يولون نفوسهم وأرواحهم عنايتهم ، والفقهاء والمعتزلة يهتمون بالعناية أعمالهم وظواهرهم .

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٠ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٢٣٧/٢ وكشف المحجوب .

(٣) الرسالة القشيرية . باب الكرامات .

(٤) الرسالة القشيرية ٢٢ .

(٥) كشف المحجوب ( النص الفارسي ) .

والتصوفة يهيمون بالحب الإلهي غير متعلقين برغبة في ثواب أو رهبة من عقاب ، ولكن المتكلمين والفقهاء يعتمدون على العبادات ، أملًا في الثواب وخوفًا من العقاب .

وقد سَفَّه الزمخشري المتصوفة ، فمن تسفيهه لهم وسخريته بهم ما ذكره في سير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَأْتُمْ »<sup>(١)</sup> . فقال : محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وألا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه ، ومحبة الله لعباده أن يشبههم أحسن الثواب على طاعتهم ، ويعظمهم ، ويثنى عليهم ، ويرضى عنهم ، وأما ما يعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله ، وأمقتهم للشرع ، وأسوؤهم طريقة - وإن كانت طريقته عند أمثالهم من الجهالة والسفهاء شيئًا - وهم الفرقة المفتعلة المتفَعِّلة من الصوف - يقصد المتصوفة - وما يدعون به من المحبة والعشق ، والتغنى على كراسيهم خربها الله ، وفي مراقصهم عطَّلها الله ، بأبيات الغزل المقولة في المزدان الذين يسمونهم شهداء ، وصعقاتهم التي أين منها صُتْقَة موسى عند دَكِّ الطور ، فتعالى الله عنه علوا كبيرا . ومن كلماتهم : كما أنه بذاته يحميهم كذلك يحبون ذاته ، فإن الهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات . ومنها : الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة ، فإذا لم يكن كذلك ، لم تكن فيه حقيقة<sup>(٢)</sup> .

وعَلَّقَ ابن المنير بقوله : لاشك أن تفسير محبة المبدل لله بطاعته على خلاف الظاهر ، وهو من المجاز الذي يسمى فيه المسَّبَّبُ باسم السبب ، والمجاز الذي لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرهما ، فليمتحن حقيقة المحبة لغة لينظر أهي ثابتة

(١) سورة المائدة ٥٤

(٢) الكشف ٢٦١/١

للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ؟ إذ المحبة لغة ميل المتصف بها إلى أمر لاذئ، واللذات المحبوبة منقسمة إلى مدرك بالحس كلذة الذوق في المعلوم . ولذة النظر . . . . . وإلى لذة تدرك بالعقل كلذة الجاه والرياسة والعلوم ، ثم تتفاوت المحبة بحسب تفاوت البواعث عليها . . . . . وليس معلوم أكمل ولا أجمل من العبود الحق ، فاللذة الحاصلة في معرفته تعالى ومعرفة جلاله تكون أعظم ، والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن ، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات .

ومعنى هذا أن محبة العبد لربه ممكنة بل واقعة من كل مؤمن ، فهي من لوازم الإيمان وشروطه . والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم ، وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقية لغة ، وكانت الطاعات كالسبب عنها والمغاير لها . ألا ترى إلى الأعرابي الذي سأل عن الساعة فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كبير عمل ، ولكن حب الله ورسوله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت . فهذا الحديث ناطق بأن المفهوم من المحبة غير الأعمال والتزام الطاعات ، لأن الأعرابي نفاه ، وأثبت الحب ، وأقره النبي على ذلك .

ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة في اللغة إذا أكدت سميت عشقا ، فمن تأكدت محبته لله تعالى ظهرت آثارها عليه ، من استيعاب الأوقات في ذكره وطاعته ، فلا يمنع أن تسمى محبته عشقا ، إذا العشق ليس إلا المحبة البالغة . وما أردت بهذا الفصل إلا تخلص الحق والاتصاف لأحباب الله عز وجل من الزمخشري ، فإنه خلط في كلامه الفث بالسمين ، فأطلق القول بالقدح الفاحش في المتصوفة من غير أن يتحرى ، ونسب إليهم ما لا يعبأ بمرتكبه ، ولا يعد في البهائم فضلا عن خواص البشر .

ولا يلزم من تسمى طائفة بهذا الاسم غاصبين له من أهله ، ثم ارتكابهم ما نقل عنهم مما بنا في حال المسمين به حقيقة ، أن يؤاخذوا بالصالح بالطالح ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .



كما أن علماء الدين قد انتسب إليهم قوم سموهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، ثم خلعوا الرتبة فجحدوا صفات الله تعالى وقضائه وقدره ، وقالوا : إن الأمر أنف ، وجعلوا أنفسهم شريكة في المخلوقات . فلا يسوغ لنا أن نقدح في علماء أصول الدين مطلقاً ، لأنهم قد انتسب إليهم من لا حيلة لهم في نفيه عن التسمي بنعتهم ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ولا شك أن في الناس من أنكر تصور محبة العبد لله إلا بمعنى طاعته له لا غير ، وهو الذي انحاز إليه الزمخشري ... قال الغزالي : والمحبون لله يقولون لمن أنكر عليهم ذلك « إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون »<sup>(١)</sup>.

ومن سخريته بهم قوله في تفسير الآية الكريمة : « هو الذي يربكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينشئ السحاب الثقال ، ويستبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء »<sup>(٢)</sup> . قال : ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر ، ومن يدع المتصوفة أن الرعد صعقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم<sup>(٣)</sup> .

## (١٠)

### عزوبته

عاش الزمخشري أعزب كما عاش بعض سابقيه من العلماء والأدباء ، مثل محمد ابن جرير الطبري<sup>(٤)</sup> ، وأبي حيان التوحيدي<sup>(٥)</sup> ، وإذا كان سابقوه لم يبرروا إشارتهم للعزوبة ، ولم يغللوا لها ، فإنه قد بررها ، وغلل لها ، ولكن تعليقه غريب .

(١) هامش الكشف ٢٦١/١

(٢) سورة الرعد ١٣

(٣) الكشف ٤٩٠/١

(٤) الطبري للمؤلف ٤٩

(٥) أبو حيان التوحيدي للمؤلف ١٨٥

فهو مرة يشفق على الآباء الذين يجهدون في تربية أبنائهم ، مؤملين لهم الخير والعلاء ، ومتشوقين إلى أن يسعدوا بهم ، وتقر أعينهم ، ولكن هؤلاء الأبناء يصيرون أذلة ، لا يحققون شيئاً مما أمله آباؤهم ، وهو لهذا آثر العزوبة التي شبهها بالرهبة في المسيحية ، وارتضاها لنفسه ، واستراح إليها ، فقال <sup>(١)</sup> :

تصفحت أولاد الرجال فلم أجد      أصادف من لايفضح الأم والأبا  
رأيت أبا يشقى لتربية ابنه      ويسى لكى يدعى مكيماً ومنجها  
أراد به النشء الأغر فما درى      أوليه حجباً أم يُقنيه منكبا  
أخو شقوة مازال مركباً بطفله      فأصبح ذاك الطفل للناس مركبا  
لذلك تركت النسل واخترت سيرة      مسيحية أحسن بذلك مذهبا

ولا شك أن هذه محاولة للتبرير ، ولكنها أبعد ما تكون عن الإقناع ، وأرجح أنه هو نفسه لم يكن مقتنعا بها ، ولعله ساقها مساق المغالطة والمجادلة ، لأن الأبوة والأمومة ميل في الفطرة أصيل ، ولأن أكثر الأبناء لا ينطبق عليهم تشاؤمه .

ثم إن الإسلام لا يرتضى هذه الرهبة من قادر على الزواج .  
والمعجب أنه دافع عن العزوبة مرة أخرى <sup>(٢)</sup> بأن الابن إذا ارتكب جرماً فاضحاً كانت فضيحة الأب أشنع ، وإذا كان الأبناء مجلبة للضرر فإن ترك النسل أصوب ، وأدعى إلى الطمأنينة وسلامة العرض :

كانكم لم تسموا أن من له      عيال شقى دهره ليس يفلح  
قيح بمنلى والبنون كما أرى      جنود فساد ليس في الألف مصلح  
إذا ارتكب الابن الخليع فضيحة      فذاك لعمر الله للأب أفضح

(١) الديوان ٨

(٢) الديوان ٢٦

وكل صنيع ليس للنفع جالبا وجراً وجوه الضر فالترك أروح<sup>(١)</sup>

وقد سبق في مؤلفاته أنه تبناها وامتزجت بها نفسه ، فأثرها على الأبناء ، وهو  
يكرر هذا ، ويشفع إلى مؤلفاته تلاميذه وقراء كتبه ، ورواة علمه في قوله<sup>(٢)</sup> :

وحسبي تصانيفي وحسبي رواياتها بنين بهم سبقت إلى مطالبي

إذا الأب لم يأمن من ابن عقوقه ولا أن يعق الإبن بغض النوائب

فإني منهم آمن وعليهم وأعقابهم أرجوهم للعوقب

وهو في مرة ثالثة تهيب الحياة الزوجية ، ويقرنها بالسباحة في البحر

الهائج ، فيقول<sup>(٣)</sup> : ما أدرى أيهما أشقى : أمن يعوم في الأمواج ، أم من يقوم

على الأزواج ؟

٤٨

---

(١) أروح : أكثر راحة .

(٢) الدنوان ٨ .

(٣) نواعج الكلام ٣٦ .

## الفصل الثاني من

# في رِجَابِ التفسير والتأويل

لمحة إلى التفسير قبل الزمخشري

التفسير الإبانة والتوضيح، وهو التأويل بمعنى واحد في رأى، وفي رأى آخر أن التفسير كشف المراد عن المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يوافق الظاهر

١ — عاش المسلمون ردحا من الزمن متخرجين من تفسير القرآن الكريم بآرائهم، مكتفين بالنقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بالأخذ عن الصحابة، أو بفهم ما عليه اللغة ويقتضيه التعبير وروح الشريعة.

فلما تهدم الزمن، وتقدمت الثقافة، وتطور التفكير، واحتدم الخلاف السياسي والمذهبي خطا المفسرون من طور الاعتماد على النقل إلى طور الاجتهاد والاعتماد على العقل، فلم يتخرجوا من تفسير القرآن حسب آرائهم؛ لأنهم رأوا في التخرج عدولا عن التفكير والنظر واستنباط الأحكام، ولو صح ما ذهب إليه المتخرجون لم يستطع أحد أن يستنبط شيئا، بل لم يفهم كثيرا مما تضمنه كتاب الله.

ورأى هؤلاء أن الحديث الذي ينهى عن التفسير بالرأى — على فرض صحته — مراد به الرأى الذي لا يعتمد على أصل ثابت، ولا يستند إلى روح الشريعة، بل يذهب مع الهوى، ولهذا اجتهد كثير من العلماء في تفسير القرآن الكريم، واعتمدوا على آرائهم، لأنهم مستكملون للعدة التي يجب أن تتوفر

المفسر ، وجعل التفسير منذ القرن الثالى يتأثر باتجاهات المفسرين ، وبصطبع بثقاتهم .

فالنحاة — كالزجاج والواحدى وأبى حبان — يهتمون بالمسائل النحوية وتخرجها ، ويعربون القرآن إعرابا يساعدا على تفسيره ، ويعنون بالمشكلات النحوية فى مثل قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » وقوله تعالى : « إن هذان لساخران » .

واللغويون — كأبى عبيدة وقطرب — يؤلفون كتباً فى غريب القرآن ، ويهتمون بالمشكلات اللغوية .

وهؤلاء وأولئك لم كتب تسمى معانى القرآن .

وآخرون اتجهوا إلى المجازات فى نحو قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » والفقهاء عنوا بآيات الأحكام ، وألفوا كتباً مثل كتاب أحكام القرآن على مذهب مالك ، وكتاب أحكام القرآن على مذهب أهل العراق لأبى بكر الرازى ، وكتاب أحكام القرآن للشافعى .

والمشتغلون بالعلوم العقلية حشدوا آراء الفلاسفة والحكماء فى تفسير بعض الآيات ، مثل الفخر الرازى ، والمتصوفة لونوا تفسيرهم بأرثهم كابن عربى الأندلسى . وعلماء الكلام أولوا بعض الآيات تعزيز المذهبهم ، مثل الزمخشرى<sup>(١)</sup> .

٢ — وكان لابد للمفسر أن يكون موهوباً وعالماً باللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع والقراءات والأصول وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والحديث والفقه .

ويذكر الزمخشرى أن المفسر يجب أن يكون على معرفة بالعلوم كلها ،

---

(١) ضعا الإسلام ١٤٦/٢ والطرى ٩٩ - ١٠٧ للمؤلف .

وأن يكون خفيفاً قلادة لما يقرأ ولما يسمع ، وأن يترس بحفظ النصوص البليغة ، ويتملى بالنظر في الأساليب « ثم إن أملاً العلوم بما يضر القرائح ، وأنهضها بما يبهز الأبواب القوارح ، من غرائب نكت يلفظ مَسْلُكها ، ومستودعات أسرار يدق سَلَكها ، علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم — كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن — فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيويه ، واللغوى وإن ملك اللغات بقوة لَحْيِيه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يفوص على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادها آونة ، وتعبد في التنقيب عنها أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانها مهمة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطلعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زماناً ورجع إليه ، وردَّ وردَّ عليه ، فارساً في علم الإعراب ، مقدماً في جملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسلاً الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس ، درّاً كاللمعة وإن لطف شأنها ، منتبهاً على الرمزة وإن خفى مكانها ، لا كزّاجاسيا ، ولا غليظاً جافياً ، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويُرَصِّف ، طالما دفع إلى مضايقه ، ووقع في مداخضه ومزالقه » (١) .

ويكرر التنبيه على التذوق والخبرة بعلى المعانى والبيان ، ويعمل لهذا بأن

القرآن معجز بنظمه لا بالصرفة ، فالنظم هو أم إعجازه ، والقانون الذى وقع عليه التحدى ، ومراعاته أم ما يجب على المفسر <sup>(١)</sup> .

ويبدو من كلامه هذا أنه تأثر بما رده عبد القاهر الجرجاني فى كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، واطمأن إلى ما دعا إليه الجرجاني من أن الحكم بالجمال لا قيمة له إذا لم يؤيد بالكشف عن سر هذا الجمال « إن من الآفة من زعم أن لاسبيل إلى معرفة العلة فى قليل ما تعرف المزية فى كثيره ، وأن ليس إلا أن تعلم أن هذا التقديم وهذا التنكير أو هذا العطف أو هذا الفصل حسن ، وأن له موقعا من النفس وحظاً من القبول . فاما أن تعلم : لم كان كذلك ؟ وما السبب ؟ فما لاسبيل إليه ، ولا مطمع فى الاطلاع عليه ، فهو بتوانيه والكسل فيه فى حكم من قال ذلك .

واعلم أنه ليس إذا لم يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر فى الكل ، وأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وإن قل ، فتجعله شاهدا فيما لم تعرف أخرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك ، وتأخذها عن الفهم والتفهم ، وتعودها الكسل والهويناء .

قال الجاحظ : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئا . فلو أن علماء كل عصر مذجرت هذه الكلمة فى أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عن قبلهم لرأيت العلم مختلا .

واعلم أن العلم إنما هو معدن ، فكما أنه لا يمكنك أن ترى ألف وقر — حمل — قد أخرجت من معدن تتر أن تطلب فيه ، وأن تأخذ ما تجد ولو كقدر تومة — لؤلؤة — كذلك ينبغى أن يكون ذلك فى طلب العلم <sup>(٢)</sup> .

(١) الكشف ٢٤/٢

(٢) دلائل الإعجاز ٢٢٦

« إنك لن تعلم في شيء من الصناعات علما تَمُرُّ فيه وتُجَلِّي حق تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويفصل بين الإساءة والإحسان، بل حق تفاضل بين الإحسان والإحسان، وتعرف طبقات المحسنين .

وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا، وأن تصنفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولاً مرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تُفصل القول وتُحصَّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم، وتعدّها واحدة واحدة، وتسميها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصنّاع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج، كل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطّع، وكل آجُرّة من الأجر الذي في البناء البديع<sup>(١)</sup>. وقد طبق الجرجاني نظريته في كتابيه الدلائل والأسرار على كثير من الآيات القرآنية والنصوص الأدبية .

ثم جاء الزمخشري فعنى بالكشف عن الإعجاز الكامن في نظم القرآن الكريم ٣ — عني بعض سابقيه بالتفسير اللغوي البلاغي، مثل أبي عبيدة مَعْمَر بن المثنى (المتوفى سنة ٢١١ هـ) ولكن جهده يتضاءل إذا قيس بمجهود الزمخشري . ٤ — وسبقه إلى التأويل على مذهب المعتزلة كثير من علمائهم، وإن لم يصل إلينا من إنتاجهم إلا القليل، فقد أقبلوا على تفسير القرآن الكريم وتأويله إقبالا، فظهر منهم عشرات منذ ألف وأصل بن عطاء (المتوفى سنة ١٣١ هـ) كتابه معاني القرآن<sup>(٢)</sup> وألف قُطْرُب — محمد بن المستنير — (٢٠٦ هـ) خمسة كتب في الدراسات القرآنية هي: معاني القرآن، والرد على الملحدين في متشابه القرآن، وإعراب القرآن، ومتشابه القرآن، ومجاز القرآن<sup>(٣)</sup>. وتتابع مفسروهم كآبي

(١) المرجع السابق ٣٠ .

(٢) معجم الأدباء ١٩ / ٢٤٧ .

(٣) معجم الأدباء ١٩ / ٥٣ .



بكر عبد الرحمن الأصم (٢٤٠) <sup>(١)</sup> وأبي علي محمد الجبائي (٣٠٣) <sup>(٢)</sup> وأبي  
القاسم عبد الله البلخي الكعبي (٣١٩) <sup>(٣)</sup> وأبي هاشم عبد السلام الجبائي  
(٣٢١) <sup>(٤)</sup> وأبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (٣٢٢) <sup>(٥)</sup> وأبي الحسن علي  
الرماني (٣٨٤) <sup>(٦)</sup> وأبي القاسم عبيد الله الأسدي (٣٨٧) <sup>(٧)</sup>.

ثم جاء القاضي عبد الجبار (٤١٥) فألف كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن)،  
وبعده الشريف المرتضى (٤٣٦) فتناول كثيرا من آراء المعتزلة، وطبق الآيات  
القرآنية عليها في أماليه (غرر الفوائد ودرر القلائد) وهي مطبوعة، وبعدها  
أبو يوسف القزويني (٤٨٣) الذي ألف تفسيراً كبيراً بث فيه آراء المعتزلة،  
ومزجه بمعتقداتهم، وهو ضخم في ثلاثمائة مجلد، منها سبعة مجلدات في الفاتحة  
وحدها <sup>(٨)</sup>.

وليس أدل على كثرة مفسري المعتزلة من أن الذين بين واصل بن عطاء  
وأبي يوسف القزويني أكثر من ثلاثين معتزلياً، لهم في التفسير وما يتصل به  
مؤلفات تبلغ نحو المئة، ولكن أكثرها مفقود <sup>(٩)</sup>.  
ومن حق القاضي عبد الجبار على من يدرس الزمخشري أن يدرس آراءه،

(١) الفهرست ٥١

(٢) طبقات المفسرين ٢٣ والفهرست ٥٠

(٣) الفهرست ٥١

(٤) طبقات المفسرين ٢٣

(٥) الفهرست ٥٠ وبنية الرواة ٢٣

(٦) طبقات المفسرين ٢٤

(٧) طبقات المفسرين ١٩

(٨) طبقات المفسرين ١٩

(٩) تجد أسماءهم ومؤلفاتهم في الفهرست لابن النديم وطبقات المفسرين وبنية الرواة  
للسيوطي وإليه الرواة للقطبي ومعجم الأدباء لياقوت والمنية والأمل للمرتضى ووفيات الأعيان  
لابن خلكان وكشف الظنون لحاجي خليفة.

لأن بينها وبين تفسير الزمخشري كثيراً من المشابهة في الفكرة وفي الطريقة ، ولكن كتابنا هذا لا يتسع للدراسة المفصلة ، فلنم بها إلمامة سريعة .

أما القاضي عبد الجبار فهو قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ابن عبد الجبار الهمداني الأسد باذي الشافعي ، كان في عصره شيخ المعتزلة ، وقد استدعاه صاحب بن عباد إلى الري وولاه ، قضاءها ، وبقي بها يدرس إلى أن مات ، وكان صاحب يثنى عليه ، ويصفه بأنه أعلم أهل الأرض .

وله مؤلفات كثيرة في علم الكلام والأصول والفقه والتفسير<sup>(١)</sup> .  
وأما كتابه (تزيه القرآن عن المطاعن)<sup>(٢)</sup> فليس تفسيراً كاملاً يستوعب القرآن كله ، لأن مؤلفه لم يقصد إلى هذا ، بل قصد إلى الآيات المتشابهة ليبين خطأ بعض الناس في فهمها وفي تأويلها ، ويكشف عما يراه ، متبعاً بناء الكتاب على المسائل التي تعنيه من كل سورة ، سواء أكانت راجعة إلى الأسلوب أم إلى العقيدة .  
فيقول مثلاً في تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه »<sup>(٣)</sup> .

مسألة : متى قيل : لماذا قال تعالى ( ذلك الكتاب ) ولم يقل هذا الكتاب ؟  
فجوابنا : أنه عز وجل وعد رسوله إنزال كتاب عليه لا يمحوه الماء ، فلما أنزل ذلك قال ( ذلك الكتاب ) والمراد ما وعدتك ، ولو قال هذا الكتاب لم يفد هذا الغائب<sup>(٤)</sup> .

مسألة : قالوا : ما معنى لا ريب فيه ؟ وقد علمتم أن خلقا يشكون في ذلك ، فكيف يصح ذلك ؟ وإن أراد لا ريب فيه عندي وعند من يعلم فلا فائدة في ذلك .

(١) حذرات الذهب ٣ / ٢٠٢ وطبقات المفسرين ١٦٠ .

(٢) مطبوع في مجلد واحد .

(٣) سورة البقرة ٢ .

(٤) ذكر الزمخشري رأيين في استعمال ( ذلك ) هنا ، أحدهما ما ذكره عبد الجبار

(الكشاف ١ / ١٤٤)

فجوابنا : أن المراد أنه حق يجب ألا يرتاب فيه ، وهذا كما بين المرء الشيء  
لخصه ، فيحسن منه بعد البيان أن يقول : هذا كالشمس واضح ، وهذا لا يشك  
فيه أحد ، وهذا كما يقال عند إظهار الشهادتين إن ذلك حق وصدق ، وإن  
كان في الناس من يكذب بذلك <sup>(١)</sup> .

ويقول في تفسير قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم  
غشاوة » ، ولهم عذاب عظيم <sup>(٢)</sup> .

مسألة : قالوا : فقد قال تعالى ( ختم ... ) وهذا يدل على أنه منعهم من  
الإيمان ، ومذهبكم بخلافه ، وكيف تأويل الآية ؟ :

وجوابنا : أن للعلماء في ذلك جوابين : أحدهما أنه شبه حالهم بحال المنوع  
الذي على بصره غشاوة ، من حيث أزاح كل عليهم فلم يقبلوا ، كما قد تعين للواحد  
الحق ، فتوضحه ، فإذا لم يقبل صرح أن تقول حمار طبع الله على قلبه ، وربما تقول  
إنه ميت ، وقد قال تعالى للرسول : « إنك لاتسمع الموتى <sup>(٣)</sup> » وكانوا أحياء ،  
فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى ، وهو كقول الشاعر .

لقد أسمعْتَ لو نادَيْتَ حَيًّا      ولكنْ لا حياةَ لمنْ تُنادى

وبين ذلك أنه تعالى ذمهم ، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم ، وأنه ذكر  
في جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم ، وذلك لو كان ثابتاً لم يؤثر في كونهم  
عقلاء مكلفين .

والجواب الثاني : أن الختم علامة يفعلها تعالى في قلوبهم ، لتعرف الملائكة  
كفرهم ، وأنهم لا يؤمنون ، فتجتمع على ذمهم ، ويكون ذلك لظالمهم ، ولطفاً لمن

(١) تنزيه القرآن عن الطاعن ٦ وفي الكشف ما يشبه هذا ١ / ١٥

(٢) سورة البقرة ٧

(٣) سورة النمل ٨٠

يعرف ذلك من الكفار أو يظنه ، فيكون أقرب إلى أن يقطع عن الكفر .  
وهذا جواب الحسن رحمه الله ، ولهذا قال تعالى « ولهم عذاب عظيم »<sup>(١)</sup> .

وينفى وقوع رؤية الخلق لله في الآخرة ، فيقول في تفسير قوله تعالى :  
« وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة »<sup>(٢)</sup> : ربما قيل إنه أقوى دليل على أن  
الله تعالى يرى في الآخرة

وجوابنا : أن من تعلق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم ، فإننا  
لا ننازعه في أن يرى ، بل في أن يصافح ويعانق ويلبس ، تعالى الله عن ذلك ،  
وإنما نكلمه في أنه ليس بجسم .

وإن كان ممن ينفي التشبيه عن الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلى  
الله تعالى لا يصح ، لأن النظر هو قلب العين الصحيحة نحو الشيء طلباً لرؤيته ،  
وذلك لا يصح إلا في الأجسام .

فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب ( يريد : إلى ثواب  
ربها ناظرة ) كقوله تعالى : « واسأل القرية »<sup>(٣)</sup> فإننا تأولناه على أهل القرية  
لصحة المسألة منهم<sup>(٤)</sup> .

وعلى مثل هذا النهج يسير القاضي عبد الجبار في تأييد آراء المعتزلة والدفاع  
عنها ، متذرعاً بالفكر ، وبالتحليل البلاغي ، وحمل الكلام في كثير من الآيات  
على التشبيه والمجاز .

(١) تنزيه القرآن عن المطامع ٩ وفي الكشاف خمسة أوجه في هذه الآية (الكشاف  
٢١/١) .

(٢) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة يوسف ٨٢

(٤) تنزيه القرآن عن المطامع ٣٥٨ وفي الكشاف (٢ / ٥٠٩) أن المعنى وجوه  
يومئذ إلى نعمة الله وكرامته راجية

# الكشاف

## الباعث على تأليفه

١ — السبب الأول في تأليفه أن جماعة من المعتزلة كانوا يرجعون إليه في تفسير بعض الآيات، فيبرز لهم حقائقها، فيفيضون في الاستحسان والتعجب، ويستطيرون شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك، ثم اجتمعوا إليه مقترحين أن يملى عليهم الكشف (أو الكشاف) عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، فاستعفاهم، فأبوا إلا المراجعة، والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، فأملى عليهم مسألة في فوائح السور، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، في كلام مبسوط كثير السؤال والجواب.

٢ — فلما توجه إلى مكة وجد في البلاد التي اجتازها شوقا إلى ما أملاه على بعض المعتزلة، وحرصا على اقتباسه، فتحرك نشاطه إلى إكماله.

٣ — وحينما بلغ مكة وجد أميرها أبا الحسن علي بن حمزة بن وهّاس أشد الناس شوقا إلى هذا التفسير، حتى إنه كان يحدث نفسه في مدة غياب الزمخشري عن الحجاز — مع كثرة مشاغله — بالوفادة عليه بخوارزم.

وحينئذ لم يجد الزمخشري بدا من النهوض بتفسير القرآن كله، وهو يختم حديثه عن هذا بقوله: « فقلت قد ضاقت على المستعنى الحيل، وعيّت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعق الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دَقَّاقَة الرقاب<sup>(١)</sup>، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر.

---

(١) هي سن الستين

ووفق الله وسدد ، ففرغت منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق ،  
وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة <sup>(١)</sup> .

وإذ كان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر  
سنة ٥٢٨ هـ تجاه الكعبة في جناح داره السلیمانية التي على باب أجياد، الموسومة  
بمدرسة العلامة <sup>(٢)</sup> ، وقد ألفه في سنتين ، فإن الذي يفهم من هذا أنه بدأ يؤلفه  
سنة ٥٢٦ هـ ، وهو في التاسعة والخمسين أو في أول الستين من عمره ، قبل أن  
يؤلف أساس البلاغة ، بدليل ما ذكره في مآده ( حفر ) بالأساس .

### بعض من نقل عنهم

قرأ الزمخشري تفاسير سابقه من معتزلة وغير معتزلة ، ونقل عن هؤلاء  
وهؤلاء . فمن نقل عنهم القاضي عبد الجبار كما سبق ، ومجاهد ( المتوفى سنة ١٠٤ هـ )  
كما نجد في تفسيره لقوله تعالى : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » <sup>(٣)</sup> .

فقال : إن المعنى اعبدوني ، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ، ويدل عليه  
قوله تعالى : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » <sup>(٤)</sup> ،  
والاستجابة الإثابة ، وفي تفسير مجاهد : اعبدوني أثبكم <sup>(٥)</sup> .

ومنهم عمرو بن عبيد الميزلي ( ١٤٤ هـ ) فهو ينقل عنه كثيراً ، وكتابه  
لم يصل إلينا ، كما نجد في تفسيره للآية الكريمة « فلما رآها تهتز كأنها جان ولي  
مدبراً » <sup>(٦)</sup> فإنه قال : قرأ الحسن جان على لغة من يجد في الهرب من التقاء

(١) مقدمة الكشف ٢ / ١

(٢) خاتمة الكشف بخط المؤلف ٢ / ٥٧٠

(٣) سورة غافر ٦٠

(٤) تكملة الآية السابقة

(٥) الكشف ٢ / ٣٢٠ ونقل عنه أيضاً في ٢ / ٤٦٥

(٦) سورة النمل ١٠

سا كنين ، فيقول شأبة ودأبة، ومنها قراءة عمرو بن عبيد « ولا الضالين »<sup>(١)</sup>  
ومنها أبو بكر الأصم للعتزلى ( ٥٢٤ ) وتفسيره لم يصل إلينا .

ومنها الزجاج ( ٣١١ ) ، كما فى تفسيره لقوله تعالى : « هيهات هيهات  
لما تُوعَدون »<sup>(٢)</sup> فإنه عقب بقوله : فإن قلت « ما تُوعَدون » هو المستبعد ،  
ومن حقه أن يرتفع فى هيهات كما ارتفع فى قول الشاعر : فهيهات هيهات العقيق  
وأهله ، فما هذه اللام ؟

قلت : قال الزجاج فى تفسيره : البعد لما تُوعَدون ، أو بُعِدَ لما تُوعَدون ،  
فيمى نون ، فنزل منزلة المصدر ، وفيه وجه آخر وهو أن تكون اللام لبيان  
المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد ، كما جاءت اللام فى ( هيت لك )<sup>(٣)</sup>  
لبيان المهيب به<sup>(٤)</sup> . كذلك نقل عنه تفرقه بين الشروق والإشراق ، لأن  
الزجاج ذكر فى كتابه ( معانى القرآن ) عند تفسير قوله تعالى « إناسخرا الجبال  
معه يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق »<sup>(٥)</sup> أن الإشراق طلوع الشمس وإضاءتها ،  
يقال شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت ، وقيل إنهما  
معنى واحد .

وقال الزمخشري إن الإشراق هو حين تشرق الشمس أى تضى ، ويصفو  
شعاعها ، وهو وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها ، يقال شرقت ولما  
تُشرق<sup>(٦)</sup> .

(١) الكشاف ٢ / ١٣٨

(٢) سورة المؤمن ٣٦

(٣) سورة يوسف ٢٣

(٤) الكشاف ٢ / ٧٣

(٥) سورة مريم ١٨

(٦) الكشاف ٢ / ٢٧٨

وقال مثل هذا في أساس البلاغة <sup>(١)</sup> .

ومنهم الرماني المصنفي ( ٣٨٤ هـ ) صاحب التفسير الذي لم يبق منه إلا جزء عم ، فقد نقل ما ذكره في تفسير قوله تعالى : « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » أن المرء هنا هو الكافر ، لقوله تعالى « إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا » والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الهم ، وقيل المرء عام وخصص منه الكافر ، وعن قتادة هو المؤمن <sup>(٢)</sup> .

ومنهم عبد الله بن درستويه ، فقد نقل من كتابه ( الكتاب للتمم في الخط والمجاء ) <sup>(٣)</sup> .

وكذلك نقل من غير هؤلاء ، مثل سيبويه <sup>(٤)</sup> (صاحب الكتاب) ، وأبي على مؤلف (الحجة) <sup>(٥)</sup> ، والجاحظ فقد أحال إلى كتاب ( الحيوان ) لمعرفة غرائز الإنسان <sup>(٦)</sup> ، والواقدي فقد نقل عنه تعيين الحديبية بأنها طرف الحرم على تسعة أميال من مكة <sup>(٧)</sup> .

على أننا نجد في تفسيره ترديدا لأسماء مثات من القراء واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين ، مثل الحسن بن علي ، وعبد الله بن عباس ، وقتادة ، وعلي بن الحسين ، وعبد الله بن عمرو ، وعروة بن الزبير ، وسعد بن المسيب ، ومقاتل ، ومجاهد ، وعكرمة وعائشة ، وأبي ذر ، والثوري ، وسفيان بن عيينة ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، والشعبي

(١) مادة شرق

(٢) سورة النبأ ٤٠ وتفسير جز عم للرماني وزقة ٢٨ والكشاف ٢ / ٥٢٠

(٣) الكشاف ١ / ١٢

(٤) الكشاف ١ / ٢٢

(٥) الكشاف ١ / ١٠

(٦) الكشاف ٢ / ١٤٢

(٧) الكشاف ١ / ٩٣



وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب، وأبي هريرة، وأبي حنيفة،  
وسعيد بن جبير، والشافعي، وإبراهيم النخعي، وعبد الله بن مسعود، والأوزاعي،  
والزهري، والزجاج، والكسائي، وأبي عبيدة، وابن سيرين .

وقد حفل الكشف بكثير من المسائل والقضايا ، جدرة بأن يفرد لكل  
منها مبحث خاص ، لأنها تتناول آراء المعتزلة ، ومسائل كثيرة في اللغة والنحو  
والبلاغة ، وتمحيص بعض الآراء والتعليل لبعضها ، وهذه كلمة في كل منها .

## أولاً - في خضم الاعتزال

### لمحة إلى المعتزلة

المعتزلة فرقة دينية نشأت في العراق ، ثم داعت آراؤها بالعراق وما حوله .  
وهي في نشأتها امتداد لفرقة المرجئة ، لأن الفرقتين تتشابهان في التوقف  
عن الحكم على كلا الحزبين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين ، وفي وصف  
مرتكب الكبيرة بأنه ليس كافراً ، وفي القول بحرية العبد واختياره ، إذ أن  
بعض المرجئة مثل معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم سبقوا المعتزلة  
إلى القول بالحرية والاختيار ، ودان بهذا الرأي واصل بن عطاء وعمر بن  
عبيد ، وهما المؤسسان لفرقة المعتزلة .

ثم إنها في تطورها متأثرة بالثقافات الأجنبية ولا سيما الفلسفة اليونانية ،  
إذ كانت ذات سلطان على الفكر الراق في الشرق منذ زمن بعيد قبل أن يستهل  
الإسلام ، وبخاصة فلسفة أفلاطون ( ٢٠٥ - ٢٧٠ م وهو الذي يطلق العرب  
على فلسفة مذهب الإسكندرانيين ، ويسميه الشهرستاني الشيخ اليوناني ، وقد

وقد تنوع مذهبه وتفرع بالإسكندرية والشام وأثينا، ثم ازدادت الفلسفة اليونانية انتشاراً ونفوذاً منذ عهد كسرى أنوشروان ( ٥٣١ - ٥٧٩ م ) لأن جوستينيان ناصر المسيحية، وأغلق مدارس الفلسفة في أثينا، واضطهد الفلاسفة، ففر بعضهم إلى فارس، حيث رحب بهم كسرى أنوشروان، وأسس لهم مدرسة فلسفية بجنديسابور، فعملوا بها الفلسفة والرياضة والطب ومنطق أرسطو<sup>(١)</sup>، ثم تنصر بعضهم، وصبغ نصرانيته بفلسفته.

وفي هذا الوقت ألف بولس برسا المسيحي مختصراً لمنطق أرسطو باللغة السريانية، ليقرأه كسرى « عرض فيه الآراء المختلفة الخاصة بالله والعالم على هذا النحو : لقد وجد من يعتقدون في إله واحد، ويدعى آخرون أنه ليس بواحد، ويقول آخرون إن له صفات متعددة، وينفي آخرون عنه الصفات، وبعضهم يقول إنه قادر على كل شيء، وبعضهم يقول إن قدرته لا تشمل كل شيء، وبعضهم يقول إنه خلق الدنيا وكل ما فيها، وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شيء، وهناك من يقول إن العالم محدث، وآخرون يقولون إنه عالم قديم. وقد عقب (كاسارتلي) على هذا بأن المؤلف وصف الآراء الشائعة في صلب الديانة الإيرانية نفسها في الوقت الذي عاشت فيه<sup>(٢)</sup>.

وكان السريان يساهمون في نشر الأفلاطونية الحديثة بالعراق وما حوله، إذ كانت لهم مراكز علمية بالرها ونصيبين وحران وجنديسابور، وكانوا يترجمون من اليونانية إلى السريانية، ثم ترجموا من السريانية إلى العربية، واستمر جهدهم هذا من القرن الرابع إلى العاشر الميلادي<sup>(٣)</sup>.

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٨ - ٢١ دي بور

(٢) إيران في عهد الساسانيين ٤١١ كريستنسن

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٩ دي بور

ومن أشهر رجالهم ( ابن ديسان إبار ديسان المتوفى سنة ٢٢٢ م ) الذى كان ينكر بعث الأجسام ، ويعقوب الرهاوى ( ٢٠ — ٩٠ هـ / ٦٤٠ — ٧٠٨ م ) الذى أباح لرجال الدين أن يعلموا أبناء المسلمين . ومعنى هذا أن بعض المسلمين كانوا يشتاقون إلى دراسة الفلسفة على أساتذة من السريان ، وأن هؤلاء كانوا يترددون في تعليمهم ولا يقبلون عليه .

وكانت طوائف النصارى في الأقاليم التى فتحها المسلمون تتجادل في طبيعة المسيح ، وتتجادل في رجعته ، وتختلف في البعث أ يكون بالأجسام والأرواح معاً أم بالأرواح وحدها ؟ وتتنازع في صفات الله تعالى أهى ذاته أم زائدة على ذاته ؟ وتختلف في أعمال الناس أجبرية أم اختيارية ؟ وفي خضم هذا الجدل كانت الفلسفة اليونانية تموج ، ويتقوى بها المجادلون ، إذ كان كثير من رجال المسيحية فلاسفة أو دارسين للفلسفة مثل الأب أوغسطينوس ( ٢٥٤ — ٣٤٠ م ) وكانت الإسكندرية ملاذ النصرانية الفلاسفة أو الفلسفة المنصرة .

ثم احتدم الجدل بين المسلمين والنصارى ، فألف يحيى الدمشقي النصراني ( توفى سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م ) رسالة في الرد على المسلمين تجرى على هذا النهج : إذا قال لك العربى كذا فأجبه بكذا .

وأغلب الظن أن كثيراً من آرائه في هذا الحوار ، وفي مذهبه في القضاء والقدر ، وحرية الإرادة ، قد تسربت إلى المسلمين ، لأن بعض مناقشاته كانت تدور في مجلس الخليفة .

وكان من أثر هذا كله أن تطور الفكر العربى ، فظهرت ألوان جديدة من الثقافة يمازج بعضها بعضاً ، وكانت ينابيع هذه الثقافة عربية وإسلامية ودخيلة ، وصار بعض المسلمين الذين حلوا ألوية التفكير على صلة وثيقة وشبه وثيقة بهذه الثقافات ، واستعانوا بها في مجادلاتهم لليهود والنصارى وغيرهم ، وكان المعتزلة أقدر المسلمين على هذه المجادلات ، لأنهم في طبيعة الدارسين

للفلسفة والعلوم المختلفة ، شغفا بالمعرفة ، ورغبة في الإحاطة بما يعلمه خصومهم ، وليستطيعوا محاجتهم ومناظرتهم ، وليؤيدوا أصول الإسلام بأدلة ليست من القرآن والحديث يضطر أعداء الإسلام إلى التسليم بها .

لهذا قال الجاحظ<sup>(١)</sup> : « لا يكون التكلم جامعاً لأقطار الكلام ، متمكناً في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما » .

وذكر المقرئ أن المأمون بعث إلى بلاد الروم من عربوا له كتب الفلاسفة ، فقرأها المعتزلة ، وأقبلوا على تصفحها والنظر فيها ، فاشتد ساعداهم بها<sup>(٢)</sup> .

وجاء في وصف المرتضى لوصل بن عطاء أنه ليس أحد أعلم بكلام الشيعة ومارقة الخوارج والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم من واصل<sup>(٣)</sup> ، وقوله إن جعفر البرمكي ذكر أرسططاليس ، فقال النظام قد نقضت عليه كتابه ، فقال جعفر : كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه ؟ فقال أيما أحب إليك ؟ أن أقرأه من أوله إلى آخره أم من آخره إلى أوله ؟ ثم اندفع يذكر منه شيئاً فشيئاً ، وينقضه عليه ، فمجب منه جعفر<sup>(٤)</sup> .

وذكر الشهرستاني عند قول المعتزلة بنى الصفات القديمة أن هذه المقالة كانت في مبدأ الأمر غير نضيجة ، وكان واصل بن عطاء يذهب إلى أن من أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين ، وإنما شرعت أصعبه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة ، وأنهى نظرهم إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالماً قادراً ، ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان ، أو حالان ، ومال أبو الحسن البصري إلى ردها

(١) الحيوان ١٣٤/٢

(٢) الخطط ١٨٣/٤

(٣) النية والأمل ١٨

(٤) المرجع السابق ٢٦

إلى صفة واحدة وهي العالمية ، وذلك عين مذهب الفلاسفة (١).

ومعنى هذا أن تيارات عدة من النصرانية الفلسفة ، ومن الفلسفة للنصرة ، ومن اليهودية وغيرها ، تسربت إلى المسلمين الباحثين ، وإلى المسلمين الذين يدافعون عن الإسلام ، أو عن رأى من الآراء المذهبية .

وهذا فى رأى كريم هو التعليل الذى يجب أن يفسر به التشابه البين الذى نلاحظه فى مظاهر المسيحية البيزنطية والتعاليم الإسلامية .

إن البحث فى كنه الله وصفاته هو أول شيء له للقيام الأول فى مؤلفات آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين المسلمين ، وهؤلاء المسلمون شغلوا أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التى تدور حول القضاء والقدر والإرادة ، مثلهم فى هذا مثل آباء الكنيسة الشرقية . ثم يفصل فون كريم رأيه بعد ذلك فى الصلات والمشايات التى بين الكنيسة الشرقية والإغريقية فى الشام وبين المرجئة والقدرية (٢).

أما فى العراق فإن التشابه قوى بين آراء المعتزلة التى غرس الحسن البصرى غراسها الأول وبين آراء الساطرة الدينية للتأثرة بالفلسفة الإغريقية ، ولهذا يقول دى بور : « هناك دلائل متفرقة على أن طائفة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالاختيار تتلمذوا لأساندة مسيحيين (٣) » .

وقد يبرز هنا ما قيل من أن أول من تكلم فى القدر نصرانى من العراق أسلم ، ثم عاد إلى نصرانيته ، وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى القدرى ، وهما من المرجئة (٤) .

(١) اللل النعل ١ / ٥١

(٢) الحضارة الإسلامية ومعنى آثارها بالمؤثرات الأجنبية ٦٦ فون كريم .

(٣) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ١١٩ دى بور .

(٤) شرح العمدة ١٢٦ لابن بطة وصحيح مسلم كتاب الإيمان

ويروى أن الجعد بن درهم أول من تكلم في خلق القرآن بدمشق ، ثم طلب  
فهرب حتى نزل الكوفة ، فتعلم منه الجهم بن صفوان ، ويقال إن الجعد أخذ  
آراءه عن أبان بن سحمان ، وأبان كان تلميذا لطلوت ، وطلوت كان تلميذا لحنظلة  
لبند بن الأعصم اليهودي ، وكان طلوت يقول بخلق التوراة وكان زنديقا<sup>(١)</sup> ،  
وهو أول من صنف في ذلك ، ثم أظهر الجعد بن درهم هذه الآراء ، فقتله خالد  
القسري بالكوفة في عهد هشام بن عبد الملك ، كما قتل في عهد غيلان الدمشقي  
لأنه كان قدريا<sup>(٢)</sup> ، وقد كان الجعد من المرجئة وهم - كما سبق - أصل المعتزلة.  
ثم طالعت المعتزلة مثل أبي الهذيل العلاف والنظام ومُعمر بن عباد والجاحظ  
كتب الفلاسفة في زمن المأمون ، واستخرجوا منها ما خلطوه بأوضاع الشرع ،  
وتشعبت مباحثهم ، وتنوعت آراؤهم ، فسميت بمحوشهم بعلم الكلام<sup>(٣)</sup> .  
وقد أكد ديور أن مذاهب المتكلمين تأثرت بعوامل مسيحية أبلغ التأثير ،  
فتأثرت العقائد الإسلامية في تكونها بمذاهب المللكانية واليعاقبة في دمشق ،  
كما تأثرت في البصرة وبغداد بالمذاهب النسطورية والغنوسية ، ولم يخلص إلينا  
إلا القليل من الآثار المكتوبة المتعلقة بتلك الحركة في أوائل نشاطها ، غير أننا  
لا نخطئ الصواب إذا قلنا إن اختلاط المسلمين بالمسيحيين وتلقيهم العلم عنهم في  
المدارس كان له عظيم الأثر في ذلك .

ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين الأولى في الإسلام وبين العقائد المسيحية  
شبهات قويا لا يستطيع أحد معه أن ينكر أن بينهم اتصالا مباشرا ، وأول مسألة  
قام حولها الجدل بين علماء المسلمين هي مسألة الاختيار ، وكان المسيحيون الشرقيون  
يكادون جميعا يقولون بالاختيار<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الأثير ٧ / ٢٦

(٢) شرح الميون ١٦٨ وابن الأثير ٥ / ١٩٦

(٣) الفرق بين الفرق ١٠٩ وتقد العلم والطعام ١٠٢

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ٤٨

ولكن للمعتزلة مع هذا كله كانوا يسندون أصول آرائهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنهم يستقون من واصل بن عطاء ومن عمرو بن عبيد ، وهذان أخذوا عن محمد بن علي بن أبي طالب وابنه أبي هاشم عبد الله ، وقد أخذ محمد عن أبيه علي ، وأخذ علي عن رسول الله ، ويقولون إن محمد بن علي هو الذي ربي واصل بن عطاء وعلمه وخرجه ، كما رووا أخباراً شتى تعزز مذهبهم ، منسوبة إلى أبي بكر وعمر وعثمان والحسن وابن عباس <sup>(١)</sup> .

كما أنهم أولوا الآيات القرآنية تأويلاً يوافق مذهبهم ، ويؤيدهم في الرد على مخالفيهم ، وفي نقض الشبه التي أثارها خصوم الإسلام ، لأن القرآن هو القانون الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل <sup>(٢)</sup> .

أما دفاع المعتزلة عن الإسلام فقد بدأ من عهد مبكر ، منذ رد واصل بن عطاء على مخالفي مذهبه ، وهو في الثلاثين من عمره ، وذكر عمرو الباهلي أنه قرأ الجزء الأول من كتاب ألف مسألة في الرد على المانوية من تأليف واصل ، وأحصى في ذلك الجزء نيفا وثمانين مسألة . وذكر مناظرات أبي الهذيل العلاف مع المجوس والثنوية وغيرهم طويلة مفصلة ، ويقال إنه أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف رجل <sup>(٣)</sup> .

وللجاحظ في هذا الميدان بلاء عظيم ، فله رسالة في الرد على النصاري <sup>(٤)</sup> ، وله كتاب في الرد على الرافضة <sup>(٥)</sup> ، وله ردود ومناقشات شتى في كتاب

(١) النية والأمل ٤

(٢) الكشاف ١ / ٤٨٨

(٣) النية والأمل ٢١

(٤) ضمن مجموعة (ثلاث رسائل للجاحظ) نشرها بوعمع فنكل

(٥) ذكره الجاحظ في رسالة بيان مذاهب الشيعة ١٨١ من مجموعة رسائل الجاحظ

الحيوان ، كرده على الجحوس في إنكار عذاب النار<sup>(١)</sup> ، وردده على زرادشت في تخويف أصعابه بالبرد والثلج<sup>(٢)</sup> ، وإبطاله لإنكار الدهرية ملك سليمان وملكة سبا<sup>(٣)</sup> .

والمعتزلة بعامه جهد عظيم في بعض آراء الرافضة ، يتمثل في المناظرة تارة ، وفي تأليف الرسائل والكتب تارة ، كما فعل ابن الخياط في كتابه الانتصار .

## أصول المعتزلة وكيف أيدها

للمعتزلة أصول قام عليها مذهبهم<sup>(٤)</sup> ، وقد أيدها الزمخشري بكل ما استطاع من فكر وبيان ، وأول الآيات القرآنية بما يتفق مع هذه الأصول ويؤكدها .

### (١) التوحيد

للسلمون جميعا موحدون ، لا يشركون مع الله أحدا ، ولكن المعتزلة وصلوا بتوحيدهم إلى حد التفلسف ، وبنوا عليه أمورا لم يكن أحد من المسلمين يعرض لها .

فقد وجدوا في القرآن الكريم آيات تنزه الله عن التشابه ، وآيات يدل ظاهرها على التجسيم ، ورأوا آيات تدل على أنه تعالى ليس في جهة أو مكان ، وآيات يفهم من ظاهرها الجهة والمكان .

(١) الحيوان ٥ / ٦٩

(٢) الحيوان ٥ / ٦٨

(٣) الحيوان ٤ / ٨٥

(٤) التوبة والأمل ٦ والمثل والنحل ١ / ٤٩



وكان كثير من المسلمين ينزهون الله عن المائلة، ويمسكون عن الكلام في الآيات التي يدل ظاهرها على المائلة، مؤثرين البعد عن التأويل.

أما المعتزلة فلم يرتضوا هذا المسلك، وجعلوا يؤولون الآيات التي يفهم من ظاهرها التجسيم أو الحلول في جهة أو مكان تأويلا يتفق وتنزيه الله سبحانه عن المشابهة، حتى روى أن النظام ناجى ربه بقوله وهو محتضر: اللهم إن كنت تعلم أني لم أقصر في نصر توحيدك، ولم أعتقد مذهباً من المذاهب اللطيفة — يريد الفلسفية — إلا لأشد به التوحيد، فما كان منها يخالف التوحيد فأنا منه بريء، اللهم فإن كنت تعلم أني كما وصفت فاغفر لي ذنوبي، وسهل علي سكرة الموت<sup>(١)</sup>.

وبنوا على هذا التوحيد كثيراً من المعتقدات.

١ — فنفوا عن الله الصفات المستقلة القديمة، وقالوا إنه عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، وليست الحياة والقدرة والعلم صفات غير ذاته، بل هي صفات قديمة ومعان قائمة به، لأنها لو شاركت في القدم الذي هو أخص الوصف لشركته في الألوهية، وهو سبحانه منزّه عن الثقل، لأنه القديم الأزلي وماسواه محدث، فلا يصح أن تكون له صفات أزلية منفصلة عنه، لأن القول بها تعدد.

ولهذا سمو أنفسهم أهل التوحيد<sup>(٢)</sup>.

وبتصل بالتوحيد رد الصفات كلها إلى كونه عالماً قادراً، والحكم بآلهما صفتان ذاتيتان أو اعتباران للذات القديمة أو حالان<sup>(٣)</sup>.

(١) الانتصار للخط ٤١

(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩

(٣) الملل والنحل ١ / ٥١

وذكر الشهرستاني من آراء أبي الهذيل العلاف — وهو من شيوخ المعتزلة — أنه انفرد عن أصحابه بقواعد، منها أن الباري تعالى عالم بعلم، وعلمه ذاته، قادر بقدرته، وقدرته ذاته، حي بحياة، وحياته ذاته.

وعقب الشهرستاني بقوله: إنما اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه، وإنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته، بل هي ذاته... ثم قال: وإذا أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوها للذات، فهي بعينها أقانيم النصارى أو أحوال أبي هاشم<sup>(١)</sup>.  
٢ — ونفوا التشبيه عن الله سبحانه نفياً تاماً من كل وجهة، مكاناً وجهة وصورة وجسماً وتميزاً وانتقالاً وتغيراً، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة، وسموا هذا توحيداً<sup>(٢)</sup>.

وقد حرص الزمخشري على تأويل الآيات وفق هذه العقيدة فلم يدع شبهة تعلق بها إلا محامها.

فقال في تفسير قوله تعالى: «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك»، قال لن تراني<sup>(٣)</sup>:

كلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح، وروى أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة.

وعلق ابن المنير بقوله<sup>(٤)</sup>: هذا تصريح منه بخلق الكلام، كما هو معتقد للمعتزلة.

(١) الملل والنحل ١ / ٥٣. يريد أن أبا هاشم قال إن العلم والقدرة خالان للذات الإلهية.

(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩.

(٣) سورة الأعراف ١٤٣.

(٤) سياتي التعريف به في قيمة الكشف وأثره.

والذى يخص هذه الآية من وجوه الرد عليه أنها سبقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء الله له وتخصيصه إياه بتكليمه ، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها : « إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات في بعض الأجرام واستماع موسى لذلك لكان كل أحد يساوى موسى عليه السلام في ذلك ، بل كان آحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام آثر بهذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى ، لأنهم سمعوا للكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقا في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مزيتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر ، ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تميز موسى بهذه المزية ، فلا يحمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها ، وكما أجزنا من المعقول أن يرى ذات الباري وإن لم يكن جسما ، فكذلك نميز أن يسمع كلامه وإن لم يكن حرفا ولا صوتا<sup>(١)</sup>.

وقال في تفسير قوله تعالى : « ثم جعلناكم فِى الْاَرْضِ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ<sup>(٢)</sup> » : أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكنا ، لننظر أتعلمون خيرا أم شرا فنعاملكم على حسب عملكم .

فإن قلت : كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة ؟

قلت : هو مستعار للعلم المحقق الذى هو العلم بالشئ موجودا أشبه بنظر الناظر وعيان المعائن فى تحققه .

(١) الكشاف وحاشيته ١ / ٣٤٥

(٢) سورة يونس ١٤

وعلق ابن المنير بقوله :

كنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله، والجمع بين هاتين النزعتين عقيدة طائفة من القدرية يقولون إن الله لا يرى ولا يرى، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا<sup>(١)</sup>.

وقال في تفسير قوله تعالى «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها»، وذروا الذين يُلْعِدُونَ في أسمائه، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ<sup>(٢)</sup> :

لله أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك، فسموه بتلك الأسماء، واركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه، أو يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى.

ويجوز أن يراد والله الأوصاف الحسنى، وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتقاء شبه الخلق، فصفوه بها، وذروا الذين يلعدون أوصافه، فيصفونه بمشبهة القبائح وخلق الفعشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها.

وعقب ابن المنير على هذا بقوله :

لا يبعد حشو العقائد القاسدة في غير موضع، فإن يمكن المراد الأوصاف بالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة والافتداد بالخلوقات حتى لا يشرك معه عباده في خلق أفعالهم، ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل، وأن كل قضائه عدل، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بمقولهم، وأن وعده الصدق وقوله الحق، وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها، إلى غير ذلك من أوصافه<sup>(٣)</sup>.

(١) الكشاف وحاشيته ١ / ٤١٦

(٢) سورة الأعراف ١٨٠

(٣) الكشاف وحاشيته ١ / ٢٥٨

وقال في تفسير قوله تعالى: «وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ»، والأرضُ جميعاً قبضته يومَ القيامة والسموات مطوَّياتٌ بيمينه، سبحانه وتعالى عما يُشركون (١) : نبههم على عظمتِهِ وجلالَةِ شأنِهِ على طريقة التخييل ، فقال « والأرضُ جميعاً قبضته يومَ القيامة والسموات مطوَّياتٌ بيمينه » .

والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو يحملته ومجموعه تصوير عظمتِهِ، والتوقيف على كنه جلالهِ لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله فقال : يا أبا القاسم إن الله يمسك السماوات يومَ القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزم فيقول أنا الملك . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً مما قال ، ثم قرأ تصديقاً له «وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ إلى آخر الآية» وإنما ضحكك أفصح العرب وتعجب ، لأنه لم يفهم منه إلا ما لا يفهمه إلا علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال المعظام التي تتحيز فيها الأفهام والأذهان ولا تنكسها الأوهام هينة عليه هوأناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أرفع وأعز وأعلى تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثر تخيلات قدزلت فيها الأقدام قديماً ، وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقيب ، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره لما خفى عليهم أن العلوم

كلها مفتقرة إليه وعيال عليه ، إذ لا يحمل عقدها الموربة ، ولا يفك قيودها المكربة إلا هو .

وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة ، لأن من تأول ليس من هذا العلم في غير ولا نفير ، ولا يعرف قبيلة من دير .

وعقب على هذا ابن المنير فقال :

إنما عني بما أجراه ها هنا من لفظ التخيل التمثيل ، وإنما العبارة موهمة منكورة في هذا المقام ، لا تليق به بوجه من الوجوه <sup>(١)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » <sup>(٢)</sup> :

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يرادف الملك جعلوه كناية عن الملك ، فقالوا استوى فلان على العرش ، يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه ، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ، ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد أو بخيل ، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت ، حتى إن من لم يبسط يده قط بالنوال ، أو لم تكن له يد ، قيل فيه يده مبسوطة ، لمساواته عندهم قولهم هو جواد . وفي قول الله عز وجل : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » <sup>(٣)</sup> « أي هو بخيل » بل يدها مبسوطتان <sup>(٤)</sup> « أي هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط ، والتفسير بالنعمة ، والتمحل للتثنية من ضيق

(١) الكشاف وحاشه ٢ / ٣٠٥

(٢) سورة طه ٥

(٣) سورة المائدة ٦٤

(٤) سورة المائدة ٦٤

المعطن ، والبعد عن علم البيان مسيرة أعوام<sup>(١)</sup> .

ولم يعلق ابن المنير على هذا بشيء .

وقال في تفسير قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ،  
بِيدِ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ »<sup>(٢)</sup> :

أكد للبايعه على طريق التخيل فقال ( يد الله فوق أيديهم ) يريد أن يد  
رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله ، والله تعالى منزّه عن الجوارح ،  
وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى تقرير عقد الميثاق مع الرسول كمقدمه مع الله  
من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ »<sup>(٣)</sup> .  
والمراد بيعة الرضوان<sup>(٤)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »<sup>(٥)</sup> .  
القرب هنا مجاز ، والمراد قرب علمه منه ، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا  
لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكان ذاته قريبة منه ، كما يقال الله في كل مكان ،  
وقد جل عن الأمكنة<sup>(٦)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »<sup>(٧)</sup> :  
وجه ربك : ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ، ومساكين مكة يقولون :  
أين وجه عربى كريم ينقذنى من الهوان .

(١) - الكشاف ٢٠/٢

(٢) - سورة الفتح ١٠

(٣) - سورة النساء ٨٠

(٤) - الكشاف ٣٨٣/٢

(٥) - سورة ق ١٦

(٦) - الكشاف ٤٠٢/٢

(٧) - سورة الرحمن ٢٧

وقرأ عبد الله (ذی الجلال) على صفة ربك، ومعناه: الذي يُجيدُ الموحدون  
عن التشبيه بخلقهِ وعن أفعالهم، أو الذي يقال له ما أجلك وأكرمك، أو من  
عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده.

وعلق ابن المنير بقوله :

المعتزلة ينكرون الصفات الإلهية التي دل عليها العقل ، فكيف بالصفات  
السمعية ؟ على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليدين والعين على نحو ما ذكره،  
ولم ير أنها صفات سمعية <sup>(١)</sup>.

٣ — وأنكروا رؤية العباد لله بأبصارهم في الآخرة <sup>(٢)</sup> ، لأن الجسمية إذا  
انتفت انتفت الجهة ، وإذا انتفت الجهة انتفت الرؤية ، وبهذا أولوا الآيات  
والأحاديث ، ونفوا بعض الأحاديث ، لأنها أخبار آحاد .

وللمنحصر في نفي الرؤية حديث طويل ، منه ما ذكره عند تفسير قوله  
تعالى : « ولما جاء موسى وكله ربه ، قال رب أرني أنظر إليك ، قال لن تراني  
ولكن أنظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلّى ربه  
للجبل جعله دكاً ، وخر موسى صريعاً ، فلما أفاق قال : مُبْعَاثُكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ  
وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » <sup>(٣)</sup> :

أرني نفسك أنظر إليك ، والرؤية عين النظر ، فكيف قال أرني أنظر إليك؟  
أى اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك .

وإذا كانت الطلّبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه ، قال تعالى  
( لن تراني ) ولم يقل لن تنظر إلي .

(١) الكشاف وهاشمه ٢/٢٥٠

(٢) المل والنحل ٩/٩٩

(٣) سورة الامراف ١٤٣



فإن قلت : كيف طلب موسى عليه السلام ذلك ، وهو من أعلم الناس بالله وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وبتعالیه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس ، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة ، وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة ، ومنع المجبرة إحالته في القول غير لازم ، لأنها ليست بأول مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد جاء في السورة نفسها : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء ، وتهدي من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » <sup>(١)</sup> فتراهم من فعلهم ، ودعاهم سفهاء وضلالاً ؟

قلت : ما كان طلب الرؤية إلا ليبتك هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبرأ من فعلهم ، وليلقمهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ، ونبههم على الحق ، فلعجوا وتمادوا في لجاجهم ، وقالوا لا بد ، ولن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك ، ليتبينوا ، وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة ، فلذلك قال ربي أرني أنظر إليك ، وإذا كان في هذا الرد زجر لموسى عما طلب ، وإنكار عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى كانوا هم أولى بالإنكار .

وجاء النفي بلن لنا كيد النفي في المستقبل كقوله تعالى « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » <sup>(٢)</sup> ، فقوله « لا تدركه الأبصار » <sup>(٣)</sup> نفي الرؤية فيما يستقبل ، (ولن ترائي) تأكيد وبيان ، لأن النفي مضاف لصفاته . فإن قلت : كيف اتصل الإدراك في قوله (ولكن انظر إلى الجبل) بما قبله ؟

(١) سورة الأعراف ١٥٥

(٢) سورة الحج ٧٣

(٣) سورة الأنعام ١٠٣

قلت : اتصل به على معنى أن النظر إلى " محال فلا تطلبه ، ولكن عليك  
بنظر آخر ، وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم  
كيف أفعل به ، وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية ، لتعظم ما أقدمت عليه  
بما أريك من عظم أثره ، فإنه عز وعلا حقق عند طلبك الرؤية مأمثله عند نسبة  
الولد إليه في قوله : « وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا <sup>(١)</sup> »

وقد علق وجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين  
يدكه ويسويه بالأرض

وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع ،  
الآ ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك ، ثم كيف بنى  
الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية ،  
أعنى قوله « فإن استقر مكانه فسوف تراني » فلما تجلى ربه للجبل ، وظهر له  
اقتداره ، وتصدى له أمره وإرادته ، جعله مذكوكا ، وخر موسى مغشياً عليه من هول  
ما رأى ، فلما أفاق من صعقته قال : سبحانك أنزهك عما لا يحوز عليك من الرؤية  
وغيرها ، تَبَيَّنَ من طلب الرؤية ، وأنا أول المؤمنين بأنك لست بمرئى ولا مدرك  
بشيء من الخواس .

فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية ، وكيف أرجف الجبل  
بطالبيها ، وجعله دكاً ، وكيف أصعقهم ، ولم يخل كلمه موسى من تقيان ذلك  
مبالغة في إعظام الأمر ، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه ، وتاب من إجراء تلك  
الكلمة على لسانه ، وقال أنا أول المؤمنين .

ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف

اتخذوا هذه العظيمة مذهبا ، ولا يفرنك تسترهم بالبلكفة<sup>(١)</sup> ، فإنه من منصوبات أشياخهم ، والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

لجماعة سموا هوام سنة وجماعة حُرّ لعمرى موكفة  
ولقد شبهوه بخلقهم وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة<sup>(٢)</sup>  
ولم يرتض أهل السنة هذا الرأى ، فردوا عليه .

قال أبو زكريا يحيى بن عمام - من تلمسان - فى رده على هذين البيتين :

قل للذى تسمى الهداة أولى النهى      تحمرا لأن سلب الهدى والمعرفة  
فقد أُرْجِحَ الاعتزالَ جهالة      ويروقه زور الضلال وزُخْرُفه  
سَوَّغْتَ ذمَّ جماعةٍ سُئِيَةٍ      قد أحرزوا من كل فضل أشرفه  
هم شيعة الحق الذى ما بعده      إلا مهاوى فى الضلالة مثله

وقال القاضى أبو حفص بن عمر فى هذا أيضا :

أجهلتم صفة الإله وفصله      ونسبتموه لغيره بالزُخْرُفه  
وأردتم تنزيهه فدفعتم      فى الشرك والإلحاد والأمر السفه  
خالقتم سنن النبي ومحبه      وتبعتم فى الزيغ أهل الفلسفة<sup>(٣)</sup>

وعلق ابن النير بقوله :

ما أشد ما اضطرب كلامه فى هذه الآية ، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة ، ويشين بكفه وجه الغزاة . هيهات ، قد تبين الصبح لذى عينين ، فالحق أبلغ لا يمازجه ريب إلا عند ذى رين .

(١) البلكفة : يريد أنهم يقولون إن الله يرى بلا كيفية

(٢) الكشف ٣٤٦/١

(٣) الرحلة المفريية ٢٠

أما حظ العقول من إجازة رؤية الله تعالى فوظيفة علم الكلام ، وأخصر وجه في إجازة ذلك أن الوجود مصحح الرؤية ، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححا ، وقد شمل الجواز والجوهر ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححا سوى الوجود ، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده .

وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة فأمر وهمي مثله عرض للمعطلة ، فصيت أبصارهم حتى أنكروا موجودا إلا في جهة ، ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال وهام ، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئي لسكانت المعرفة تتوقف على جهة للمعروف ، ولا خلاف أنه سبحانه يُعرَفُ لا في جهة ، فكذلك يُرى لا في جهة ، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه ، لعله يجاوز ذلك على الله تعالى .

والقدرية يجرئهم الطمع حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم ، ومأم حينئذ إلا ممن آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها .

وأما قول موسى: « أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَّهَاءُ مِنَّا ؟ » تبرؤا من أفاعيلهم ، وتسفيها لهم وتضليلا لرأيهم ، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى لجواز الرؤية ، فإن الذي كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة المعجل في قول أكثر المفسرين .

ثم إن كان السبب طلبهم الرؤية فليس لأنها غير جائزة على الله ، ولكن لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا . والخبر صدق ، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية ، فما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف

المعلوم تكذيباً للخبر ، فمن ثم سفهم موسى وتبرأ من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع .

ولو كان سؤالهم عن الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها فإنما سفهم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا لن تؤمن لك حتى ترى الله جهرة ، ألا ترى أن قولهم : « لن تؤمن لك حتى تُفَجِّرَ لنا من الأرض ينبوعاً »<sup>(١)</sup> إنما سألوا فيه جائزاً ، ومع ذلك قرَّعوا به لاقتراحهم على الله مالا يتوقف وجوب الإيمان عليه .

فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى ، وعمايته عن سبيل الهدى . وأما زعمه أن موسى طلب الرؤية لهم ، فإنه مردود بأنه لو كان طلب الرؤية لهم حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثاً غير مفيد ، لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم إما أن يكونوا مؤمنين بموسى أو كفاراً به ، فإن كانوا مؤمنين به فإخباره بإيأم بأن الله تعالى لا يرى ولا يجوز عليه ذلك كاف في حصول المقصود من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يريه ذاته على علم بأن ذلك محال ، وإن كانوا كفاراً بموسى فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً ، لأن الله إذا منعه مسئوله فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى إنه منعه ذلك ، وهم كفار بموسى ، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك ؟

فهذا أوضح مصداق لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً بجوازها ، فأخبر الله أن ذلك لا يقع في الدنيا وإن كان جائزاً .

أما قوله إن ( لن ) تؤكد النفي فإنها كذلك ، ولكن استنباطه منافية الرؤية لحال الباري عز وجل ، واستشهاده على أنها تشعر باستحالة النفي عنها

عقلا ، مردود بكثير من الآيات ، كقوله تعالى : « قل لن تخرجوا معي أبدا<sup>(١)</sup> » فذلك لا يحيل خروجهم عقلا ، وقوله : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن<sup>(٢)</sup> » و : « لن تتبّعونا<sup>(٣)</sup> » فهذه كلها جائزات عقلا ، لولا أن الخبر منع من وقوعها ، فالرؤية كذلك .

وأما قوله إن الله حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه ، فإنه مفرع على المعتقد السالف بطلانه ، وليس له في هذا الفصل وظيفة إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية تلقفها من كل فج .

والحق أن ذلك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء ، ولا تستقر الدنيا من إظهار شيء من ملكوت السماء ، وهذا هو المأثور عن السلف في هذه الآية ، ومعناه عند أبي الحسن ( الأشعري ) رحمه الله فعل فعلا سماه تجليا ، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانه في جهرا ، وإما لأنهم كتموا الخبر بأنه لا يرى في الدنيا ، وإما لأنهم كفروا بالاقتراح أو بالمجموع .

وأما قوله إن الله تعالى علق وجود الرؤية على وجود ما لا يكون من استقرار الجبل ، فإنه من حيل القدرية في إحالة الرؤية ، يقولون قد علقها الله على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكه ، والمعلق على المحال محال . وهذه حيلة باطلة ، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار ، وذلك ممكن وجائز ، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس ، وحينئذ يتوجه دليلا لأهل السنة ، فنقول إن استقرار الجبل ممكن ،

---

(١) سورة التوبة ٨٣

(٢) سورة هود ٣٦

(٣) سورة الفتح ١٥

وقد علق عليه وقوع الرؤية ، والمعلق على الممكن ممكن ، والمعتزلة يعتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدورا ، ونحن نقول مقدورا ، ولكن المشيئة لم تتعلق بإيجاده .

وأما توبة موسى وتسييحه فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا .

ثم ختم رده بأنه مضطر إلى أن ينافح عن أصحاب سنة ، رسول الله كما نافح حسان بن ثابت أعداء رسول الله ، وذكر هذه الآيات المناقضة لبيتى الزمخشري :

وجماعة كفرا برؤية ربهم      حقا ، ووعد الله مالن يخلفه  
وتلقبوا عدلية قلنا أجل      عدلوا بربهم فحسبهم سفة  
وتلقبوا الناجين كلا إنهم      إن لم يكونوا في لظى فليشفه<sup>(١)</sup>  
وقال في تفسير قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » وهو يدرك الأبصار ،  
وهو اللطيف الخبير<sup>(٢)</sup> البصر هو الجوهر اللطيف الذي ركه الله في حاسة  
النظر ، به تدرك المبصرات ، فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ، ولا تدركه ، لأنه  
متعال أن يكون مبصرا في ذاته ، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا  
أو تبعا كالأجسام والهيئات ، وهو اللطيف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر  
اللطيفة التي لا يدركها مدرك ، وهو يلطف عن أن تدركه الأبصار ، الخبير بكل  
لطيف ، فهو يدرك الأبصار<sup>(٣)</sup> .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

يريد الزمخشري من الإدراك الإحاطة ، ومنه « حتى إذا أذركه

(١) هامش الكشاف ٣٤٦/١

(٢) سورة الأنعام ١٠٣

(٣) الكشاف ٣٠٥/١

الفرق»<sup>(١)</sup> أى أحاط به ، و «إنا لمدرّكون»<sup>(٢)</sup> أى محاط بنا ، فالمنفى إذاً عن الأبصار إحاطتها به عز وعلا ، لا مجرد الرؤية . ثم إما أن يقتصر على أن الآية لا تدل على مخالفتنا أو تزيد فنقول : يدل لنا أن تخصيص الإحاطة بالمنفى يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك وأقله مجرد الرؤية ، كما أنا نقول لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة بمجرد ما حاصله لكل مؤمن ، فالإحاطة للعقل منفية كنفى الإحاطة للحس ومادون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منفي .

ولم يذكر الزمخشري على إحالة الرؤية عقلا دليلا ولا شبهة ، فيحتاج إلى القدر فيه ، ثم معارضته بأدلة الجواز ، ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئى لا في جهة ، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود لا في جهة ، إذ اتباع الوهم يبعدهما جميعا ، والانقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم ويجيزهما معا<sup>(٣)</sup>

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ »<sup>(٤)</sup> :  
تنظر إلى ربها خاصة ، واختصاصهم بالنظر إليه محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، تريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعمة  
والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه<sup>(٥)</sup> .

(١) سورة يونس ٩٠

(٢) سورة الشعراء ٦١

(٣) هامش الكشاف ٣٠٥/١

(٤) سورة القيامة ٢٢

(٥) الكشاف ٥٠٩/٢



٤ - واقتضى نفهم للصفات الأزلية ومنها الكلام أن يدينوا بأن القرآن كلام الله خلقه بعد أن لم يكن ، حتى لا يشاركه شيء في القدم<sup>(١)</sup> . وقد اعتقد الخليفة المأمون هذا الرأي ، وحمل الناس على أن يدينوا به ، وعذب كثيرا من العلماء مثل أحمد بن حنبل ، ووجه كتابا إلى إسحاق بن إبراهيم سنة ٢١٨ هـ يأمره فيه أن يمتحن القضاة في خلق القرآن ، ليقر منهم على منصبه من يوافق رأى الخليفة ، ثم ليأمرهم بقبول شهادة من يدين به ، ورفض شهادة من لا يدين به<sup>(٢)</sup> .

وما زال الخلاف بين المعتزلة والسنية محتدما حتى ظهر الأشعري ( المتوفى سنة ٣٣٠ هـ ) فذهب إلى أن كلام الله يطلق إطلاقين كما هو الشأن في الإنسان ، فيسمى الإنسان متكلماً باعتبارين : أحدهما بالصوت والآخر بكلام النفس الذي ليس بصوت ولا بحرف ، وهو المعنى القائم بالنفس المعبر عنه بالألفاظ . وانتقل من هذا إلى أن كلام الله يطلق بهذين الإطلاقين ، المعنى النفسى وهو القائم بذاته ، وهو الأزلى القديم وهو لا يتغير بتغير العبارات ، وهذا هو الذى يطلق عليه كلام الله حقيقة ، أما القرآن بمعنى المقروء المكتوب فهو كما يقول المعتزلة حادث مخلوق<sup>(٣)</sup> .

ثم جاء الزمخشري فدافع عن عقيدة المعتزلة ، فقال في تفسير قوله تعالى : « قل اجتمعن الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »<sup>(٤)</sup> .

والمعجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم ، مع اعترافهم بأنه معجز ، وإنما يكون المعجز حيث تكون القدرة فيقال الله قادر على خلق الأجسام

(١) الملل والنحل ١/٤٩

(٢) تاريخ الطبري ١٠/٢٤٨

(٣) ضحى الإسلام ٣/٢٢ - ٤٤

(٤) سورة الإسراء ٨٨

والعباد عاجزون عنه ، وأما المحال الذى لا محال فيه للقدره ولا مدخل لها فيه كثنائى القديم ، فلا يقال للفاعل قد عجز عنه ولا هو معجزه ، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالمعجز ، لأنه لا يوصف بالقدره على المحال ، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال ، فإن رأس ما هم المكابرة وقلب الحقائق .

وعلق ابن المنير بقوله :

مما يدل على حيد الزمخشري عن سن الإنصاف أنه تدلّس على الضعف في مثل هذه المسألة التي طبقت الأرض ظهوراً وشيوفاً ، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل عن معتقد القوم ، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات البارئ تعالى يطلق عليها قرآن ويطلق أيضاً على أدواتها وهي هذه الكلمات الفصيحة والآى الكريمة قرآن ، وأن المعجز عديم الدليل لا المدلول ، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين : أحدهما أنه إطلاق موهم ، والثانى أن السلف الصالح كفوا عنه ، فافتقروا آثارهم ، واقتبسوا أنوارهم ، وكمن معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده ، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق ، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمتعنت بإلزامه <sup>(١)</sup>

(٢)

### العدل

من الأصول المهمة للمعتزلة وصف الله تعالى بالعدل ، كما وضموه بالوحدانية ، ولهذا سمو أنفسهم أهل العدل والتوحيد .

وإذا كان المعتزلة قد شعبوا مباحثهم فيما يتصل بالتوحيد فإنهم قد تعمقوا فيما يتصل بالعدل ، وشققوا منه عدة مباحث :

١ — فالله سبحانه وتعالى عادل ، والظلم منى عنه ، قال تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد »<sup>(١)</sup> وقال تعالى : « فما كان الله لينظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »<sup>(٢)</sup>.

٢ — وهو سبحانه يريد لعباده خير ما يكون .

٣ — ولا يريد الشر ولا يأمر به .

وذلك أن مرید الخير خير ، ومرید الشر شرير ، فلو كانت إرادة الله متعلقة بكل ما في العالم من خير وشر لكان الخير والشر مرادين له ، فيكون المرید موصوفاً بالخيرية وبالشرية ، وذلك محال على الله .

ولهذا قالوا إن الله أراد ما كان من الأعمال خيراً أن يكون ، وما كان شراً ألا يكون ، وما لم يكن خيراً ولا شراً فهو تعالى لا يريد ولا يكرهه ، ومعنى هذا أن الله مرید لما أمر به من الطاعات أن يكون ، فهو يريد منا الصلاة والزكاة ، ولا يريد منا المعاصي ، وأما المباحات فلا يريد بها ولا يكرهها .

وأما غير المعزلة فيعتقدون أن الله مرید لجميع ما كان ، غير مرید لما لم يكن ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وينبني على هذا أن كفر الكفار وعصيان العصاة لم يردده الله في رأى المعزلة ، وأراده في رأى غيرهم .

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون »<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة فصلت ٤٦ .

(٢) سورة الروم ٩ .

(٣) سورة الأنفال ٢٢ .

إن شر من يدب على الأرض أو إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه ، ولو علم الله في هؤلاء الصم البكم انتفاعاً باللفظ للطف بهم حتى لا يسموا سماع المصدقين ، ولولطف بهم لما نفع فيهم اللطف ، فلذلك منعهم إلفافه ، أو ولو لطف بهم وصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا

وعلق ابن المنير بقوله :

إطلاق القول بأن الله تعالى يلفظ بالعبد فلا ينفع لطفه مردود ، فإن اللطف هو إسداء الجميل والإلفاف به ، واسمه اللطيف من ذلك ، فإذا أسدى الجميل إلى العبد بأن أسمعه إسماع لطف به فتلك الغاية المرجوة ، ومعنى اللطف به على هذا أن يخلق في قلبه قبول الحق وحسن الإصغاء إليه والاهتداء به ، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال والرأى الفاسد في خلق الأفعال ، لأن مقتضاها أن العبد هو الذى يخلق لنفسه قبول الحق والهداية وحسن الاستماع والإصغاء ، وأن الله تعالى لا يشارك العبد في خلق ذلك ، بل الذى ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق ، ولا يلزم حصول مراده على العموم ، ولو تنزل منزل على هذه القاعدة لما استقام تأويل الزمخشري أيضاً ، فإن حاصله ولو علم الله فيهم خيراً للطف بهم ، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللفظ ، فيلزم عدم انتفاعهم باللفظ على تقدير علم الله الخير فيهم ، وهذا غير مستقيم ، لما يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى ، وذلك محال عقلاً .

فلا يرتفع الإشكال إلا بتقدير الإسماع الواقع جواباً أولاً ، خلاف الإسماع الواقع شرطاً ثانياً ، كيلا ينكروا الوسط فيلزم المحال المذكور ، وأقرب وجه في اختلاف الإسماعين أن يراد بالأول ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم إسماعاً يخلق

لهم به الهداية والقبول، ولو أسمعهم إسماعاً مجرداً من ذلك لتولوا وهم معرضون ،  
فهذا هو الوجه في تأويل الآية<sup>(١)</sup> .

٤ — ولم يخلق الله أفعال العباد لا خيراً ولا شراً ، وإنما يعملون أعمالهم  
أحراراً ، فيثابون على الخير ويعاقبون على الشر .

٥ -- وانتهوا من هذا إلى نظرية الصلاح والأصلح ، ومعناها أن الله  
يقصد من أعماله نفع عباده وصلاحهم . وذهب بعض المعتزلة إلى أن رعاية الله  
لمصالح عباده واجب عليه ، ولم يكتف بعضهم بهذا فقالوا إن الواجب عليه رعاية  
الأصلح .

وقد وافقهم في جوهر الفكرة بعض المعتزلة ، ولسكنهم عابوا عليهم تعبيرهم  
بالجوب ، ورأوا أن الأقرب إلى الأدب التعبير بأن هذا هو القانون أو النظام  
الذي يقصد الله إليه في أعماله .

وخالفهم فريق كبير ، ورأوا أن أفعال الله ليست معللة بفرض ، وليس  
الباعث عليها غاية ، بدليل أن في العالم شروراً كثيرة ومفارقات شتى ، كالفقر  
والمرض ، ولا يمكن تفسير ما فيها من المصلحة .

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ، ومنها  
جائز » ، ولو شاء لهذا كم أجمعين »<sup>(٢)</sup> :

معناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه ، كقوله « إن علينا  
للهدى »<sup>(٣)</sup> فإن قلت : لم غير أسلوب الكلام في قوله ( ومنها جائز ) ؟

---

(١) الكشف وهامشه ١/٣٧٠

(٢) سورة النحل ٩

(٣) سورة الليل ١٢

قلت : ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقليل : وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر .  
وقرأ عبد الله ( ومنكم جائر ) يعنى ومنكم جائر عن القصد بسوء اختياره والله يرى منه .

ولو شاء الله لهذاكم أجمعين قسرا .

وعلق ابن المنير على رأى الزمخشري بقوله :

« أن يذهب به عن تنمة الآية ، وذلك قوله تعالى : « ولو شاء لهذاكم أجمعين » ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لكان الكلام : وقد هذاكم أجمعين . وما كانوا إلا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . فإن ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقسر والإلجاء فما كانوا إلا يحرفون الكلم عن مواضعه .

وأما المخالفة بين الأسلوبين فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بين السبيل القاصد والجائر ، وهدى قوما اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم . وقد تقدم في غير موضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران : فهو من حيث كونه موجودا مخلوق لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار ، وهو من حيث كونه مقترنا باختيار العبد له ، وبتأنيه له ، وتيسره عليه ، يضاف إلى العبد ، وإن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل ، فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها ، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له .

والحاصل أنه ذكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر ؛ ليناسب ذلك إقامة الحجة البالغة<sup>(١)</sup> .

وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : « فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورَازٌ » فقالوا هذا إلهكم وإله موسى <sup>(١)</sup> :

فإن قلت : فلم خلق الله العجل من الحلي حتى صار فتنة لبني إسرائيل وضلالا ؟ قلت : ليست بأول محنة محن الله بها عباده ، ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ، ومن عجب من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب <sup>(٢)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » <sup>(٣)</sup> :

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة ألا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيبا وجلالا ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب وخالقهم ورازقهم أولى بالسؤال عن أفعاله ، مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله معقول بدواعي الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح <sup>(٤)</sup> .

وعلق ابن المنير بقوله :

سحقا لها من لفظة ما أسوأ أدبها مع الله تعالى ، أعنى قوله دواعي الحكمة ، فإن الدواعي والصوارف إنما تستعمل في حق المحدثين ، كقولك هو مما توفر دواعي الناس إليه أو صوارفهم عنه .

وأما قولك لا يجوز عليه فعل القبائح فهل تقول إن أحدا شريك الله في ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التي تسميها قبائح فتنفى عن قدرة الله تعالى

---

(١) سورة طه ٨٨

(٢) الكشف ٣٢/٢

(٣) سورة الأنبياء ٢٣

(٤) الكشف ٤٣/٢

وإرادته ، وما الفرق بين من يشرك الله ملكاً من الملائكة وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول إنه يفعل ويخلق لنفسه ، شاء الله أو لم يشأ ؟

والقدرية ارتضوا لأنفسهم شرّاً شركاً ، لأن غيرهم أشرك بالملائكة ، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجن وجميع الحيوانات<sup>(١)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى :

« ولولا أن يكونَ الناسُ أمةً واحدةً لجعلنا لمن يَكْفُرُ بالرحمنِ لُبيوتَهُمْ سَقُفًا من فضةٍ ومعارجَ عليها يظهرون ، وليبوتَهُمْ أبواباً وسُرُرًا عليها يتكثون وزخرفاً ، وإن كلُّ ذلك لَمَّا متاعُ الحياةِ الدنيا ، والآخرةُ عِنْدَ ربِّك للمتقين<sup>(٢)</sup> » :

فإن قلت : فعين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسيع عليهم من إطباق الناس على الكفر ، لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟

قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضاً ، لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين ، فكانت الحكمة فيما دبر ، حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقر على الغنى .

وقد علق ابن المنير على هذا بقوله : السؤال والجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين :

إحداهما تعليل أفعال الله تعالى ، والأخرى أن الله تعالى أراد الإسلام من

(١) هامش الكشف ٤٤/٢

(٢) سورة الزخرف ٣٣ — ٣٥



الخلق أجمعين ، أما الأولى فقد أخرج الله السائل عنه بقوله : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون <sup>(١)</sup> » .

وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب بقوله : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا <sup>(٢)</sup> » .

وقال في تفسير قوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن <sup>(٣)</sup> » :

نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر ، ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره ، فما الذي دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم ؟ .

وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد ؟

قلت : قد علمنا أن الله حكيم عالم بقبح القبيح ، وعالم بغناه عنه ، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة ، وخلق فاعل القبيح من أفعال الله ، فوجب أن يكون حسنا ، وأن يكون له وجه حسن ، وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه ، كما لا يقدح في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها <sup>(٤)</sup> .

٦ — كذلك انتهوا إلى نظرية الحسن والقبح ، ومعناها أن الحسن والقبح في الأعمال ذاتيان ، ففي الصدق حسن ذاتي ، وفي الكذب قبح ذاتي ، ولهذا لم يجيزوا على الله الكذب لما فيه من قبح ، وقالوا إنه لا بد أن يصدق ، لأن الصدق حسن في ذاته .

---

(١) سورة الأنبياء ٢٣

(٢) سورة يونس ٩٩ والكشاف ٣٥١/٢

(٣) سورة التغابن ٢

(٤) الكشاف ٤٦٣/٢

وبنوا على هذا أن الشرع يأمر بأشياء، وينهى عن أشياء، وفقاً لما فيها من حسن أو قبح، والعقل يستحسن أشياء، ويستقبح أشياء، لأنه يدرك ما في الحسنة من حسن، ويدرك ما في القبيحة من قبح، وليس التحسين والتقبيح راجعين إلى أمر الشرع ونهيه، بل هما راجعان إلى الشيء ذاته وإدراك العقل لحقيقته، فالشرع في تحسينه وتقبيحه مُخْبِرٌ لا مُنْشِئٌ، والعقل في إدراكه يَبْنِى ولا يوجِدُ. واستدلوا على هذا بأن الناس كانوا قبل الشرائع يتعاضدون إلى عقولهم، فيستحسنون إنقاذ الفَرَقِ مثلاً، ويستقبحون العدوان، وبأن الرسل دعوا الناس إلى تصديقهم والنظر في معجزاتهم للإيمان بشرائعهم، وفي هذا تأكيد لسبق العقل، وبأن الفقهاء اجتهدوا في أمور شرعية لم يرد فيها نص، وعللوا للأحكام، وهذا من عمل العقل المعتمد على الحسن والقبح الذاتيين.

وأما غير المعتزلة فذهبوا إلى أن الحسن ما أمر به الشرع، والقبيح ما نهى عنه الشرع، لأن الشرع مثبت لا مخبر، وليس هناك شيء حسن لذاته أو قبيح لذاته، فالحسن والقبح قد يتخلفان، فيكون القتل حسناً مرة وقبيحاً مرة، ولو كان الحسن أو القبح ذاتياً ما تبدل حكمه، وقد يكون الشيء حسناً في زمن وقبيحاً في آخر، والشرائع نفسها تبيح أشياء لقوم وتحرمها على آخرين، وتشرع أموراً لقوم، وتشرع غيرها لسواهم، فلو كان الحسن والقبح ذاتيين ما تغير التشريع<sup>(١)</sup>.

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: «لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرُّسُل»<sup>(٢)</sup>: كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرُّسُل، وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي يوصل النظر فيها إلى المعرفة، والرسول في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟

(١) ضحى الإسلام ٤٥/٣

(٢) سورة النساء ١٦٥

قلت : الرسل منبهون من الغفلة ، وباعثون على النظر ، كما يرى علماء أهل  
العدل والتوحيد ، مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين ، وبيان أصول  
التكليف ، وتعليم الشرائع ، فكان إرسالهم إزاحة للعلة ، وتنميتها لإلزام الحجة ،  
لئلا يقولوا : لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقفنا من سنة الغفلة ، وينبها لما وجب  
الانتباه له .

وغلق ابن المنير بقوله : قاعدة المتمزلة في التحسين والتقبيح العقليين تجرم  
وتجرئهم على إثبات أحكام الله تعالى بمجرد العقل وإن لم يبعث رسولا . فيوجبون  
بعقولهم ، ويحرمون ويبيحون على وفق زعمهم . وما يوجبونه قبل ورود  
الشرع النظر في أدلة المعرفة ، ولا يتوقفون على ورود الشرع الموجب ، ولهذا  
يزعمون أن من ترك النظر في الأدلة قبل ورود الشرع فقد ترك واجبا يستحق  
به التعذيب ، وقد قامت الحجة عليه في الوجوب وإن لم يكن شرع . وإذا  
تليت عليهم هذه الآية صمت آذانهم ، وقالوا إن الرسل تتم حجة الله ، وتنبيه  
على ما وجب قبل بعثها بالعقل <sup>(١)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وما كان الله ليضلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ  
حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » <sup>(٢)</sup> :

يعنى ما أمر الله باتقائه واجتنابه ، كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى  
عنه ، وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هدام للإسلام ، ولا يسميهم  
ضلالا ، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه  
واجب الانتقاء والاجتناب ، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما  
لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا بيع الصاع بالصاعين قبل التحريم .

(١) الكشاف وحاشيته ٢٣٨/١

(٢) سورة النوبة ١١٥

فأما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر، ورد للوديعة، فغير موقوف على التوقيف.  
وعلق ابن المنبر على هذا بقوله :

هذا تفريع على قاعدة التحسين والتقييح، وأن العقل حاكم الشرع، كاشف لما غمض عليه، تابع لمقتضاه، وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير موضع<sup>(١)</sup>  
وقال في تفسير قوله تعالى : « ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »<sup>(٢)</sup> :

معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامها وإعقلها، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ما شاء منها، بدليل قوله : « قد أفلح من زكّاهَا ، وقد خاب من دَسَّاهَا » فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليها .

وأما قول من زعم أن الضمير في زكّى ودسّى لله تعالى ، وأن تأنيث الراجع إلى ( من ) لأنه في معنى النفس ، فمن تنكيس القدرية - يريد الجبرية - الذين يوركون على الله قدرأ هو برىء منه ، ومتعال عنه ، ويمحون ليايهم في تحمل فاحشة ينسبونها إليه .

وعلق ابن المنبر على هذا بقوله :

وفي هذا الكلام نوعان من الباطل : أحدهما في قوله معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامها وإعقلها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، والذي يمكنه في هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ألا ترى إلى قوله أعقلها ، أي خلق العقل الموصل إلى معرفه حسن الحسن وقبح القبيح ، وإنما اعتمد في هذا فرصة إشعار الإلهام بذلك ، فإنه ربما يظن أن إطلاقه على العلم للاستفاد من السمع بعيد .

(١) الكشاف وجامعه ١/١٠٤

(٢) سورة الشمس ٧ - ٨

والذى يقطع دابر هذه النزعة أنا وإن قلنا إن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع ، لأنها راجعان إلى الأحكام الشرعية التى ليست عندنا بصفات الأفعال ، فإننا لا نلغى حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية ، بل لا بد فى علمه كل حكم شرعى من المقدمة العقلية وهى الموصلة إلى العقيدة ، والمقدمة السمعية المفرعة عليها ، وهى الدالة على خصوص الحكم . على أن تعلقه بظاهر — لو سلم ظهوره — فى قاعدة قطعية بمزلة عن الصواب .

لنزعة الثانية ( وهنا تكلم عن أفعال العباد )<sup>(١)</sup>

(٣)

### حرية العباد

دان المعتزلة بحرية العباد فى أعمالهم ، بغير توجيه من إرادة الله وقدرته ، ولهذا يثيبهم الله عليها أو يعاقبهم ، فلا جبر ولا اضطرار ، لأن الله تعالى منزّه عن الفساد ، وعن خلق أفعال العباد ، فهم يفعلون أفعالهم بالقدره التى خلقها الله فيهم ، وهو لم يأمرهم إلا بما أراد ، ولم ينههم إلا عما كره ، ولو شاء لأجبرهم على طاعته ، ومنعهم من معصيته ، لأنه القادر .

وهذا هو السبب فى أنهم سمو أنفسهم أهل العدل .

لكن خصومهم أطلقوا عليهم القدرية أحياناً ، لأنهم وافقوا القدرية الذين كانوا قبلهم فى القول بحرية العبد وقدرته واختياره ، وأطلقوا عليهم الجهمية أحياناً ، لأنهم وافقوا الجهمية فى نفي الصفات ، وفى القول بخلق القرآن ، وإن خالفهم فى الحرية والاختيار<sup>(٢)</sup> .

(١) الكشف وحاشيته ٥٤٦/٢

(٢) الجهمية أتباع جهم بن صفوان كان يقول بالجبر ، ويحرم الإنسان من الاختيار والقدره ، ويزعم أنه يثاب أو يعاقب على أعماله جبراً ، وإنما تنسب الأفعال إليه على سبيل المجاز كما تنسب إلى الجراد ، فيقال جرى الماء وتحرك الهواء وآثرت الشجرة وطلعت الشمس ،

لكن المعتزلة يראون من تسميتهم قدرية أو جهمية ، ويردون على التسمية الأولى بأنهم ينفون القدر ، وغيرهم يثبتونه ، فهم أولى بأن ينسبوا إليه .

ويتبرأ من الجهمية بشر بن المعتز أحد زعماء المعتزلة بقوله :

ننفيهم عنا ولسنا منهم ولاهم منا ولا نرضاهم  
إمامهم جهم ومالجم وصحب عمروذى التقي والعلم<sup>(١)</sup>

وأدلة المعتزلة على مذهبهم شعور الإنسان بالفرق بين الحركة الاختيارية والاضطرارية ، فالأولى مرادة والثانية غير مرادة ، ودليل آخر أنه لولا الحرية لبطل التكليف وانتفى الأمر والنهى والثواب والعقاب ، ودليل ثالث أن بالقرآن آيات كثيرة تؤكد هذه الحرية .

وكان من خصومهم الجبرية الذين ذهبوا إلى أن الإنسان مجبر ، فهو والجناد سواء ، وإذا كانت الأفعال تنسب إليه فإنه مجاز .

وقد نشأ الخلاف نفسه قبل الإسلام بين فلاسفة اليونان ، فذهب الأبيقوريون إلى أن الإنسان حر مختار ، وذهب الرواقيون إلى أنه مجبر لا اختيار له ، كما كان هذا الخلاف من مباحث الزرادشتية ثم المسيحية .

وقد دان المعتزلة بالحرية ، ودافعوا عن مذهبهم ، وتأولوا الآيات القرآنية المخالفة له .

ثم جاء أبو الحسن الأشعري فتوسط بين مذهبي المعتزلة والجبرية ، واخترع

---

= ومن مذهبه أنه لا يجوز وصف الله بصفة يوصف بها خلقه ، لأن هذا يقتضى تعيها ، فتفى جهم كونه حيا عالما وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقا ، لأنه لا يوصف أحد من خلقه بالقدر والفعل والخلق . وكان جهم من موالى خراسان أقام بالسكوفة ودعا إلى مذهبه ، وكان وزيرا للعارث بن سريع ، فلما خرج الحارث طى إلى أمية حاربوه وهزموه وأسروا جها وقتلوه ( الملل والنحل ١/ ٧٩ )

(١) عمرو بن مبيد أحد رؤساء المعتزلة الأولين

ما سماه الكسب ، وهو الاقتران العادى بين القدرة المحدثه ( أى قدرة الإنسان )  
والفعل ، فالله تعالى أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بقدرة  
العبد وإرادته ، وهذا الاقتران هو الكسب . وقال آخرون إن أفعال العباد  
تضاف إلى الله باعتبار أنه أقدرهم عليها ، وخلق القدرة فيهم ، وتضاف إلى  
العبد باعتبار أنه هو المصرف لأعماله بقدرته الحرة التى خلقها الله له <sup>(١)</sup> .

وإذ كان الزمخشري يدين بهذه الحرية فإنه لم يدع آية من القرآن الكريم  
تتصل بالجبر أو الاختيار الا أولها وفق مذهبه .

قال فى تفسير قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » <sup>(٢)</sup> :  
لا تيلنا ببلايا تزيع فيها قلوبنا بعد إذ أرشدتنا لدينك ، أو لا تمنعنا إطفائك  
بعد إذ لطفت بنا .

وعلق ابن المنير بقوله :

أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة ، لأنهم يوحّدون حق  
التوحيد ، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيع مخلوق لله تعالى .

وأما القدرية فعندهم أن الزيع لا يخلقه الله تعالى ، وإنما يخلقه العبد نفسه ،  
فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف ،  
وإن كنا ندعو الله تعالى مضافا إلى هذه الدعوة ألا يبتلينا ولا يمنعنا لطفه ، لأن  
الكل فعله وخلقه ولا موجود إلا هو وأفعاله التى نحن وأفعالنا منها <sup>(٣)</sup> .

(١) ضعى الإسلام ٤٤/٣ — ٦١ وطم الأخلاق لأرسطو ٢٦٥ ترجمة أحمد لطفى  
السيد وزرادت الحكيم ٨٤ حامد عبد القادر

(٢) سورة آل عمران ٨

(٣) الكشف وحاشيته ١ / ١٣٥

وقال في تفسير قوله تعالى : « ومن يُرد الله فتنته فلن تمّلك له من الله شيئاً »<sup>(١)</sup> :

ومن يرد الله فتنة تركه مفتونا ، فلن تملك له من الله شيئاً ، ولن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من إطفائه ما يطهرون به قلوبهم ، لأنهم ليسوا من أهلها ، لعله أنها لا تنفع فيهم ولا تنجع ، كقوله تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله »<sup>(٢)</sup> وقوله : « كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم »<sup>(٣)</sup> .

وعلق ابن المنير بقوله :

هذه الآية منطبقة على عقيدة السنة في أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين ، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة ووضر الكفر ، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنة من أحد ، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب ، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته ، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ، ولكن لم يقع .

فحسبهم هذه الآية وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ وما أبشع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها بقوله لم يرد الله أن يمنحهم الطافة ، لعله أن الطافة لا تنجع فيهم ولا تنفع ، وإذا لم تنجع الطاف الله تعالى ولم تنفع فلفظ من ينفع وإرادة من تنجع<sup>(٤)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله

(١) سورة المائدة ٤١

(٢) سورة النحل ١٠٤

(٣) سورة آل عمران ٨٦ والكشاف وحاشه ٢٥٦/١

(٤) حاش الكشاف ٢٥٦/١



وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ ، و وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » <sup>(١)</sup> :

لا تلوُموني حيث اغتررتم بي ، وأطعتموني إذ دعوتكم ، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم ، وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يخلق الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه ، وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال فلا تلوُموني ولا تلوُموا أنفسكم ، فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه .

فإن قلت : قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به .

قلت : ولو كان هذا القول منه باطلاً لبين الله بطلانه ، وأظهر إنكاره ، على أنه لا طائل له في النطق بالبطل في ذلك المقام ، ألا ترى إلى قوله : « إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » كيف آتى فيه بالحق والصدق ؟ وفي قوله : « وما كان لي عليكم من سلطان » وهو مثل قوله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الفاوين » <sup>(٢)</sup> .

وعلق ابن المنير بقوله :

نحن معاشر أهل السنة الملقين عنده بالمجبرة نقول إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير رادٍّ له ولا مخْطئ فيه الشيطان ، كما قص كلام الكفار في الآية الأولى كذلك . ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف ، وأما الله تعالى فمقدس عن ذلك ، لأننا نعرف بما خلقه الله للعبد من الاختيار الذي يجده من نفسه عند تجاوب طرفي الأفعال الإرادية ، وبذلك قامت الحجة له على

(١) سورة إبراهيم ٢٢

(٢) سورة الحجر ٤٢ البكشاف ١/٣٠٠

خلقه وإن سلطنا قدرة الخلق تأثيرها في الفعل ، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف <sup>(١)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » <sup>(٢)</sup> :

يعنى لا يضطرم إلى أن يكونوا أهل ملة واحدة وهى ملة الإسلام ، لقوله : « إن هذه أمتكم أمة واحدة » <sup>(٣)</sup> ، وهذا الكلام يتضمن تقي الاصطرار ، وأنه لم يضطرم إلى الاتفاق على دين الحق ، ولكنه مكنهم من الاختيار الذى هو أساس التكليف ، فاختر بعضهم الحق وبعضهم الباطل ، فاختلفوا ، ولذلك قال : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » إلا ناسا هداهم الله ولطف بهم ، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه <sup>(٤)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » <sup>(٥)</sup> :

معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامها وإعقابها وتمكينه من اختيار ما شاء مسهما ، بدليل قوله : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » فجعله فاعل التزكية .

وسئل ابن عباس عنه فقال أتقرأ : « قد أفلح من تزكى » <sup>(٦)</sup> « وقد خاب من حمل ظلما » <sup>(٧)</sup> . وأما قول من زعم أن الضمير في زكى ودمى لله تعالى ، وأن تأنيث الراجع إلى ( من ) لأنه في معنى النفس ، فمن تعكيس القدرية — يريد الجبرية —

(١) هامش الكشف ١/٥٠٣

(٢) سورة هود ١١٨

(٣) سورة المؤمنون ٥٢

(٤) الكشف ١/٤٥٧

(٥) سورة الشمس ٧ — ١٠

(٦) سورة الأمل ١٤

(٧) سورة طه ١١١

الذين يوركون على الله قدراً هو بريء منه ، ومتعال عنه ، ويجيون لآلئهم في  
تمحل فاحشة ينسبونها إليه <sup>(١)</sup>

وعلق ابن المنير على هذا بالرد على أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ثم  
قال إن التزكية وقسيمها ليسا مخلوقين لله تعالى بل لشركائه المعزلة ، وإنما نعارضه  
في الظاهر من خوى الآية ، على أنه لم يذكر وجهها في الرد على من قال إن  
الضمير لله تعالى ، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهة على أهل السنة ،  
فبقول لا وراء في احتمال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذى النفس ، لكن  
عوده إلى الله تعالى أولى لوجهين : أحدهما أن الجمل سبقت سياقة واحدة من  
قوله : « والسماء وما بناها » والضمائر فيما تقدم هذين الفعلين عائدة إلى الله تعالى  
بالإتفاق ، ولم يجر لغير الله ذكر ، وإن قيل بعود الضمير إلى غيره فإنما يتمحل  
لجوازه بدلالة الكلام ضمنا واستلزاما لا ذكرا ومنطقا ، وما جرى ذكره أولى  
أن يعود الضمير عليه .

والثاني أن الفعل المستعمل في الآية التي استدل بها في قوله : « أفلح من  
تزكى » وهو (تفعل) لا شك أن تفعل مطاوع ففعل ، فهذا بأن يدل لنا أولى من أن  
يدل له ، لأن الكلام عندنا نحن قد أفلح من تزكاه الله فتزكى ، وعنده الفاعل  
في الاثنين واحد أضاف إليه الفعلين المختلفين ، ويحتاج في تصحيح الكلام  
إلى تعديد اعتبار وجه ، ونحن عنه في غنية .

على أنا لا نأبى أن تضاف التزكية والتدسية إلى العبد على طريقة أنه الفاعل ،  
كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أفعال الطاعات ، لأن له عندنا  
اختياراً وقدرة مقارنة ، وإن منعنا البرهان العقلي الدال على وحدانية الله تعالى  
ونفى الشريك أن نجعل قدرة العبد مؤثرة خالقه <sup>(٢)</sup> .

(١) الكشاف ٥٤٦/٢

(٢) هامش الكشاف ٥٤٦/٢

(٤)

## الوعد والوعيد

أراد للمعتزلة بالوعد والوعيد أن الله صادق في وعده ووعيده ، فقد وعد المتقين الجنة ، وأوعد المشركين والعصاة النار ، وهو سبحانه لا يخلف وعده ولا وعيده ، فمن عفا فبفعله استحق الثواب ، ومن خسر فبفعله استحق العقاب ، فالثواب والعقاب قانون حتى التزم الله تعالى به .

وإذا مات المسلم العاصي قبل التوبة يخلد في النار ، ولا تنفع فيه شفاعة .  
وم بهذا يخالفون المرجئة ، لأن هؤلاء ذهبوا إلى أن الله لا يخلف وعده ولكنه قد يخلف وعيده ، لأن الثواب فضل من الله لا بد أن ينقضي به ، وإلا كان خلف الوعد نقصاً ، أما العقاب فعدل ، والله أن يعفو أو يخلف العقوبة ، وليس في هذا نقص .

كما أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار ، لأنه عمل خيراً هو إيمانه ، وارتكب شراً هو كبريته ، فيعاقب على كبريته ، ويثاب على إيمانه .  
فلننظر تأويل الزمخشري للآيات المتصلة بهذا الخلاف .

قال في تفسير قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (١) : قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه ، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة فما وجه هذه الآية ؟

الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله تعالى : «لِمَنْ يَشَاءُ» ، كأنه قيل إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك ، غلى أن المراد بالأول من لم يتب ، وبالثاني من تاب .

ونظيره قولك إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء ، تريد  
لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ، ويبذل القنطار لمن يستأهله .

وعلق ابن المنير بقوله :

عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور ألبتة ، وما دونه من الكبائر  
مغفور لمن يشاء الله أن يغفره له ، هذا مع عدم التوبة ، وأما مع التوبة فكلاهما  
مغفور . وهذه الآية وردت فيمن لم يتب ولم تذكر فيها توبة ، فلذلك أطلق  
الله تعالى نفي مغفرة الشرك ، وأثبت مغفرة ما دونه مقرونة بالمشيئة ، فهذا وجه  
انطباق الآية على عقيدة أهل السنة .

وأما القدرية فإنهم يظنون التسوية بين الشرك وبين ما دونه من الكبائر في أن  
كل واحد من النوعين لا يغفر بدون التوبة ، ولا شاء الله أن يغفرها إلا للتائبين ،  
فإذا عرض الزمخشري هذا المعتقد على هذه الآية رده ونبت عنه ، إذ المغفرة  
منفية فيها عن الشرك وثابتة لما دونه ، مقرونة بالمشيئة .

فأما أن يكون المراد فيها من لم يتب فلا وجه للتفصيل بينهما بتعليق  
المغفرة في أحدهما بالمشيئة وتعليقها بالآخر مطلقا ، إذ هما سيان في استحالة المغفرة .

وأما أن يكون المراد فيها التائب فقد قال في الشرك إنه لا يغفر ،  
والتائب من الشرك مغفور له ، وعند ذلك أخذ الزمخشري يقطع أحدهما  
عن الآخر ، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة ، ومع الكبائر التوبة ،  
حتى ينزل الآية على وفق معتقده ، فيحملها أمرين لا تحتمل واحدا منهما ،  
أحدهما إضافة التوبة إلى المشيئة وهي غير مذكورة ولا دليل عليها فيما ذكر ،  
ولو كانت مرادة السكات هي السبب الموجب للمغفرة على زعم القدرية عقلا ،  
ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم في العقل ، فكيف يليق السكوت عن  
ذكر ما هو العمدة والموجب ، وذكر ما لا يدخل له على هذا المعتقد الردى ؟

الثانى أنه بعد تقريره التوبة اختكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر ، وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأى<sup>(١)</sup> .

وقال فى تفسير قوله تعالى : «ومن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فِجْزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا »<sup>(٢)</sup> :

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ ، ومن ثم روى عن أبى عباس أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة ، وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا لا توبة له ، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله فى التغليظ والتشديد ، وإلا فكل ذنب محو بالتوبة ، وناهيك بمحو الشرك دليلا .

وفى الحديث : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم وفيه . . .

والعجب من قوم يقرأون هذه الآية ، ويسمعون هذه الأحاديث وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما ينجيل إليهم مناهم أن يظنوا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟

فإن قلت : هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر ؟

قلت : ما أبين الدليل وهو تناول قوله : «ومن يقتل» أى قاتل كان ، من مسلم أو كافر ، تائب أو غير تائب ، إلا أن التائب أخرجه الدليل ، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله .

وعلق ابن المنير بقوله :

كفى بقوله تعالى فى هذه السورة «إن الله لا يغفر أن يُشركَ به ، ويغفر

(١) الكشف وهاشمه ٢٠٨/١

(٢) سورة النساء ٩٣

ما دون ذلك لمن يشاء » دليل أبلغ على أن القاتل الموحّد وإن لم يقب فأمره إلى الله إن شاء آخذه ، وإن شاء غفر له .

وأما نسبة أهل السنة إلى الأشعية فذلك لا يضيرهم ، لأنهم إنما تطفلوا على لطف أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، ولم يقنطوا من رحمة الله ، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الظالمون <sup>(١)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعَةٌ ، ولا يؤخذ منها عدلٌ » ، ولا هم ينصرون <sup>(٢)</sup> :

فإن قلت : هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة ؟

قلت : نعم ، لأنه نفي أن تقضى نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفي أن يقبل منها شفاعاة شفيع ، فلم أنها لا تقبل للعصاة .

فإن قلت : الضير في ( منها ) إلى أي النفسين يرجع ؟

قلت : إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها ، وهي التي لا يؤخذ منها عدل ، ومعنى لا يقبل منها شفاعاة إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها ، ويحوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزى عنها شيئاً ، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها <sup>(٣)</sup> .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

أما من جحد الشفاعاة فهو جدير ألا ينالها ، وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين ، وإنما ادخرت لهم ، وليس في الآية دليل لمنكريها ، لأن قوله

(١) الكشف وحاميه ٢٢١/١

(٢) سورة البقرة ٤٨

(٣) الكشف ٥٥/١

( يوماً ) أخرجه منكراً ، ولا شك أن في القيامة مواطن ، ويومها معدود بخمسين ألف سنة ، فبعض أوقاتها ليس زمانا للشفاعة ، وبعضها هو الوقت الموعود ، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه الصلاة والسلام <sup>(١)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَاللَّائِكَةُ صَفًّا ، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » <sup>(٢)</sup> :

هما شريطان : أن يكون المتكلم منهما مأذونا له في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى ، لقوله تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى » <sup>(٣)</sup> .

وعلق ابن المنير بقوله :

يعرض بأن الشفاعة لا تثل على مرتكبي الكبائر من الموحدين ، وقد صرح بذلك في مواضع تقدمت ، ويذهب إلى أنها مخصوصة بالمرتضين ، وذوو الكبائر ليسوا مرتضين ، ومن ثم أخطأ ، فإن الله عز وجل ما خصهم بالإيمان والتوحيد وتوفاهم عليه إلا وقد ارتضاهم ، بدليل قوله تعالى : « وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ . وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » <sup>(٤)</sup> فجعل الشكر بمعنى الإيمان المقابل للكفر مرضيا لله تعالى ، وصاحبه مرتضى <sup>(٥)</sup> .

(٥)

### المنزلة بين المنزلتين

دخل رجل على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت في زمننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر هم وعبيدة الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب

(١) هامش الكشاف ١ / ٥٤

(٢) سورة النبأ ٢٨

(٣) سورة الأنبياء ٢٨ والكشاف ٢ / ٢٠٥

(٤) سورة الزمر ٧

(٥) هامش الكشاف ٢ / ٢٠٥



الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس  
ركنا من الإيمان ، ولا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ،  
هم مرجئه الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك ؟

ففكر الحسن ، وقبل أن يجيب قال تلميذه واصل بن عطاء : أنا لا أقول  
أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا ، بل هو في منزلة بين المنزلتين .  
ثم قام واعتزل إلى أسطوانة بالمسجد ، وجعل يقرر ما أجاب به على جماعة من  
أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمى هو وأصحابه معتزلة .

وقد دار خلاف كبير دائم حول وصف مرتكبي الكبيرة ، فالحسن  
رأى أنه منافق ، وواصل بن عطاء ذهب إلى أنه في منزلة بين الكفر والإيمان ،  
وتابعه على رأيه عمرو بن عبيد ، والمرجئة وصفوه بأنه مؤمن ، والأزارقة وصفوه  
بأنه كافر ، وأهل السنة قالوا إنه فاسق <sup>(١)</sup> .

ودليل المعتزلة أن الإيمان اجتماع التصديق والاعتقاد القلبي وأداء الواجبات ،  
فمن صدق بأن الله واحد وأن محمدا رسوله ، ولم يقم بالفرائض لم يكن مؤمنا ،  
لأنه لم يستكمل خصال الخير .

وبني المعتزلة على رأيهم هذا أن المعاصي قسمان : كبائر وصغائر ، واختلفوا  
في تعريف كل منهما ، وإن كان أكثرهم على أن الكبيرة ما أتى فيها وعيد ،  
والصغيرة ما لم يأت فيها وعيد ، وقالوا إن بعض الكبائر تصل إلى حد الكفر ،  
فمن شبه الله بخلقه أو نسب إليه الظلم أو كذبه في خبر ، فقد كفر .

وهناك كبائر أقل منها منزلة ، يسمى مرتكبها فاسقا ، والفسق منزلة بين

---

(١) اللؤلؤ والنحل ١/٥٢ ووفيات الأعيان في ترجمة قتادة وتاج العروس مادة عزل

الكفر والإيمان ، ولهذا فإن الفاسق ليس مؤمنا وليس كافرا ، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين <sup>(١)</sup> .

وعلى هذا الرأي أول الزمخشري بعض الآيات

١ — فمن تأويله للآيات المتصلة بالمنزلة بين المنزلتين أنه قال في تفسير قوله تعالى: «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون» <sup>(٢)</sup> : الإيمان الصحيح أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدق به عمله . فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق ، ومن أخل بالشهادة فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق .

وعلق ابن المنير بقوله : إنه أراد بالفاسق غير المؤمن وغير الكافر ، وهذا من الأسماء التي سماها القدرية ، وما أنزل الله بها من سلطان .

ومعتقد أهل السنة أن الموحدة لله الذي لا خلل في عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر، وهذا الصحيح لغة وشرعا . أما لغة فإن الإيمان هو التصديق ، وهو مصدق ، وأما شرعا فأقرب شاهد عليه هذه الآية ، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان دل على أن الإيمان معقول بدونه ، ولو كان العمل الصالح من الإيمان لكان العطف تكرارا <sup>(٣)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» <sup>(٤)</sup> :

لما لم يسمعوا قول المشيط ، وأخلصوا النية والعزم على الجهاد ، وأظهروا

(١) الملل والنحل ٢/١ .

(٢) سورة البقرة ٣ .

(٣) الكشاف وحاشته ١٧/١ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٣ .

حمية الإسلام ، كان ذلك أثبت ليقينهم ، وأقوى لاعتقادهم ، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج ، ولأن خروجهم على أثر التثبيط إلى وجهة العدو طاعة قطعية ، والطاعات من جملة الإيمان ، لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل .

وعن ابن عمر : قلنا يا رسول الله هل الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار .

وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نزد إيماننا . وعنه : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به <sup>(١)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » <sup>(٢)</sup> :

إن الله ذكر المؤمنين الأبرار وذكر الكفار ، ولم يذكر الفسقة ، لأن الناس حينئذ إما مؤمن تقي وإما مشرك ، وإما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك <sup>(٣)</sup> .

٤ — ومن تأويله للآيات المتصلة بالكبائر والصغائر أنه قال في تفسير قوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » <sup>(٤)</sup> :

المفنى هو الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق من العقوبة من فعل أو ترك . واختلف فى الصغائر ، وقيل الصحيح أنه لا يتناولها ، لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر <sup>(٥)</sup> .

(١) الكشاف ١/١٧٦

(٢) سورة الإسراء ٩ — ١٠

(٣) الكشاف ١/٤١٠

(٤) سورة البقرة ٢

(٥) الكشاف ١/١٦٦

وعلق ابن المنير بقوله : من تمنى القدرية على الله تعالى اعتقادهم أن الصفائر محوثة عنهم ما اجتنبوا الكبائر ، وأنه يجب أن يعفو الله عنها ليجنب الكبائر ، كما يجب عندهم ألا يعفو عن مرتكب الكبائر ، وهذا هو الخطأ الصراح والمحادثة لآيات الله البينات وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم الصراح .

والحق أن غفران الصفائر وإن اجتنب الكبائر موكول إلى المشيئة ، كما أن غفران الكبائر موكول إليها أيضا .

ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » <sup>(١)</sup> فإنه ناطق بالمؤاخذة بالصفائر ، ويتحيزون عند قوله تعالى : « إِنْ اللَّهُ يَغْفِرَ الذَّنُوبَ جَمِيعًا » <sup>(٢)</sup> فإنه يصرح بمغفرة الكبائر .

أما أهل السنة فقد ألفوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى : « إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » <sup>(٣)</sup> فإن التقييد بالمشيئة في هذه يقضى على الآيتين المطلقتين <sup>(٤)</sup> :

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنْ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » <sup>(٥)</sup> .

أى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ، ومحله الحال ، بمعنى ظالمين لأنفسهم . وفيه أوجه : أن يريد السيئات المكفرة ليجنب الكبائر ، أو يريد الكبائر بشرط التوبة ، أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال .

(١) سورة الزلزلة ٧ — ٨

(٢) سورة الزمر ٥٣

(٣) سورة النساء ١١٦

(٤) هامش الكشاف ١٦/١

(٥) سورة الرعد ٦

وروى أنها لما نزلت قال النبي عليه الصلاة والسلام : لولا عفو الله وتجاوزه ما هنتأ أحدنا العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد<sup>(١)</sup>.

وعلق ابن المير بقوله : الوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه ، إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحده ، فإن ظلمه أعنى شركه لا يغفر ، وماعدا الشرك فغفرانه في المشيئة ، والنمخشري يبنى على عقيدته التي وضح فسادها استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحدا إلا بالتوبة ، فيقيد مطلقا ، ويحجر واسعا<sup>(٢)</sup>.

وقال في تفسير قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أَسْرَفُوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم »<sup>(٣)</sup> :  
يعنى بشرط التوبة ، وقد تكرر هذا الشرط في القرآن ، فكان ذكره في مواضع مغنيا عن عدم ذكره في مواضع ، لأن القرآن في حكم كلام واحد ، ولا يجوز فيه التناقض . وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود « يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء » والمراد بمن يشاء من تاب ، لأن مشيئة الله تابعة لحكمه وعدله لا لملكه وجبروته . وقيل في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وفاطمة رضي الله عنها « يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي » ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى : « ولا يخاف عقباها »<sup>(٤)</sup>.

ثم ذكر ما قيل في أسباب نزول الآية<sup>(٥)</sup> :

وقال في تفسير قوله تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ

(١) الكشاف ٤٨٩/١

(٢) هامش الكشاف ٤٨٩/١

(٣) سورة الزمر ٥٣

(٤) سورة الشمس ١٥

(٥) الكشاف ٣٠٢/٢

عنكم سيئاتكم»<sup>(١)</sup> : الكبيرة والصغيرة إنما وصفتا بالكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب أو عقاب فاعلها<sup>(٢)</sup>.

وقال في تفسير قوله تعالى : « الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ »<sup>(٣)</sup> :

الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة ، وقيل التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها . والفواحش ما فحش من الكبائر ، كأنه قال والفواحش منها خاصة ، واللمم ما قل وصغر من الذنوب ، وعن أبي سعيد الخدري : اللمم هو النظرة والغمزة والقبلة ، وعن السدي الخطرة من الذنب ، وعن الكلبي كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا .

والله واسع المغفرة ، حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ، ويكفر الكبائر بالتوبة<sup>(٤)</sup> .

## (٦)

### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

رأى المعتزلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على المسلمين ، كما رأى غيرهم .

ولكنهم ذهبوا إلى الاقتصار على القلب إن كفى ، فإن لم يكف القلب فباللسان ، فإن لم يغن القلب واللسان فباليد ، فإن لم تنفع اليد فبالسيف<sup>(٥)</sup> .

(١) سورة النساء ٣١

(٢) الكشاف ٢٠٢/١

(٣) سورة النجم ٣٣

(٤) الكشاف ٤١٨/٢

(٥) الملل والنحل ٤٩/١ ومروج الذهب ١٩٠/٢

قال الزمخشري إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف ونهى عن المنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في أوقاته، وكيف يبشره، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على من الإنكار عليه عبث.

والأمر بالمعروف تابع للأمور به، إن كان واجبا فواجب، وإن كان ندبا فنadb، وأما النهي عن المنكر فواجب كله، لأن جميع المنكر تركه واجب، لا تصافه بالقبح. وشرط الوجوب أن يغلب على ظنه وقوع المعصية، نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته، وألا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة، ويتبدى في إنكاره بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، لأن الغرض كف المنكر . . . .

فمن رأى غيره تاركا للصلاة وجب عليه الإنكار، وأما ما يحتاج إلى قتال فإنما يقوم به من في استطاعته القتال، كالإمام وخلفائه، لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها<sup>(١)</sup>.

# ثانياً - مذاهيب فقهاء

عرض الزمخشري لمسائل فقهية كثيرة ، ولكنه لم يقتصر على مذهبه الحنفى ، بل أورد الأحكام فى المذاهب الأخرى ، وكان أحياناً يرجع مذهب الشافعى على مذهب أبى حنيفة .  
وهذه أمثلة مما ذكره :

١ - قال تعالى : « فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم <sup>(١)</sup> » .  
الهدى هدى المتعة وهو نسك عند أبى حنيفة ، وبأكل منه ، وعند الشافعى يجرى مجرى الجنائيات ولا يأكل منه .

ويذبحه يوم النحر عندنا ، وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته ، فمن لم يجد الهدى فعليه صيام ثلاثة أيام فى وقت الحج ، وهو أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج ، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله ، والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوما قبلهما ، وإن مضى هذا الوقت لم يحزته إلا الدم ، وعند الشافعى لاتصام إلا بعد الإحرام بالحج ، تمسكاً بظاهر قوله ( فى الحج وسبعة إذا رجعتم ) بمعنى إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبى حنيفة ، وعند الشافعى هو الرجوع إلى أهاليهم <sup>(٢)</sup> .

٢ - وقال تعالى :

« واذكروا الله فى أيام معدودات ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه <sup>(٣)</sup> »  
الأيام المعدودات أيام التشريق ، وذكر الله فيها والتكبير فى أدبار الصلوات وعند رمى الجمرات . ( فى يومين ) بعد يوم النحر يوم النفر ، وهو الذى يسميه

(١) سورة البقرة ١٩٦

(٢) الكشاف ١/٩٣

(٣) سورة البقرة ٢٠٣



أهل مكة يوم الرموس ، واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمى الجمار كما يفعل الناس اليوم ، وهو مذهب الشافعي . ويروى عن قتاده ، وعن أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر ( ومن تأخر ) حتى رمى في اليوم الثالث ، والرمي في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة وعند الشافعي لا يجوز<sup>(١)</sup> .  
 ٣ — وقال تعالى : « ويسألونك عن الحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في الحيض »<sup>(٢)</sup> .

بين الفقهاء خلاف في الاعتزال ، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار ، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج ، وروى محمد حديث عائشة رضي الله عنها أن عبد الله بن عمر سأها : هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض ؟ فقالت : تشد إزارها على سفرتها ، ثم ليباشرها إن شاء ، وماروى زيد بن أسلم أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما يحل لي من امرأتي وهي حائض ؟ قال : لتشدها عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها . ثم قال : وهذا قول أبي حنيفة ، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة ، قالت : يحتب شعار الدم وله ماسوى ذلك<sup>(٣)</sup> .

٤ — وقال تعالى : « والوالدات يُرضعن أولادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِصَ الرِّضَاعَةَ ، وعلى المولود له رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ... »<sup>(٤)</sup>  
 يجب على الأب إرضاع الولد دون الأم ، وعليه أن يتخذ له ظئرا ، إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه ، وهي مندوبة إلى ذلك ، ولا تجبر عليه ، ولا يجوز استئجارها عند أبي حنيفة ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح ، وعند الشافعي يجوز ، فإن انقضت عدتها جاز بالاتفاق<sup>(٥)</sup> .

٥ — وقال تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم »<sup>(٦)</sup> .

(١) الكشف ٩٧/١

(٢) سورة البقرة ٢٢٢

(٣) الكشف ١٠٢/١

(٤) سورة البقرة ٢٣٣

(٥) الكشف ١٠٩/١

(٦) سورة البقرة ٢٨٢

اطلبوا أن يشهد لكم شهيذان على الدين من رجال المؤمنين ، والحربة والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء ، وعن علي رضي الله عنه : لا تجوز شهادة العبد في شيء ، وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتي أنها جائزة . ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على اختلاف الملل<sup>(١)</sup> .

٦ — قال تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا<sup>(٢)</sup> » .

فسر رسول الله الاستطاعة بالزاد والراحلة ، وكذا عن ابن عباس وابن عمر ، وعليه أكثر العلماء ، وعن ابن الزبير هو على قدر القوة .

ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه ، وروى عنه أن ذلك على قدر الطاقة .

وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر ، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة .

وعن الضحاك إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع ، وقيل له في ذلك ، فقال إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ بل كان ينطلق إليه ، فكذلك يجب عليه الحج<sup>(٣)</sup> .

٧ — وقال تعالى :

«وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ»<sup>(٤)</sup> .

(١) الكشاف ١/١٢٩

(٢) سورة آل عمران ٩٧

(٣) الكشاف ١/١٥٦

(٤) سورة النساء ٦

الابتلاء عند أبي حنيفة وأصحابه أن يدفع إليه ما يتصرف فيه ، حتى يستبين حاله فيما يجيء منه .

والرشد التهدي إلى وجوه التصرف ، وعن ابن عباس الصلاح في العقل والحفظ للمال .

وعند مالك والشافعي الابتلاء أن يتبع أحواله وتصرفه في الأخذ والعطاء ، ويتبصر مخايله وميله إلى الدين ، والرشد الصلاح في الدين ، لأن الفسق مفسدة في المال .

فإن قلت : فإن لم يؤنس منه رشد إلى حد البلوغ ؟

قلت : عند أبي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة ، لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانى عشرة سنة ، فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة في تغير أحوال الإنسان لقوله عليه السلام « مروهم بالصلاة لسبع » دفع إليه ماله ، سواء أونس منه الرشد أو لم يؤنس . وعند أصحابه لا يدفع إليه إلا بإيناس الرشد<sup>(١)</sup> .

٨ — وقال تعالى : « لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ »<sup>(٢)</sup> .

ومعنى من أوسط ما تطعمون أهليكم من أقصده ، لأن منهم من يسرف في إطعام أهله ، ومنهم من يقتل . وهو عند أبي حنيفة رحمه الله نصف صاع من بر أو صاع من غيره لكل مسكين ، أو يغديهم ويعشيهم .

(١) الكشف ١/ ١٨٩

(٢) سورة البقرة ٢٢٥

وعند الشافعي رحمه الله مُدَّة لكل مسكين .

والكسوة ثوب يغطي العورة . وعن ابن عباس كانت العبادة تجزى يومئذ .

وعن ابن عمر إزار أو قميص أو رداء أو كساء . وعن مجاهد ثوب جامع . وعن الحسن ثوبان أبيضان .

وقد اشترط الشافعي في تحرير الرقبة أن يكون العبد مؤمناً قايماً على كفارة القتل .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة في كل كفارة سوى كفارة القتل ، واشترط أبو حنيفة في الصوم أن يكون متتابعاً ، تمسكاً بقراءة أبي وابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وعن مجاهد كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان ، ويخير في كفارة اليمين .

والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه ، ويجوز عند الشافعي بالمال إذا لم يعص الحانث <sup>(١)</sup> .

٩ — وقال تعالى : « إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا <sup>(٢)</sup> » . بعد عام تسع من الهجرة حين أُمِّرَ أبو بكر على الموسم ، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، ويدل عليه قول علي حين نادى ببراءة « ألا يحج بعد عامنا هذا مشرك » ، ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم .

وعند الشافعي يمنعون من دخول المسجد الحرام خاصة .

(١) الكشاف ٢٢٢/١

(٢) سورة التوبة ٢٨

وعند مالك يمنعون منه ومن غيره من المساجد .

وعن عطاء أن المراد بالمسجد الحرام الحرم ، وأنه على المسلمين ألا يتمكنوهم من دخوله .

ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه .  
وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ، ويعزلوا عن ذلك <sup>(١)</sup> .

١٠ — وقال تعالى : « الذين يُظاهرون منكم من نسائهم ما هنَّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعَفُوٌّ غَفُورٌ » <sup>(٢)</sup> .

فإن قلت : هل يصح الظهار بغير اللفظ ؟

قلت : نعم إذا وضع مكان ( أنت ) عضواً من الزوجة يعبر به عن الجملة ، كالرأس والوجه والرقبة والفرج ، أو وضع مكان ( ظهر ) عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالבطن والفخذ ، أو وضع مكان ( أمي ) ذات رحم محرم منه بسبب نسب أو رضاع أو صهر أو جماع ، نحو أنه يقول أنت على كظهر أختي من الرضاع ، أو عمتي من النسب ، أو امرأة ابني أو أبي أو أم امرأتى أو بنتها ، فهو ظاهر ، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه .

وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وغيرهم نحوه .

وقال الشافعي لا يكون الظهار إلا بالأم وحدها ، وهو قول قتادة والشعبي .

(١) الكشاف ١/٢٨٩

(٢) سورة المجادلة ٢

وعن الشعبي : لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخاللات  
إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالأمهات والوالدة دون المرضعات . وعن بعضهم  
لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهاراً<sup>(١)</sup> .

١١ — وقال تعالى : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن  
لعدتهن »<sup>(٢)</sup>

روى عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا  
يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى  
تنقضي العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أظهار .

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ،  
وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد ،  
فأما مفرقاً في الأظهار فلا ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال  
لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض : ما هكذا أمرك الله ، إنما السنة أن  
تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء تطليقة ، وروى أنه قال لعمر : مر ابنك  
فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ، ثم تطهر ، ثم ليطلقها إن شاء ، ففلك العدة  
التي أمر الله أن تطلق بها النساء .

وعند الشافعي رضى الله عنه لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال لا أعرف في عدد  
الطلاق سنة ولا بدعة ، وهو مباح . فمالك يراعى في طلاق السنة الواحدة  
والوقت ، وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت ، والشافعي يراعى الوقت والوحدة .

فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ .

(١) الكشف ٢/٤٤٠

(٢) سورة الطلاق ١

قلت : نعم وهو آثم ، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً طلق  
امراته ثلاثاً بين يديه ، فقال : أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ وفي حديث  
ابن عمر أنه قال يا رسول الله أرأيت لو طلقها ثلاثاً ؟ فقال له : إذن عصيت  
وبانت منك امرأتك . وعن عمر رضي الله عنه أنه كان لا يؤتي برجل طلق  
امراته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً ، وأجاز ذلك عليه . وعن سعيد بن المسيب وجماعة  
من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فأوقع في حيض أو ثلث لم يقع<sup>(١)</sup> .

# ثالثاً - قراءات

الزنجشري لفوى نحوى أديب ذواقة ، ولهذا أكثر من ذكر القراءات منسوبة إلى أصحابها في أكثر الأحيان ، وغير منسوبة في قليل من الأحيان ، وكان في الأغلب الأعم لا يعقب بشيء ، ولا يفضل قراءة على قراءة ، وأحياناً كان يعقب باختيار أروع القراءات تعبيراً ، وأبلغها معنى ، وأشبهها بنظم القرآن الكريم .

وهو يذكر مصحف عبد الله بن مسعود<sup>(١)</sup> ، ومصحف أبي<sup>(٢)</sup> ، ومصحف الحارث بن سويد صاحب عبد الله ، وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج<sup>(٣)</sup> ، ومصحف أهل الكوفة وأهل الحرمين والبصرة والشام<sup>(٤)</sup> ، ومصحف أهل العراق<sup>(٥)</sup> ، وعكرمة والأعرج وابن يعمر<sup>(٦)</sup> ، وبعض المصاحف<sup>(٧)</sup> ، كما يذكر روايات عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وزيد بن علي ونافع وابن جريج وحمزة والحسن وعمر بن عبيد وغيرهم .

---

(١) الكشاف ٥٥/١ ، ٥٩ ، ٢٦٣/٢ ، ٣٦٤

(٢) الكشاف ٩٤/١ و ٨٠/٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣

(٣) الكشاف ٣٨٧/١

(٤) الكشاف ٨٠/٢

(٥) الكشاف ٣٤١/٢

(٦) الكشاف ٥١٨/٢

(٧) الكشاف ٤٦٠/٢



من أمثلة ذلك ما ذكره في هذه الآيات :

١ — « وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ <sup>(١)</sup> » .

قرأ عبد الله « وَلَنْ تُسْأَلَ » وقرأ أبي « وَمَا تُسْأَلُ <sup>(٢)</sup> » .

٢ — « وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ <sup>(٣)</sup> » .

قرأ أبو حنيفة — وهى قراءة ابن عباس — « إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ » برفع إبراهيم ونصب ربه ، والمعنى أنه دعاه بكلمات من الدعاء <sup>(٤)</sup> .

٣ — « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ <sup>(٥)</sup> » .

قرأ ابن عباس : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوَّقُونَهُ <sup>(٦)</sup> » من الطَّوَّقِ أو من الطاقة أو القلادة أى يكلفونه ويقلدونه . وعن ابن عباس يطوقونه بمعنى يتكلفونه أو يتقلدونه ، وَيَطَوَّقُونَ يادغام التاء فى الطاء .

٤ — « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ <sup>(٧)</sup> » .

قرأ على وابن مسعود والشعبي : ( وَأَتِمُّوا الْحَجَّ ، وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ <sup>(٨)</sup> ) يرفع العمرة ، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب <sup>(٩)</sup> .

(١) سورة البقرة ١١٩

(٢) الكشاف ٧٢/١

(٣) سورة البقرة ١٢٤

(٤) الكشاف ٧٢/١

(٥) سورة البقرة ١٨٤

(٦) الكشاف ٨٨/١

(٧) سورة البقرة ١٩٦

(٨) الكشاف ٩٣/١

(٩) الكشاف ٩٣/١

٥ - «والوالداتُ مُرضِئَتُ أولادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرِّضَاعَةَ<sup>(١)</sup>» قرأ قتادة (حولين كاملين)<sup>(٢)</sup>.

٦ - «فَمِنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ»<sup>(٣)</sup>.

قرأ أبيّ والحسن «فَمِنْ جَاءَهُ»<sup>(٤)</sup>.

٧ - «هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ»<sup>(٥)</sup>.

قرأ طاوس «هُوَ الَّذِي تَصَوِّرُكُمْ» أي صَوَّرَكُمْ لنفسه.

٨ - «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ»<sup>(٦)</sup>.

قرأ أبي : «وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»<sup>(٧)</sup>.

٩ - «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ»<sup>(٨)</sup>.

قال : إن قائماً منصوب على الحال أو المدح ، وقرأ عبد الله «القائم بالقسط» على أنه بدل من هو أو خبر مبتدأ محذوف ، وقرأ أبو حنيفة «قائمًا بالقسط»<sup>(٩)</sup>.

١٠ - «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»<sup>(١٠)</sup>.

(١) سورة البقرة ٢٣٣

(٢) الكشاف ١٠٩/١

(٣) سورة البقرة ٢٧٥

(٤) الكشاف ١٢٧/١

(٥) سورة آل عمران ٦

(٦) سورة آل عمران ٧

(٧) الكشاف ١٣٥/١

(٨) سورة آل عمران ١٨

(٩) الكشاف ١٣٧/١

(١٠) سورة آل عمران ٢١

قرأ الحسن « يقتلون النبيين » وقرأ حمزة « ويقاتلون الذين بأمرهم » وقرأ عبد الله « وقاتلوا » وقرأ أبي « يقتلون النبيين والذين بأمرهم »<sup>(١)</sup>.

١١ — « قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا »<sup>(٢)</sup>.

قرأ يحيى بن وثاب إلا رمزا بضمين جمع رموز كرسول ورسول ، وقرأ رمزا بفتحين مثل خادم وخدم وهو حال منه ومن الناس كقوله :

مَنْ مَاتَ لَقِيَ فَرْدَيْنِ تَرْجُفُ رَوَافُ الْيَتِيكَ وَتُسْتَطَارَا

يعنى إلا مترامزين كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم<sup>(٣)</sup>.

١٢ — « أم لهم نصيب من الملك ، فإذا لا يؤتون الناس نقيرا »<sup>(٤)</sup>.

القراءة العامة على أن ( إذن ) ملغاة ، كأنه قيل فلا يؤتون الناس نقيرا إذن ، وقرأ ابن مسعود « فإذا لا يؤتوا الناس » على إعمال إذن<sup>(٥)</sup>.

١٣ — « سماعون للكذب كالمون للشعث »<sup>(٦)</sup> قرى السحت بالتخفيف

والتثقيب ، والسحت بفتح السين على لفظ المصدر من سحطة ، والسحت بفتحين والسحت بكسر السين<sup>(٧)</sup>.

(١) الكشاف ١/١٣٩

(٢) سورة آل عمران ٤١

(٣) الكشاف ١/١٤٤

(٤) سورة النساء ٥٣

(٥) الكشاف ١/٢٠٩

(٦) سورة المائدة ٤٢

(٧) الكشاف ١/٢٠٦

١٤ - « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ فِرْعَوْنَ وَمِنْهَا جَا »<sup>(١)</sup>.

الشرعة الشريعة ، وقرأ يحيى بن وثاب الشرعة بفتح الشين<sup>(٢)</sup>.

١٥ - « لَا يُوَاحِذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغْرِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُوَاحِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ »<sup>(٣)</sup> قرئ عَقَّدْتُمْ بالتخفيف وعَاقَدْتُمْ ، وقرأ جعفر بن محمد (أهاليكم) بسكون الياء والأهالي اسم جمع لأهل كالليالي في جمع ليلة ، والأراضي في جمع أرض ، وقولهم أهلون كقولهم أرضون بسكون الراء. أما تسكين الياء في حال النصب فالتخفيف ، كما قالوا رأيت لمعديكرب تشبها للياء بالألف. وقرئ (كُسُوتُهُمْ) بضم الكاف ونحوه قدوة في قدوة وأسوة في إسوة.

وقرأ سعيد بن المسيب واليماني (أو كَأُسُوتُهُمْ) بمعنى أو مثل ما تطعمون أهليكم إسرافاً أو تقتيراً ، وقرأ أبي وابن مسعود « فثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ »<sup>(٤)</sup>

١٦ - « لِيَكْفُرَ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا »<sup>(٥)</sup>.

قرئ أسواء الذي عملوا ، جمع سوء<sup>(٦)</sup>.

١٧ - « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ »<sup>(٧)</sup>.

في مصحف عبد الله بالظاء (بظنين) وفي مصحف أبي بالضاد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها ، وإتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب

(١) سورة المائدة ٤٨

(٢) الكشاف ٢٥٨/١

(٣) سورة المائدة ٨٩

(٤) الكشاف ٢٧٢/١

(٥) سورة الزمر ٣٥

(٦) الكشاف ٢٩٩/٢

(٧) سورة التكوين ٢٤

ومعرفة مخرجها لا بد منه للقارى\* ، فإن أكثر المعجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقا غير صواب . وبينهما بون بعيد ، فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره ، كان عمر بن الخطاب أضبط يعمل بكلتا يديه ، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه . وهى أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين ، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ، وهى أحد الأحرف الذوقية أخت الذال والطاء . ولو استوى الحرفان لما ثبتت فى هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب<sup>(١)</sup> .

وقد يفاضل بين القراءات ويختار إحداها .

١٨ — فى الآية الكريمة « وإنا لجميع حاذرون »<sup>(٢)</sup> ذكر أن بعضهم قرأ ( حذرون ) وبعضهم قرأ ( حادرون ) بالذال غير المعجمة ، وقال إن الحذر اليقظ ، والحاذر الذى يحدد حذره ، وقيل المتقوى بالسلاح إنما يفعل ذلك حذراً ، والحاذر السمين القوى قال :

أحب الصبي سوء من أجل أمه وأبيضه من بُفضها وهو حادر  
أراد أنهم أقوياء أشداء ، وقيل مدججون بالسلاح قد أكسبهم ذلك حدارة  
فى أجسامهم<sup>(٣)</sup>

١٩ — وعند تفسير قوله تعالى : « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء »<sup>(٤)</sup> قال : قرأ أنس بن مالك كشجرة طيبة ثابت أصلها فإن قلت أى فرق بين القراءتين ؟

(١) الكشف ٢/٢٨٥

(٢) سورة الشعراء ٦٠

(٣) الكشف ٢/١٢٤

(٤) سورة إبراهيم ٢٤

قلت قراءة الجماعة أقوى ، لأن في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة ، وإذا قلت مررت برجل أبوه قائم فهو أقوى معنى من قولك مررت برجل قائم أبوه ، لأن المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل<sup>(١)</sup> .

٢٠ — وفي تفسير قوله تعالى : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ »<sup>(٢)</sup>

ذكر أن ( كلمة ) قرئت بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية ، والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة<sup>(٣)</sup> .

٢١ — على أنه استبعد القراءات الشاذة وأنكرها ، فقال في تفسير قوله

تعالى : « أَفَلَمْ يَيَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا »<sup>(٤)</sup> .

أفلم ييأس أى أفلم يعلم ، قيل هي لغة قوم من النخع . . . . ويدل عليه أن عليو ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرأوا أفلم يتبين ، وهو تفسير أفلم ييأس .

وقيل إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السيئات ، وهذا ونحوه مما لا بصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتي الإمام — يريد المصحف الإمام — وكان متقلبا في أيدي أولئك الأعلام المحططين في دين الله ، المهتمين عليه ، لا يغفلون عن جلالته ودقائقه ، خصوصا عن القانون الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي عليها البناء ، وهذه والله فريضة ما فيها مزية<sup>(٥)</sup> .

(١) الكشاف ١/٤٠٤ .

(٢) سورة الكهف .

(٣) الكشاف ١/٦٣ .

(٤) سورة الرعد ٣١ .

(٥) الكشاف ١/٤٩٥ .

# رابعًا - آراء نحويّة

عرفنا أن الزمخشري ألف كتباً في النحو ، منها المفصل ، وكان كلّفا بالنحو بصيراً بدقائقه مثل كلّفه باللغة وبصره بها .

ولهذا تعرض كثيراً للإعراب في تفسيره ، فأعرب كلمات ، وأورد آراء النحاة في إعراب كلمات ، وناقش الأعراب ، واختار ما رآه أصح وأصوب ، وكثيراً ما كان يمثل بالنصوص الأدبية .

وهذه أمثلة من الآيات الكريمة التي عرض فيها للنحو :

١ - «شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ»<sup>(١)</sup>  
قال : إن قائماً منصوب على الحال من لفظ الجلالة ، فإن قلت : لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه ، ولو قلت جاءني زيد وعمروراً كبا لم يجوز ؟ قلت : إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز في قوله تعالى : «ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة»<sup>(٢)</sup> إن انتصب (نافلة) حالاً من يعقوب ، ولو قلت جاءني زيد وهند را كبا جاز ، لتمييز الحال بالذكورة ، ويجوز أن يكون (قائماً) منصوباً على المدح .

فإن قلت : أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة ، كقولك الحمد لله الحميد - بفتح الدال - وإنا معشر - بفتح الراء - الأنبياء لا نورث ؟

(١) سورة آل عمران ١٨

(٢) سورة الأنبياء ٩٢

قلت : قد جاء نكرة كاجاء معرفة ، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة  
قول الهذلي :

ويأوى إلى نسوة عَطِيلٍ وَشَفْنَا مراضيعَ مثلَ السَّعَالِي

فإن قلت : هل يجوز أن يكون صفة للمنفى ، كأنه قيل لا إله قائما بالقسط  
إلا هو ؟

قلت : لا يبعد ، فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف .  
فإن قلت : قد جعلته حالا من فاعل ( شهد ) فهل يصح أن ينتصب حالا  
من هو في ( لا إله إلا هو ) ؟

قلت : نعم لأنها حال مؤكدة ، والحال المؤكدة لا تستدعي أن يكون  
في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها ، كقولك أنا عبد الله شجاعا ،  
وكذلك لو قلت لا رجل إلا عبد الله شجاعا ، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل  
( شهد ) وكذلك انتصابه على المدح <sup>(١)</sup> .

٢ — « ذلکم الله فأنى تؤفکون ، فالتق الإصباح وجعل الليل سکنًا  
والشمس والقمر حنبانًا » <sup>(٢)</sup>

( الشمس والقمر ) قرئنا بالحركات الثلاث .

فالنصب على إضمار فعل دل عليه جاعل الليل ، أى وجعل الشمس والقمر  
حنبانًا ، أو يعطفان على محل الليل .

فإن قلت : كيف يكون الليل محل والإضافة حقيقية ، لأن اسم الفاعل  
المضاف إليه في معنى المضى ، ولا تقول زيد ضارب عمرو أمس ؟

(١) الكشف ١/١٣٧

(٢) سورة الأنعام ٩٥



قلت ما هو في معنى المضي ، وإنما هو دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة ، وكذلك فالتق الحب وفالتق الإصباح ، كما تقول الله قادر عالم ، فلا تقصد زمانا دون زمان .

والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر محمولان حسبانا أو محسوبان حسبانا ، ومعنى جعلهما حسبانا أن حساب الأوقات يعلم بدورانهما وسيرهما <sup>(١)</sup> .

٣ — « إن يشأ يسكن الريح فيظللن روا كد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبوا ، ويعنف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من تحصيل » <sup>(٢)</sup> .

فإن قلت : فما وجوه القراءات الثلاث في ( يعلم ) ؟

قلت أما الجزم فعلى ظاهر العطف ، وأما الرفع فعلى الاستئناف ، وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ، ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ، منه قوله تعالى : « ولنجعل آية للناس » <sup>(٣)</sup> ، وقوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت » <sup>(٤)</sup> .

وأما قول الزجاج : النصب على إضمار أن ، لأن قبلها جزاء ، تقول ما تصنع أصنع مثله وأكرمك ، وإن شئت وأكرمك ، على تقدير وأنا أكرمك ، وإن شئت وأكرمك جزما ففيه نظر ، لما أورده سيبويه في كتابه إذ قال :

(١) الكشاف ٣٠٢/١

(٢) سورة الشورى ٣٥

(٣) سورة مريم ٢١

(٤) سورة الجاثية ٢٢

واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله إن تأتني آتتك وأعطيتك ، ضعيف وهو نحو من قوله : وألحق بالحجاز فاستريحاً ، فهذا يجوز وليس بحمد الكلام ولا وجهه ، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً ، لأنه ليس بواجب أنه يفعل ، إلا أن يكون من الأول فعل ، فلما ضارع الذي لا يوجب كلاً استفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه .

ثم عقب الزمخشري بقوله : ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحمد الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أخل سيويه منها كتابه ، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشككة<sup>(١)</sup> .

٤ — «فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض»<sup>(٢)</sup> فهلا كان ، وقد حكوا عن الخليل أن كل «لولا» في القرآن معناها هلا إلا التي في سورة الصافات<sup>(٣)</sup> ، ولكن هذه الحكاية غير صحيحة ، لأن لولا وردت في سور أخرى وليس معناها هلا ، مثل قوله تعالى : «لولا أن تداركته نعمة من ربه لُبِدَّ بالعراء»<sup>(٤)</sup> . وقوله «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطهروهم»<sup>(٥)</sup> . وقوله : «ولولا أن ثبتناك لقد كذبت تركن إليهم شيئا قليلاً»<sup>(٦)</sup> .

٥ — «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابس»<sup>(٧)</sup> .

(١) الكشاف ٢/ ٣٤٢ (٢) سورة هود ١١٦ .

(٣) يريد قوله تعالى في شأن يونس : «وان يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فسأم فكان من المدحضر ، فالتقمه الحوت وهو لم يم ، فلولا أنه كان من المسبحين لبث في بطنه إلى يوم يبعثون » سورة يونس ١٣٩ — ١٤٤ .

(٤) سورة القلم ٤٩ (٥) سورة الفتح ٢٥

(٦) سورة الإسراء ٧٤ والكشاف ١/ ٤٥٦

(٧) سورة يوسف ٤٣

فإن قلت : هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للمُتَمَيِّز ، وهو بقرات دون المُمَيِّز وهو سبع ، وأن يقال بقرات سماناً ؟

قلت : إذا أوقعنا صفة لبقرات فقد قصدت إلى أن تميز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن .  
فإن قلت : هلا قيل سبع عجافٍ على الإضافة ؟ .

قلت : التمييز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده .

فإن قلت : فقد يقولون ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب ؟ .

قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها ، وجاز فيها ما لم يجوز في غيرها ، ألا تراك لا تقول عندي ثلاثة ضخامٍ وأربعة غلاظٍ .

فإن قلت : ذاك مما يشكل ، وما نحن بسبيله لا إشكال فيه ، ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف ، لوقوع العلم بأن المراد البقرات ؟ .

قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل ؛ وقد وقع الاستغناء بقولك سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف .

والعَجْفُ الهزال الذي ليس بعده ، والسبب في وقوع عجاف جمعاً لمجفأ مع أن أفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حملة على سمان ، لأنه نقيضه ، ومن رأيهم حل النظير على النظير والنقيض على النقيض<sup>(١)</sup> .

٦ — « هو الذي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً<sup>(٢)</sup> » .

(١) الكشف ٤٧٢/١

(٢) سورة الرعد ١٣

لا يصح أن يكون (خوفاً وطعاً) مفعولاً لها، لأنها ليسا بفعل فاعل  
الفعل الممثل إلا على تقدير حذف المضاف، أى إرادة خوف وطع، أو على معنى  
إخافة وإطعاماً.

ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق، كأنه في نفسه خوف وطع،  
أو على ذا خوف وذا طمع، أو من المخاطبين أى خائفين وطامعين<sup>(١)</sup>.

٧ — « لا أقسمُ بيومِ القيامةِ<sup>(٢)</sup> » .

إدخال ( لا ) النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم، قال  
امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

وقال غويّة بن سلمى :

ألا نادت أمامةً باحتمال لتحزنتى فلا بك ما أبالى

وفائدتها تأكيد القسم، وقالوا إنها صلة ( زائدة ) مثلها في (لثلا يعلم أهل  
الكتاب) وفي قوله :

في بئر لا حور سرى وما شعر<sup>(٣)</sup> .

واعترضوا عليه بأنها إنما تزداد في وسط الكلام لا في أوله، وأجابوا بأن  
القرآن في حكم سورة واحدة متصل ببعضه ببعض .

والاعتراض صحيح، لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام، ولكن  
الجواب غير شديد، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته؟  
والوجه أن يقال هي للنفي، والمعنى أنه لم يقسم بالشئ إلا إعظاماً له، يدلك عليه  
قول الله تعالى : « فلا أقسمُ بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم »

(١) الكشف ١/٩٠

(٢) سورة القيامة ١

(٣) قال ابن بعش في شرح الفصل ١٣٦/٨ إن المراد في بئر حور ولا مزيدة، كفا  
فسره أبو عبيدة، والمحور الهلكة .

فكانه بإدخال حرف النفي يقول إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام ، يعني أنه يستأهل فوق ذلك .

وقيل إن ( لا ) نفي لكلام ورد له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل لا ، أى ليس الأمر كما ذكرتم ، ثم قيل أقسم بيوم القيامة .

فإن قلت : قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون » ، والأبيات التي أنشدتها ، المقسم عليه فيها منفي ، فهلا زعمت أن ( لا ) التي قبل القسم زيدت موطنه للنفي ، ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف هاهنا منفيًا ، كقولك لا أقسم بيوم القيامة لا تتركون سدى ؟ .

قلت : لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساع ، ولكن لم يقصر ، ألا ترى كيف لقي لا أقسم بهذا البلد بقوله لقد خلقنا الإنسان في كبد ، وكذلك فلا أقسم بمواقع النجوم بقوله إنه لقرآن كريم .

وقرى ( لا أقسم ) على أن اللام للابتداء ، وأقسم خبر مبتدأ محذوف معناه لأننا أقسم ، قالوا وبعضه أنه في المصحف الإمام بغير ألف<sup>(١)</sup> .

# خامسًا - مسائل لغوية

من الطبيعي والمنحصرى لغوى أديب بصير بحقائق اللغة ومجازاتها أن يستعين بعلمه وذوقه على تجلية بعض الدلالات الدقيقة للكلمات ، وأن يناقش سابقه ومعاصريه فى بعض الكلمات .

١ - قال فى تفسير قوله تعالى : « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »<sup>(١)</sup> .

معنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العمود إذا قومه .

أو الدوام عليها والمحافظة عليها ، كما قال عز وعلا : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » . والذين هم على صلواتهم يحافظون » من قامت السوق إذا نفقت ، لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذى تتوجه إليه الرغبات ، ويتنافس فيه المحصلون ، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشيء الكاسد الذى لا يرغب فيه . أو التجلد والتشمر لأدائها ، وألا يكون فى مؤديها فتور عنها ولا توان ، من قولهم قام بالأمر وقامت الحرب على ساقها ، وفى ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه إذا تقاعس وتلبط .

أو أدؤها ، فعبر عن الأداء بالإقامة ، لأن القيام بعض أركانها ، كما عبر عنه بالقنوت ، والقنوت القيام ، وبالركوع وبالسجود ، وقالوا سبح إذا صلى ، لوجود التسبيح فيها<sup>(٢)</sup>

(١) سورة البقرة ٣

(٢) الكشاف ١ / ١٧

٢ — وقال في تفسير قوله تعالى : « ذَهَبَ اللَّهُ بنورهم »<sup>(١)</sup>

الفرق بين أذهبه وذهب به أن معنى أذهبه أزاله وجعله ذاهباً ، ويقال ذهب به إذا اصطحبه ومضى به معه ، وذهب السلطان بماله أخذه ، ومنه ذهبت به الخيلاء ، والمعنى أخذ الله نورهم وأمسكه وما يمسك الله فلا مرسل له ، فهذا أبلغ من الإذهاب ، وقرأ اليماني أذهب الله نورهم<sup>(٢)</sup> .

٣ — وقال في تفسير قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »<sup>(٣)</sup> .

النَّدُّ المثل ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوئ ، قال جرير :

أَتِيماً تَجْمَعُونَ إِلَى نِدًّا وَمَا تَيْمُّ لَدَى حَسْبِ نَدِيدٍ

وناددت الرجل خالفته ونافرته ومعنى قولهم : ليس لله ند ولا ضد تعنى ما يسد مسده ونفى ما ينافيه<sup>(٤)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »<sup>(٥)</sup> .

فمن تعجل عَجِلَ فِي النَّفَرِ أو استعجل النفر ، وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عَجِلَ ، يقال تعجل في الأمر واستعجل ، ويجيئان متعديين ، يقال تعجل الذهاب واستعجله . والمطاوعة أوفق ، لقوله « ومن تأخر » كما هي كذلك في قول الشاعر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل  
لأجل المتأني<sup>(٦)</sup> .

(١) سورة البقرة ١٧

(٢) الكشاف ١ / ٣١

(٣) سورة البقرة ٢٢

(٤) الكشاف ١ / ٣٨

(٥) سورة البقرة ٢٠٣

(٦) الكشاف ١ / ٩٧

٥ - وقال في تفسير قوله تعالى : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلمكم تهتدون <sup>(١)</sup> » .

قال : الكتاب والفرقان يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل ، يعني التوراة ، كذلك رأيت الغيث والليث ، تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة ، ونحوه قوله تعالى : « لقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين <sup>(٢)</sup> » يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياءً وذكراً ، أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام .

وقيل الفرقان انفراق البحر ، وقيل النصر الذي فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى : « يوم الفرقان <sup>(٣)</sup> » يريد به يوم بدر <sup>(٤)</sup> .

٦ - وقال في تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين <sup>(٥)</sup> » .

أذلة جمع ذليل ، وأما ذلول فجمعه ذلل ، ومن زعم أنه من الذل الذي هو نقيض الصعوبة فقد غبي عنه أن ذلولاً لا يجمع على أذلة . فإن قلت : هلا قيل : أذلة للمؤمنين أعززة على الكافرين ؟

قلت : فيه وجهان :

- 
- (١) سورة البقرة ٥٣
  - (٢) سورة الأنبياء ١٤٨
  - (٣) سورة الأنفال ٤١
  - (٤) الكشاف ١ / ٥٥
  - (٥) سورة المائدة ٥٤



أحدهما أن يَضْمَنَ الدَّلَّ معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذليل والتواضع .

والثانى أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ونحوه قوله تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » <sup>(١)</sup> .

٧ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » <sup>(٢)</sup> .

أى أكاد أخفيها فلا أقول هى آتية لفرط إرادتى إخفاءها ، ولولا ما فى الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به .

وقيل معناه أكاد أخفيها من نفسى ، ولا دليل فى الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطروح ، والذي غرم منه أن فى مصحف أبى أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهر كم عليها ؟

وعن أبى الدرداء وسعيد بن جبیر ( أخفيها ) بفتح المهملة من خفاء إذا أظهره ، أى قرب إظهارها ، كقوله تعالى : « اقتربت الساعة » <sup>(٣)</sup> وقد جاء فى بعض اللغات أخفاء بمعنى خفاء ، وبه فسر بيت امرئ القيس :

فإن تدفيتوا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

فأكاد أخفيها تحتمل المعنيين <sup>(٤)</sup> .

وقال فى الأساس : خَفِيَ الشئ واختفى واستخفى تشتر ، وهو يخفى

(١) سورة الفتح ٢٩ والكشاف ١ / ٢٦٢

(٢) سورة طه ١٥

(٣) سورة القمر ١

(٤) الكشاف ٢ / ٢١

صوته، وَاخْفَى الشَّيْءُ الْخَفَى واختفاه أخرجه، يقال خفيتُ العوزة من تحت التراب، واختنى النباش الكفن<sup>(١)</sup>.

٨ — وقال في تفسير قوله تعالى: « وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَاسِيْلًا »<sup>(٢)</sup>.

سميت العين زنجبيلًا لطعم الزنجبيل فيها، والعرب تستلذه وتستطيعه.  
قال الأعشى:

كَأَنَّ الْقُرْنَفَلَ وَالزَّجْبِيلَ  
لِ بَاتَانِ فِيهَا وَأَرْيَا مَشُورَا  
وقال المسيب بن علس:

وَكُنْتُ طَعَمَ الزَّجْبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلَاقَةً الْخَمْرِ  
و (سلسيلا) لسلاسة انحدارها في الحلق، وسهولة مساغها، يعني أنها في طعم الزنجبيل، وليس فيها لذعة، ولكن تقيض للذع وهو السلاسة. يقال شراب سَلْسَل وسلسال وسلسبيل. وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية، ودلت على غاية السلاسة. قال الزجاج: السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة. وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب أن معناه سل سبيلا، وهذا غير مستقيم على ظاهره، إلا أن يراد أن علة قول القائل ( سل سبيلا ) جعلت علما للعين، كما قيل تأبط شرا، وسميت بذلك لأنه لا يشرب إليها إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح<sup>(٣)</sup> وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع، وعزوه إلى مثل علي رضي الله عنه أبداع.

(١) أساس البلاغة مادة خفى

(٢) سورة الإنسان ١٧

(٣) الكشاف ١٢/٢

٩ — وقال في تفسير الآية الكريمة : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَبَاجًا ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا » <sup>(١)</sup> .

المعصرات: السحاب إذا أعصرت أى شارفت أن تعصرها الرياح فتطر، كقولك أجزّ الزرع إذا حان له أن يُجَزَّ، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تميض . وذكر في الأساس أن السحابة أعصرت واستدل بالآية .

ثباجا : منصبا بكثرة ، يقال ثَجَّ ثَجَّةً وَثَجَّ بنفسه ، وفي الحديث أفضل الحج السجّ والثَّجُّ ، أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى ، وكان ابن عباس مِثْجًا يسيل غربا ، يعنى يَشْجُ الكلام ثَجًّا فى خطبته .

ألفافا : ملتفة ، ولا واحد له كالأوزاع والأضياف ، وقيل الواحد رَاف ، وقال صاحب الإقليد : أنشدنى الحسن بن على الطوسى :

جَنَّةٌ رَافٌ وَعِيشٌ مُغْدِقٌ وَنَدَامَى كُلِّهِمْ بَيْضٌ زُهُرٌ  
وزعم ابن قتيبة أن المفرد لقاء والجمع رَافٌ ثم ألفاف ، وما أظنه واجدا له نظيرا من نحو خضر وأخضر وحر وأحمر . ولوقيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولا وجيها <sup>(٢)</sup> .

١٠ — وفي الآية الكريمة : « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا » <sup>(٣)</sup>

أى تكذبا ، وفعَّال فى باب فَعَّلَ كَلَهُ فاش فى كلام فصحاء العرب ، لا يقولون غيره . وسمى بعضهم أفسر آية فقال : لقد فسرتها فسَّارًا ماسم بمثله <sup>(٤)</sup> .

(١) سورة النبأ ١٤ — ١٦

(٢) الكشاف ٢ / ١٨٠

(٣) سورة النبأ ٢٨

(٤) الكشاف ٢ / ١٩٠

# سَادِسًا - نِصُوصٌ شِعْرِيَّةٌ

استن الزمخشري نهج ابن عباس والطبري وغيرهما في الاستشهاد بالشعر والاستدلال به على تفسير معاني الكلمات ، فقد روى ابن عباس أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتكلم بكلام بئس ، فقال النبي إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكما . وكان ابن عباس يُسأل عن الشيء من القرآن ، فيقول : فيه كذا وكذا ، أما سمعت الشاعر يقول كذا كذا . وقال عكرمة : ما سمعت ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل إلا تزع فيها بيتا من الشعر . وكان يقول : إذا أعيأكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب <sup>(١)</sup> .

أما الطبري فكثيرا ما اعتمد على الشعر في بيان المعنى المراد من الكلمة ، تارة يذكر اسم الشاعر ، وتارة يذكر النص مجردا من الاسم .

وفي رأي الزمخشري ورأي سابقيه أن الإسلام لم يحرم الشعر كله ، بل حرم ما يخالف العقيدة ، وينافي الخلق الكريم . ولهذا قال في تفسير قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، وَلِيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ <sup>(٢)</sup> » .

إن الله استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلا

(١) مقدمة شرح التبريزي للحماسة ٣/١

(٢) سورة الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٦

القرآن ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعرا قالوا في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصلحاء الأمة، ومالاً بأس به من المعاني ، لا يتلطفون فيها بذنب، ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة ، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم ، قال الله تعالى : « لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » <sup>(١)</sup> وذلك غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب ، لقوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » <sup>(٢)</sup>. وعن عمرو بن عبيد أن رجلاً من العلوية قال له إن صدرى ليجيش بالشعر ، فقال : فما يمنعك منه مما لا بأس به ؟ .

والقول فيه أن الشعر باب من الكلام ، يفسنه بحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام . وقيل المراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير ، والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافحون هجاء قريش . وعن كعب بن مالك أن النبي قال له : اهجهم ، فوالذي نفسي بيده لموا أشد عليهم من النبل ، وكان يقول لحسان : قل وروح القدس معك <sup>(٣)</sup> .

ولهذا استشهد بالشعر في الكشف عن دلالات كثيرة من الألفاظ ، ولم يقتيد بعصر ولا بصفة خاصة في الشاعر .

١ - في تفسير قوله تعالى : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » <sup>(٤)</sup> .

(١) سورة النساء ١٤٨

(٢) سورة البقرة ١٩٤

(٣) الكشاف ١٣٥/٢

(٤) سورة النساء ٢٤

قال إن المراد ما ملكت أيما نكم من اللاني سُبِينَ ولهن أزواج في دار الكفر، فهن جلال لفقراء المسلمين وإن كن محصنات ، وفي معناه قول الفرزدق :

وذا تِ حَلِيلٍ أنكحتها رماحنا حلالٌ لمن يَبْنِي بها لم تُطْلَقْ<sup>(١)</sup>

٢ — وفي تفسير قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كلَّ بَنان »<sup>(٢)</sup>. قال إن المراد أعالي الأعناق التي هي المذايح ، لأنها مفاصل ، وكان إيقاع الضرب فيها حزاً وتطهيراً للرءوس .

وقيل أراد الرءوس ، لأنها فوق الأعناق ، يعني ضرب الهام ، قال الشاعر :  
وأضرب هامة البطل المشيح .

وقال آخر .

غَشِيَّتْهُ وهو في جأواءٍ باسلةٍ عَضْباً أصاب سواء الرأس فانفلقا  
والبنان الأصابع ، يريد الأطراف ، والمعنى فاضربوا المفاصل والشوى<sup>(٣)</sup>.

٣ — وقال في تفسير قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العُسرة »<sup>(٤)</sup> : إن ساعة العسرة وقتها ، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الغداة والعشية واليوم . قال الشاعر :

وكنا حسبنا كلَّ بيضاء شَحْمَةً عَشِيَّةً قارَعْنَا جُذامَ وخيراً

(١) الكشاف ١٩٩/١

(٢) سورة الأفعال ١٢

(٣) الكشاف ٣٦٨/١

(٤) سورة التوبة ١١٧

وقال آخر :

إذا جاء يوما وارثي يبتغي الفنى      يحْدُجُجَمَ كفَ غير ملأى ولا صُفْر<sup>(١)</sup>  
والعسرة حالهم في غزوة تبوك<sup>(٢)</sup>.

٤ — ويستشهد بيت لأبي نواس عند تفسيره قوله تعالى :

« إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين »<sup>(٣)</sup>.

فيقول : فيه وجهان : أحدهما أنه كان وحده أمة من الأمم ، لكماله في جميع صفات الخير ، كقول الشاعر :

وليس لله بمستنكر      أن يجمع العالم في واحد<sup>(٤)</sup>.

ومعلوم أن البيت لأبي نواس كما في ديوانه وفي أوضح المسالك لابن هشام في باب أداة التعريف .

وإذا كان لم يصرح باسم أبي نواس في هذا البيت ، فقد صرح باسمه مرات أخرى ، كما نجد عند تفسير قوله تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء »<sup>(٥)</sup>.

إذ يقول : ومعنى تزيين الفعل والإضلال واحد ، وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدى عليه المصالح حتى طاعة الهوى ، فيرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً ، ويقع تحت قول أبي نواس :

اسقني حتى تراني      حسنا عندي القبيح<sup>(٦)</sup>

(١) يد صفر بتثنية الصاد : خالية

(٢) الكشاف ١/٤١٠

(٣) سورة النحل ١٢٠

(٤) الكشاف ١/٥٣٨

(٥) سورة فاطر ٨

(٦) الكشاف ٢/٢٣٩

٥ — ويستشهد بقول الشاعر :

وكأس شربت على لغة [ وأخرى تداويت منها بها ]

عند تفسير قوله تعالى : « يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ »<sup>(١)</sup>  
ويذكر أنه يقال للزجاجة فيها الخمر كأس ، ونسب الخمر كأساً<sup>(٢)</sup> .

٦ — ويستشهد بقول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عَفِيلَةَ مال الفاحش المتشدد<sup>(٣)</sup>

عند تفسير قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ »<sup>(٤)</sup> .

ليوضح أن الشديد هو البخل المسك<sup>(٥)</sup> .

٧ — واستشهد بشعره وإن لم يصرح بأنه له .

فمعد تفسيره لقوله تعالى : « إِنْ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيُ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا يَفُوضُهَا فَوْقَهَا »<sup>(٦)</sup> .

ذكر هذه الأبيات على أنها لبعضهم :

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النُّعْل

اغفر لعبد تاب من فرطانه ما كان منه في الزمان الأول

وهذه الأبيات له ، كما يتبين من ديوانه<sup>(٧)</sup> .

وعند تفسير قوله تعالى : « وَلَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا »<sup>(٨)</sup> .

ذكر هذا البيت على أنه لبعض المجاورين :

فمن يلق في بعض القرى رحاله فأم القرى ملقى رحالي ومنتباني<sup>(٩)</sup>

(١) سورة الصافات ٤٥

(٢) الكشاف ٢٦٢/٢

(٣) يعتام : يختار

(٤) سورة العاديات ٨

(٥) الكشاف ٥٥٧/٢

(٦) سورة البقرة ٢٦

(٧) ديوان الزمخصري ٩٦

(٨) سورة الأنعام ٩٢

(٩) الديوان ٥ والكشاف ٣٠٣/١



# سَابِعًا - بلاغة ونقد

تمهيد

سارع المعتزلة إلى دراسة اللغة والأدب والعلوم الدينية والفلسفة والمنطق ، لأن مكانتهم المذهبية أملت عليهم أن يحيطوا باللغة وأدبها ، ليتخيروا التعبير الجيد الملائم للفكرة ، وليتفهموا النصوص ، ويفوصوا إلى أسرارها ، ولأنهم كانوا يعدون أنفسهم للانتصار في الجدل الدائر بينهم وبين اليهود والنصارى ، وبينهم وبين مخالفيهم من المسلمين ، وفي هؤلاء وأولئك أصحاب لسان وأصحاب فلسفة .

لهذا كثر في المعتزلة البلغاء والفلاسفة ، فكان منهم أساتذة المناظرة ، وأعلام الجدل ، وجهابذة الكتابة والخطابة ، ورواد البلاغة ، وكانوا يروون الشعر ويقرضونه ، وكان بشر بن المعتز أرواه له <sup>(١)</sup> ، وله قصيدة من أربعين ألف بيت ضمنها نقضه لأراء مخالفيه ، وشهد الجاحظ أنه لم ير أحدا استطاع من النظم الخمس والمزدوج ما استطاعه بشر <sup>(٢)</sup> ، وله قصيدتان أخريان <sup>(٣)</sup> .

كذلك كان الجاحظ حفاظة للشعر ، كثير الاستدلال به في مؤلفاته كلها ، وكان يستطيع نظمه .

ولهم في وضع أصول البلاغة سبق لا ينكر ، منذ كتب بشر بن المعتز وصيته للأدباء <sup>(٤)</sup> ، ومنذ كتب الجاحظ فصولا في البلاغة منشورة في كتبه وبخاصة البيان والتبيين .

(١) الحيوان ٤٠٥/٦ (٢) النية والأمل ٣٠

(٣) الحيوان ٢٨٤/٦ - ٢٩٧

(٤) البيان والتبيين ١٣٥/١

ولهذا ازدهى الجاحظ ببلاغة المعتزلة في قوله: <sup>(١)</sup> «فإن عبر الخطيب عن شيء من صناعة الكلام، واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحسن، وبها أشغف؛ لأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطالحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا: العرض والجوهر، وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهدية والهوية والماهية <sup>(٢)</sup> وأشباه ذلك».

ولقد عني المعتزلة بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي، فلجاحظ ( المتوفى سنة ٨٢٥٥ ) كتاب فيه سماه ( نظم القرآن ) لم يصل إلينا، ولعل بن عيسى الرماني ( ٣٨٤ ) رسالة سماها ( النكت في إعجاز القرآن ) <sup>(٣)</sup> تناولت سبعة أسباب لإعجازه منها: البلاغة، والعجز عن المعارضة، والتحدى للكافة.

ثم ألف أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي قاضي قضاة الدولة البويهية (٨٤١٥) <sup>(٤)</sup> كتابه ( المغنى في أبواب التوحيد والعدل ) <sup>(٥)</sup> تناول في الجزء السادس عشر منه إعجاز القرآن، فأرجعه إلى فصاحة الأسلوب.

ثم جاء الزمخشري فطبق في تفسيره آراء المعتزلة والأشعرية <sup>(٦)</sup> إذ درس

(١) البيان والتبيين ١/١٣٩

(٢) الهدية نسبة إلى هذا، والهوية نسبة إلى هو، والماهية نسبة إلى ما هو

(٣) معجم الأدباء ٧٣/١٤ وطبعت الرسالة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

(٤) طبقات الشافعية ٣/١١٤

(٥) تنويره وزارة الثقافة والإرشاد القومي

(٦) ألف الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه إعجاز القرآن بين فيه وجوه الإعجاز التي يعتقد أنها من أشعرة وردتها إلى أسباب منها الناحية البلاغية المتصلة بالنظم أو التعبير، وقد طبع كتابه مرات.

ما ألفه سابقوه ، وتأثر بما كتبه عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) في كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) .

وكان من آثار هذا أنه عني بعلوم البلاغة ، وبخاصة المعاني والبيان ، وكشف عن كثير من ألوانهما في الآيات القرآنية ، وجلا أسرار ما فيها من روعة وجمال ، ليبين سر الإعجاز .

وقد نبه على هذه النزعة في مقدمة الكشف ، فقال : إن طبقات العلماء تتساوى وتتداني في متن كل علم وعمود كل صناعة ، ولكنهم يتباينون ويتفاضلون في إدراك ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت ، ولطائف المعاني ، وغوامض الأسرار .

ثم قال إن علم التفسير حافل بما يغمر القرائح ، ويهر الألباب ، من غرائب النكت ودقائق الأسرار ، ولهذا لا يستطيع أن يجيل النظر فيه كل ذي علم ، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن ، فالفقيه وإن برز على الأقوان في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، والواعظ الخلاب ، والنحوي المدقق ، واللغوي المتعمق ، لا يتصدى أحد منهم لسلوك تلك الطرائق ، إلا إذا كان بارعا في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، متمهلا في ارتيادها والتنقيب عنهما ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، كثير التحقيق والحفظ<sup>(١)</sup> .. إلخ .

وتلاحظ أنه فرق بين علمي البيان والمعاني في قوله<sup>(٢)</sup> : « لا يتصدى منهم

(١) المقدمة ٣

(٢) أطلق ابن المتزوقدامة بن جعفر وأبو هلال العسكري وابن رشيق كلة البديع على مباحث علم البيان ، فخطوا من البديع الاستعارة والجاز والكناية والتعريض ، وهم لا يريدون علم البديع ، بل يريدون الطريف الجميل . وكذا عبد القاهر في أسرار البلاغة إذ قال في صفحة ١٣ «وأما التطبيق (الطباق) والاستعارة وسائر أقسام البديع ... إلخ

أحد سلوك تلك الطرائق . . . إلا رجل قد برع في عطين مختصين بالقرآن ،  
وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتعمل في ازتيادهما آونة ، وتعب في التنقير عنهما أزمدة ،  
وذكر هذه التفرقة في مقدمة كتابه ( أعجب العجب في شرح لامية  
العرب ) وفي مقدمة كتابه ( أساس البلاغة )<sup>(١)</sup> .

والحق أن عبد القاهر الجرجاني كان يريد بالنظم علم المعاني أى الأسلوب ،  
وكان قد ردد في كتابه أسرار البلاغة كلمة البيان ، فجاء الزمخشري وأطلق علم  
المعاني وعلم البيان على ما يطلقان عليه اليوم ، وبهذا فصل العلمين بعضهما عن  
بعض .

أما علم البديع فهو في رأى الزمخشري تابع للمعاني والبيان ، وليس علما  
قائما بذاته .

وقد تأثر السكاكي (٥٦٢٦هـ) برأى الزمخشري ، ففصله ودلل عليه ، وفضله  
على غيره من الآراء<sup>(٢)</sup> فقال : إن السبب في الإعجاز هو ما يجده أصحاب الذوق  
من أن وجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا  
الأمر إلا طول خدمة هذين العلمين — المعاني والبيان — بعد فضل إلمى من  
هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له .  
ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه ، فلكم سبحانه

(١) أما قوله بعد تفسير الآية الكريمة ( أولئك الذين أشنوا الضلالة بالهدى ) هذا من  
الصنعة البديعية التى تبلغ بالحجاز الدروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق الحجاز ، ثم تنق بأشكال  
لها وأخوات ، وهو المجاز المرشح (الكشاف ٢٩/١) فإنه لا يريد بالصنعة البديعية علم البديع  
كما فهم بعض الدارسين .

(٢) أرجع الرمانى وجوه الإعجاز إلى سبعة : الأول ترك المعارضة مع توافر الدوامى  
وشدة الحاجة ، والثانى التحدى للكافة ، والثالث الصرفة ، والرابع البلاغة ، والخامس الأنباء  
المصادقة عن الأمور المستقبلية ، والسادس نقض العادة ، والسابع قياس القرآن بكل معجزة [النكت  
في إعجاز القرآن] وردها بالافلانى إلى ثلاثة الإباء بالأمور الخفية ، والقصص الدينية وأخبار  
الأنبياء ، والناحى البلاغية المتصلة بالنظم (إعجاز القرآن)

الذيل في إنكاره، ثم ضممنا الذيل ما إن نكره، فله الشكر على جزيل ما أولى، وله الحمد في الآخرة والأولى<sup>(١)</sup>.

وقال : ولا سبيل إلى إدراك هذه البلاغة وهذا الإعجاز إلا بالذوق والتشبع من علمي البيان والمعاني، وإمالة اللسان عن الأسرار البلاغية لجلائها، أما نفس وجه الإعجاز فلا يدرك<sup>(٢)</sup>.

ثم تأثر به يحيى بن حمزة العلوي (٧٤٩ هـ) فقال في مقدمة كتابه ( الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ) : إن الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من الإخوان شرعوا في قراءة كتاب الكشف تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري، فإنه أسسه على قواعد هذا العلم، فأتضح عند ذلك وجه الإعجاز من التزويل، وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه والوقوف على أسرار وأغواره، ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير، لأنني لم أعلم تفسيرا مؤسسا على المعاني والبيان سواء، فسألني بعضهم أن أملئ فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق، فالتهديب يرجع إلى اللفظ، والتحقيق يرجع إلى المعاني، إذ كان لامندوحة لأحدهما عن الثاني<sup>(٣)</sup>.

وبحسب الزمخشري من التقدير أن ابن خلدون أرجع تفوق المشاركة على المغاربة في الدراسات البلاغية إلى أن المشرق أوفر عمرا من المغرب، وإلى عناية المعجم — وهم معظم أهل المشرق — بعلوم البلاغة وبخاصة المعاني والبيان، كما صنع الزمخشري في تفسيره لأنه كله مبني على البلاغة، وهو أصل لها.

(١) مفتاح العلوم ٢٤٣

(٢) مفتاح العلوم ١٩٦

(٣) الطراز ٥/١

ثم قال: واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن . . .  
وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه، حتى ظهر الزمخشري ووضع كتابه في التفسير،  
وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن، بما يبدى البعض من إعجازه، فانفرد بهذا  
الفضل على جميع التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن  
بوجوه البلاغة، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة، مع وفور بضاعته  
من البلاغة<sup>(١)</sup>.

أما بعد فقد عرض الزمخشري لمسائل بلاغية كثيرة في توضيح وتفصيل وتجلية  
لأسرار الجلال، وتنظير آيات قرآنية أخرى، وتمثيل بنصوص من الشعر البليغ  
والنثر الرائع.

ولست أريد استقصاء ما عرض له، بل أريد التمثيل ببعضه، فمنه ما يتصل  
بعلم البيان، ومنه ما يتصل بعلم المعاني.

## (١) في علم البيان

### ١ - التشبيه

عرض للتشبيه المفرد في آيات كثيرة، منها قوله في تفسير الآية الكريمة:  
«إنها ترمي بشررٍ كالقصر كأنه جمالة صفر»<sup>(٢)</sup>: إنها ترمي بشرر عظيم  
كالقصور أو كالشجر الغليظ أو مثل القصر - على وزن سبب - وهي أعناق  
الإبل أو أعناق النخل، كأنه جمال تضرب إلى الصفرة.  
وفي شعر عمران بن حطان الخارجي:

دعهم بأعلى صوتها ورمثهم بمثل الجمال الصفر نزع الشوى

وقال أبو العلاء :

حراء ساطعة الذوائب في الدُّجَى ترمى بكل شرارة كطراف  
فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحرمة، وكأنه قصد بمخبئه أن يزيد  
على تشبيهه لقرآن، ولتبيحه توهم الزيادة، فجاء في صدر بيته بقوله حراء، توطئة  
لها، ومناداة عليها، وتنبيهاً للسامعين على مكانها. ولقد عني — جمع الله له عني  
الدارين — عن قوله عز وعلا ( كأنه جمالة صفر ) فإنه بمنزلة قوله ( كبيت  
أحمر ) على أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيهاً من جهتين : من جهة  
العظم، ومن جهة الطول في الهواء، وفي التشبيه بالجمال تشبيه من ثلاث جهات :  
من جهة العظم والطول والصفرة، فأبعد الله إغرابه في طرافه، وما نفخ به شذقيه  
من استطرافه<sup>(١)</sup>.

ولست أجد مبرراً لهذه الحملة العنيفة على المعري، لأنه شبه الشرارة الكبيرة  
بالخيمة، والقرآن الكريم شبه الشرر بالجمال أو بالشجر الغليظ أو بأعناق الإبل  
أو بجذوع النخل، وسواء أكان تشبيه المعري جيداً أم غير جيد، فإنه لم يدع أن  
تشبيهه يسامى تشبيه القرآن الكريم، ولا يستطيع أحد أن يدعى له ذلك.

## ٢ — تشبيه التمثيل :

عرض له في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فارتبحت  
بمآرتهم »، وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ، فلما أضاءت  
ما حوله ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عني  
فهم لا يسمعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون  
أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين<sup>(٢)</sup>.

فقال : الصحيح الذى عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة ، لا يتكلف لواحد واحد شيء يقدر شبهه به ، وهو القول الفحل والمذهب الجزل .

وبيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض لم يأخذ هذا بحجرة ذاك ، فتشبهها بنظائر<sup>(١)</sup>ها ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها ، كقوله تعالى « مثل الذين حُمِّلُوا التوراة ثم لم ينحمِلوها كمثل الحمار يحمل أسفارا »<sup>(٢)</sup> الفرض تشبيه حال اليهود فى جهلها بمامعها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار فى جهله بما يحمل من أسفار الحكمة ، وتساوى الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ماسواها من الأوقار ، لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفتيه - بجانبه - من الكد والتعب .

وكقوله تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح »<sup>(٣)</sup> المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر .

فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد ، غير منوط بعضها ببعض ، ومُصَيَّرًا شيئا واحدا . . فلا ، فكذلك لما وصف وقوع المنافقين فى ضلالهم ، وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة ، شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت نلره بعد إيقادها فى ظلمة الليل ، وكذلك من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

وذكر بعد ذلك أن التشبيه يحىء بأداه وبغير أداة .

(١) هذا هو التشبيه المتعدد

(٢) سورة الجمعة •

(٣) سورة الكهف •



وفي تعليقه على الآيات نفسها ما يدل على أن التشبيه التمثيل ينطبق أيضا على تشبيه حال بحال، وهو ما سماه التمثيل<sup>(١)</sup> أو ضرب المثل ، لأن المثل يشمل الحال والصفة والقصة ، فإنه قال في تفسير « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » :  
لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميا للبيان .  
ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالحقى في إبراز خبيثات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك التخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبي ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله ، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »<sup>(٢)</sup>

والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظير ، يقال مثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه<sup>(٣)</sup> .

فإن قلت : ما معنى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ؟ وما مثل المنافقين ؟ ومثل الذي استوقد نارا حتى شبه أحد المثلين بصاحبه ؟

قلت : قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام ، للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، كأنه قيل : حالهم المعجبية الشأن كحال الذي استوقد نارا ، وكذلك قوله تعالى « مثل الجنة التي وعد المتقون »<sup>(٤)</sup> .

أى وفيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة المعجبية، ثم أخذ في بيان عجائبها.

(١) ذكر في شرحه لمقاماته صفحة ١٥٦ أن الذى يسمى تمثيلا فهو قوله تعالى (سنسبه على الخرطوم) مثلت حاله في الذل والهانة بحال الموسوم على أعز موضع منه

(٢) سورة النكبات ٤٣

(٣) الكشاف ٣٠/١ — ٣٣

(٤) سورة الرعد ٣٥

وقال في تفسير قوله تعالى: «يوم نقول لجهنم هل امتلأت . . . وتقول هل من مزيد ؟» (١) :

إن سؤال جهنم وجوابها من باب التخيل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته، وفيه معنيان : أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها ، حتى لا يسمعها شيء ، ولا يزداد على امتلائها ؛ لقوله تعالى : « لأملاّن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (٢)

والثاني أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد (٣) . وقد فرق السكاكي بين التشبيه والتمثيل ، ورأى أن التمثيل هو ما كان وجهه وصفاً غير حقيقى ومنزعا من عدة أمور (٤) .

### ٣ - الاستعارة

عرض للاستعارة، فقال في تفسير الآية الكريمة : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » : إن الضلالة الجور عن القصد ، وفقد الاهتداء ، استعير للذهاب عن القصد في الدين (٥) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ثم جعلناكم فخلاّف في الأرض من بعدكم ، لتنظر كيف تعملون » (٦) :

أى استخلفناكم في الأرض بعد القرون التى أهلكناها ، لتنظر أتعلمون

(١) سورة ق ٣٠

(٢) سورة السجدة ١٣

(٣) الكهاف ٢/٤٠٥

(٤) مفتاح العلوم ١٨٥

(٥) الكهاف ١/٢٩

(٦) سورة يونس ١٤

خيراً أم شراً ، ففعلنا ملككم على حسب أحوالكم ، والنظر هنا مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشئ الموجود ، شبه بنظر الناظر وعيان المعين في تحققه .

ويتضح من تعليقه على الآية الكريمة : «مُمِّكُمْ عَمَى فِهِمْ لَا يَبْصُرُونَ» أنه لا يطلو الاستعارة إلا على ما يصح أن تطلق عليه ، فلا بد فيها من حذف المشبه أو المشبه به ، لأنه يفترض سائلاً يسأل : هل يسمى ما في الآية استعارة ؟ .

ويجيب على هذا بأن الحكم يختلف فيه ، ولكن المحققين على تسمية ما في الآية تشبيهاً بليغاً لاستعارة ، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون ، والاستعارة إنما تطلب حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام خلوا عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه أو المنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام ، كقول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح يقذف به لبدّ أظفاره لم تُقَلِّم  
وليس لقاتل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ ، فأتسلق بذلك إلى تسميته استعارة ، لأنه في حكم المنطوق به ، نظيره قول من يخاطب الحجاج :  
أسد على وفي الحروب نمامة فتخاء تنفر من صغير الصافر

وعرض للاستعارة المكنية في قوله تعالى : «وما يضلُّ به إلا الفاسقين الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ»<sup>(١)</sup> فقال : النقض الفسخ وفك التركيب ، فإن قلت من أين ساغ استعماله في إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين . . . ومن أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشئ المستعار ثم يرمزوا إليه .

بذكر شيء من روادفه ، فنبهوا بتلك الرزمة على مكانه ، ونحوه قولك  
شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يفترق منه الناس ، لم تقل هذا إلا وقد نهت على  
الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر<sup>(١)</sup> .

وتنبه إلى الترشيح في الاستعارة في تعقيبه على قوله تعالى : « أولئك الذين  
اشتروا الضلالة بالهدى » فقال : إن قلت هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع  
مجازاً في معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة ، كأن ثم مباينة على  
الحقيقة ؟

قلنا : إن هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن  
تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقف بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً  
أحسن منه ديباجة وأكثر ماء وروثاً ، وهو المجاز المرشح . وذلك نحو قول  
العرب في البليد : كأن أذنى قلبه خطلاوان — مسترخيتان — جعلوه كالخمار ،  
ثم رشحوا ذلك روما لتحقيق البلادة ، فادعوا لقلبه أذنين ، أو ادعوا لهما الخطل  
— الاسترخاء — ليمثلاوا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الخمار شاهدة معاينة . . .  
فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكلة ويواخيه وما يكمل ويتم  
بانضمامه إليه ؛ تمثيلاً لخسارهم وتصويراً لحقيقته<sup>(٢)</sup> .

كذلك عقب على الآية الكريمة : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما  
أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » بأن النار يصح أن تكون مجازية كنار  
الفتنة والعداوة للإسلام ، ويصح أن تكون ناراً حقيقية أوقدها الفؤاد ليعوصلوا  
بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي ، فأطفأها الله . وجاز في النار المجازية أن  
توصف بإضاءة ما حول المستوقد على طريقة المجاز المرشح ، فأحسن تدبره<sup>(٣)</sup> .

(١) الكشاف ٤٨/١

(٢) الكشاف ٢٩/١

(٣) الكشاف ٣١/١

وقد تأثره السكاكي في شرحه الاستعارة في قوله تعالى: « فأذاقها الله لباس  
الجوع والخوف بما كانوا يصفون<sup>(١)</sup> » وراد عليه أن الكلام يحتمل أن  
يكون على الحقيقة<sup>(٢)</sup>.

#### ٤ — الكناية

ذكر الكناية ، و فرق بينها وبين التعريض<sup>(٣)</sup> ، فالكناية في رأيه أن  
تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طوبى النجاة والحائل  
لطوبى القامة .

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، ويسمى التلويح ،  
لأنه يلوح منه ما يريد<sup>(٤)</sup> .

قال في تفسير الآية الكريمة : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة  
النساء أو كنتم في أنفسكم »<sup>(٥)</sup> : هو أن يقول لها : إنك جميلة ، أو صالحة ،  
أو نافعة ، ومن غرضي أن أتزوج ، وعسى الله أن يسر لي امرأة صالحة ...  
ولا يصرح بالنكاح ... فإن قلت : أى فرق بين الكناية والتعريض ؟

قلت : الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طوبى  
النجاة والحائل لطوبى القامة ، وكثير الرماد للمضياف .

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، كما يقول المحتاج  
للمحتاج إليه : جئت لك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا :

---

(١) سورة النمل ١١٢ والكشاف ٥٣٧/١

(٢) مفتاح العلوم ٢٠١

(٣) جمل الزمخشري كل نوع من هذه مستقلاً عن الآخر، على حين أن السكاكي أدخل في

الكناية التعريض والتلويح والإيحاء (مفتاح العلوم ٢١٨)

(٤) الكشاف ١١١/١

(٥) سورة البقرة ٢٣٥

وحسبك بالتسليم مني تقاضياً .

وكأنه إمالة الكلام إلى عُرْض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح ، لأنه يلوح منه ما يريد<sup>(١)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى »<sup>(٢)</sup> :

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جطوه كناية عن الملك ، فقالوا استوى فلان على العرش ، يريدون مَلَك ، وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته مَلَك في مؤداه ، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر<sup>(٣)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ، يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ »<sup>(٤)</sup> .

غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ، ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَجْمَلْ بِدُكِّ مَغْلُولَةٍ إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ »<sup>(٥)</sup> : ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط ، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه ، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة ، حتى إنه يستعمله في ملك لا يعطى عطاء قط ، ولا يمنعه إلا بإشارته ، من غير استعمال يده وبسطها وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ، لأن

(١) الكشف ١١١/١

(٢) سورة طه هـ

(٣) الكشف ٢٠/٢

(٤) سورة المائدة ٦٤

(٥) سورة الإسراء ٢٩

بسط اليد وقبضها عبارتان وقتاً متعاقبتين للبخل والجود، وقد استعملوها حيث لا تصح اليد كقوله:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداء قلاعه ووهاده

ولقد جعل ليبد للشمال يداً فقال: إذا أصبحت بيد الشمال زمامها.

ويقال بسط اليأس كفيه في صدرى، فجعلت لليأس الذى هو من المعانى لا من الأعيان كفين. ومن لم ينظر في علم البيان عجز عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية<sup>(١)</sup>

وقال في تفسير قوله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»<sup>(٢)</sup>: «هذا مجاز، والمراد قرب علمه منه، وأنه يتعلق بأحواله تعليقاً لا يخفى عليه فيه شيء من خفياته، فكان ذاته قريبة منه، كما يقال الله في كل مكان، وقد جل عن الأمكنة»<sup>(٣)</sup>.

وقال في تفسير الآية الكريمة: «إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان: ما لها؟ يومئذ تحدث أخبارها، بأن ربك أوحى لها»<sup>(٤)</sup>: «فإن قلت ما معنى تحدث الأرض والإيحاء لها؟

قلت: هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال، فيعلم لم زلزلت، ولم لفظت الأموات، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه.

وقيل ينطقها على الحقيقة، وتخبر عما عمل عليها من خير وشر»<sup>(٥)</sup>.

وقال في تفسير الآية الكريمة: «قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين»<sup>(٦)</sup>:

(١) الكشاف ٢٦٤/١	(٢) سورة في ١٦
(٣) الكشاف ٤٠٢/٢	(٤) سورة الزلزلة ١ —
(٥) الكشاف ٥٥٦/٢	(٦) سورة يوسف ٤٤

أضغاث الأحلام تخالطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفسي  
أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث ما جمع بين أخلاط النبات وحزمه ،  
والواحد ضِفْث ، فاستعيرت لذلك <sup>(١)</sup> .

وقال في الأساس : الضفث القبضة من قضبان صفار أو حشيش بعضه في  
بعض ، وضمته جعله أضغاثاً . ومن المجاز : هذه أضغاث أحلام ، وهي ما التبس  
منها ، ويقال للحالم : أضفث الرؤيا : جثت بها ملتبسة ، وضمفث الحديث :  
خلطه <sup>(٢)</sup> .

## ٥ - المجاز المرسل

هو كل كلمة استعملت في غير معناها الأصلي بعلاقة غير المشابهة مع قرينة  
مانعة من إرادة المعنى الأصلي ، ومن علاقاته السببية والسببية والجزئية والكلية  
والحالية والحالية واعتبار ما كان واعتبار ما سيكون . وقد عرض الزمخشري  
له في كثير من الآيات .

قال في تفسير قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها ، لتجزى كل  
نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » <sup>(٣)</sup> .  
فلن قلت : العبارة لنهى من لا يؤمن عن صد موسى ، والمقصود نهى  
موسى عن التكذيب بالبعث ، أو أمره بالتصديق ، فكيف صلحت هذه العبارة  
لأداء المقصود ؟

قلت : فيه وجهان أحدهما أن في صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب ،  
فذكر السبب ليدل على السبب ، والثاني أن صد الكافر سبب عن رخاوة لرجل

(١) الكشاف ١/٧٣ . (٢) أساس البلاغة : مادة ضفث

(٣) سورة طه ١٥ - ١٦



في الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب ، كقولهم لا أرينك  
ها هنا ، المراد نهيه عن مشاهدته ، والحضور بمجلسه ، وذلك سبب رؤيته إياه ،  
فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب ، كأنه قيل فكن شديد الشكيمة حتى  
لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أن يطمع في صدك عما أنت عليه<sup>(١)</sup> .

وقال في تفسير الآية الكريمة: « كل شيء هالك إلا وجهه<sup>(٢)</sup> » :

كل شيء هالك إلا إياه ، والوجه يعبر به عن الذات<sup>(٣)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى: « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال

والإكرام<sup>(٤)</sup> » : المراد بالوجه الذات ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ، ومساكين

مكة يقولون: أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان<sup>(٥)</sup> .

## ٦ - المجاز العقلي

هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له ، لعلاقة مع قرينة مانعة من  
إرادة الإسناد الحقيقي وهو يكون إلى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره  
أو إسناد المبنى للفاعل إلى المفعول أو المبنى للمفعول إلى الفاعل . وقد اعتمد  
الزمخشري على هذا المجاز كثيراً في تأويل الآيات المتصلة بحرية العباد واختيارهم  
وفقاً للمذهب المعتزلة .

فقال في الآية الكريمة : « يُضِلُّ به كثيراً ويَهْدِي به كثيراً<sup>(٦)</sup> » : إن  
إسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب ، لأنه لما ضرب المثل  
فَضَّلَ به قوم واهتدى قوم تسبب لضلالتهم وهداهم ، وعن مالك بن دينار رحمه  
الله أنه دخل على محبوس قد أخذ بمال عليه وقيد ، فقال : يا أبا يحيى أما ترى  
ما نحن فيه من القيود ؟ فرفع مالك رأسه ، فرأى سلة ، فقال : لمن هذه السلة ؟

(١) الكشاف ٢٢/٢

(٢) سورة القصص ٨٨

(٣) الكشاف ١٧٣/٢

(٤) سورة الرحمن ٢٧

(٥) الكشاف ٤٢٥/٢

(٦) سورة البقرة ٢٦

فقال الرجل : لى . فأمر بها تنزل ، فإذا دجاج وأخبيصة<sup>(١)</sup> ، فقال مالك : هذه وضعت القيود على رجلك<sup>(٢)</sup> .

وقال فى تفسير قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » ، وما كانوا مهتدين<sup>(٣)</sup> » أسند الخسران إلى التجارة ، وهو لأصحابها على طريقة الإسناد المجازى ، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له ، كما تلبست التجارة لمشتريه .

فإن قلت : هل يصح ربح عبدك وخسرت جاريك إلى الإسناد المجازى ؟ قلت : نعم إذا دلت الحال ، وكذلك الشرط فى صحة رأيت أسدا ، وأنت تريد المقدام ، إن لم تقم حال دالة لم يصح .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى . وما تفيض الأرحام وما تزداد » ، وكل شيء عنده بمقدار<sup>(٤)</sup> .

(١) فى الأفعال الثلاثة : إما موصولة ، وإما مصدرية ، فإن كانت موصولة فالعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد على أى حال من ذكورة وأنوثة . . . . . ويعلم ما تفيضه الأرحام ، أى تنقصه ، يقال غاض الماء ، وغضت أنا ، ويعلم ما تزداده أى تأخذه زائدا ، ومنه قوله تعالى : « وازدادوا تسعا »<sup>(٥)</sup> .

وإن كانت مصدرية فالعنى أنه يعلم حمل كل أنثى ، ويعلم غيض الأرحام وازديادها ويجوز أن يراد غيض مافى الأرحام وزيادته ، فأسند الفعل إلى الأرحام ، وهو لما فيها<sup>(٦)</sup> .

(١) أخبيصة : جمع خبيص وهو المصول من السن والتمر .

(٢) الكشاف ٤٧/١ (٣) سورة البقرة ١٦

(٤) سورة الرعد ٨ (٥) سورة الكهف ٢٥

(٦) الكشاف ١٨٩/١

(٢)

## في علم المعاني

تناول كثيرا من موضوعات علم المعاني ، مثل :

### ١ - القصر

قال في تفسيره لقوله تعالى: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون . . ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون »<sup>(١)</sup>.

إنما القصر الحكم على شيء ، كقولك إنما ينطلق زيد ، أو قصر الشيء على حكم كقولك إنما زيد كاتب ، ومعنى « إنما نحن مصلحون » أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قدح فيها<sup>(٢)</sup>.

وقد رد الله عليهم أبلغ رد في قوله: «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» لما في ألا من التأكيد ، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل — الضير هم — .

وقال في تفسير قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين »<sup>(٣)</sup> . قدم المفعول لقصد الاختصاص ، كقوله تعالى : « قل أفغیر الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون »<sup>(٤)</sup> : والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة .

وقال في تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »<sup>(٥)</sup> . اختص هداهم بالاعتداء ، أي لا تهتد إلا بهم ، وهذا معنى تقديم المفعول ، والمراد بهداهم طريقهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة<sup>(٦)</sup>.

(٢) الكشاف ٢٦/١

(٤) سورة الزمر ٣٩

(٦) الكشاف ٣٠٠/١

(١) سورة البقرة ١١ — ١٢

(٣) سورة الفاتحة ٤

(٥) سورة الأنعام ٩٠

- وقال في تفسير قوله تعالى: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ»<sup>(١)</sup>،  
تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى  
إلى قوله: «إلى ربك يومئذ المستقر»<sup>(٢)</sup>،  
و: «إلى ربك يومئذ المساق»<sup>(٣)</sup>،  
و: «إلى الله تصير الأمور»<sup>(٤)</sup>،  
و: «إلى الله المصير»<sup>(٥)</sup>،  
و: «إلى الله ترجعون»<sup>(٦)</sup>،  
و: «عليه توكلت وإليه أنيب»<sup>(٧)</sup>،  
كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص<sup>(٨)</sup>.

## ٢ - الفصل والوصل

عرض لها<sup>(٩)</sup>، فقال في تفسير قوله تعالى: «المّ ذلك الكتاب لا ريب فيه  
هُدًى للمتقين»<sup>(١٠)</sup> الذي هو أرسخ في البلاغة عرقاً أن يضرب عن هذه الحال  
صفحة — يريد الحال النحوية — وأن يقال إن قوله (الم) جملة برأسها أو طائفة من  
حروف المعجم مستقلة بنفسها، و: «ذلك الكتاب» جملة ثانية، و«لا ريب فيه»

- |   |                     |
|---|---------------------|
| (١) سورة القيامة ٢٢                                     | (٢) سورة القيامة ١٢ |
| (٣) سورة القيامة ٣٠                                     | (٤) سورة الشورى ٥٢  |
| (٥) سورة النور ٤٢                                       | (٦) سورة القصص ٧٠   |
| (٧) سورة هود ٨٨   | (٨) الكفاف ٩/٢      |
| (٩) اعتبرهما من علم البيان كما صرح بذلك في الكفاف ١٠٢/١ |                     |
| (١٠) سورة البقرة ١                                      |                     |

ثالثة ، و « هدى للمتقين » رابعة . وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقه هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متأخية آخذا بعضها بعنق بعض <sup>(١)</sup> . . .

وقال فى تفسير الآية الكريمة : « قالوا إنا معكم ، إنما نحن مُستهزئون » <sup>(٢)</sup> :

الجملة الثانية تأكيد للأولى ، لأن قولهم (إنا معكم) معناه الثبوت على اليهودية ، وقولهم (إنما نحن مُستهزئون) رد للإسلام ودفع له ، لأن المستهزئ بالشئ المستخف به منكر له ، أو بدل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر ، أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم إنا معكم ، فقالوا : فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام ؟ فقالوا : إنما نحن مُستهزئون <sup>(٣)</sup> .

فالفصل هنا سببه أن الجملة الثانية مؤكدة للأولى ، أو بدل منها ، أو استئناف ، أو بيان لها ، أو جواب عن سؤال مقدر ، وهذه الأسباب هى التى يسميها علماء البلاغة الفصل لكمال الاتصال أو لشبه كمال الاتصال .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » <sup>(٤)</sup> :

فإن قلت « والذين يؤمنون » أم غير الأولين ؟ أم هم الأولون ؟ وإنما وسط العاطف ، كما يوسط بين الصفات فى قولك هو الشجاع والجراد وفى قوله :

إلى الملك القريم وابن الهمام      ولئت الكتيبة فى المزدحم

(١) الكشف ١/٢٦

(٢) الكشف ١/٢٨

(٣) سورة البقرة ١٥

(٤) سورة البقرة ٢ — ٤

قلت : يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه ، ويحتمل أن يراد وصف الأولين ، ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه <sup>(١)</sup> .

### ٣ - التوكيد

قال في تفسير قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » <sup>(٢)</sup> .

فإن قلت : لم قيل « إنا إليكم مرسلون » أولاً و « وإنا إليكم لمرسلون » ؟  
آخر ؟ قلت : لأن الأول ابتداء إخبار ، والثاني جواب عن إنكار ، وقوله « ربنا يعلم » جار مجرى القسم في التوكيد <sup>(٣)</sup> .

والمعروف في علم المعاني أن الخبر إن كان لخالي الذهن لا يؤكد ، فإن كان لشاك أكد بمؤكد واحد ، فإن كان لمفكر أكد بمؤكدين أو أكثر .

فهل أراد الزمخشري بالخبر الأول أنه لخالي الذهن ؟ لا ، لأن المرسل إليهم كانوا في شك من صدق الرسل ، ولكنه أراد بقوله إن الأول ابتداء إخبار أى بالنسبة لهؤلاء الشاكين .

### ٤ - التقديم التأخير

قال في تفسير الآية الكريمة : « قل أغير الله أتخذ ولياً » <sup>(١)</sup> .

(١) الكشاف ١٨/١

(٢) سورة يس ١٣ - ١٦

(٣) الكشاف ٢٤٩/٢

(٤) سورة الأنعام ٩

إن «غير الله» وليت همزة الاستفهام دون الفعل (أتمخذ) لأن الإنكار في اتحاد غير الله وليا ، لا في اتخاذ الولي ، فكان أولى بالتقديم <sup>(١)</sup>

ونحوه: «أفغير الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلون» <sup>(٢)</sup>

فالتقديم هنا للاهتمام بنفي المقدم :

وقال في قوله تعالى: «ذلك الكتاب لا ريب فيه» <sup>(٣)</sup> : لم يقدم الظرف على الريب كما قدم على القول في قوله تعالى: «لا فيها غول» ، ولا هم عنها ينزفون <sup>(٤)</sup> . لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي نفي الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعون ، ولو جاء الظرف بعد حرف النفي لبعد النفي عن المراد ، وهو أن كتابا آخر فيه الريب لا هذا الكتاب ، كما قصد في قوله «لا فيها غول» تفصيل خبر الجنة على خور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي ، كأنه قيل ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة <sup>(٥)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى: «وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله» <sup>(٦)</sup> : إن الفرق بين ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعهم ، وبين التظلم الذي جاء عليه أن في تقدم الخبر على المبتدأ دليلا على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعتها إياهم ، وفي تصوير ضميرهم اسما لأن ، وإسناد الجملة إليه ، دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالون معها بأحد يتعرض لهم ، وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم <sup>(٧)</sup> .

(١) الكشاف ٢٨٥/١

(٢) سورة الزمر ٣٩

(٣) سورة الصافات ٤٧

(٤) سورة الحجر ٣٠

(٥) سورة البقرة ٢

(٦) الكشاف ١٥/١

(٧) الكشاف ٤٤٥/٢

## ٥ — الحذف

قال في تفسير قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون <sup>(١)</sup> » :

إن مفعول تعلمون متروك، كأنه قيل وأنتم من أهل العلم والمعرفة، والتوبيخ فيه أوكد، أى أنتم العرافون، المميزون، ثم إن ما أنتم عليه في أمر دياتكم من جعل الأصنام لله أنداداً هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل. ويجوز أن يقدر وأنتم تعلمون أنه لا يماثل، أو وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، أو أنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله، كقوله: « هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء <sup>(٢)</sup> ».

وقال في تفسير قوله تعالى « والضحى والليل إذا سجدى، ما ودعك ربك وما قلى <sup>(٣)</sup> » :

حذف الضمير من قلى كحذفه من « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات <sup>(٤)</sup> ». يريد والذاكراته، ونحوه فأوى، فهدى، فأغنى، وهو اختصار لفظى لظهور المحذوف <sup>(٥)</sup>.

## ٦ — الالتفات

عرض للالتفات <sup>(٦)</sup>، فقال في الآية الكريمة: « إياك نعبد وإياك نستعين » فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ؟

(١) سورة البقرة ٢٢ (٢) الكشاف ٣٨/١

(٣) سورة الضحى ١ (٤) سورة الاحزاب ٣٣

(٥) الكشاف ٤٤٩/٢

(٦) اعتبر الالتفات من علم البيان واعتبره البلاغيون بعده من علم اللطائف



قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: «حق إذا كنتم في الفلك وجرين بهم»<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه»<sup>(٢)</sup>.

وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة التفاتات في ثلاثة أبيات:

تطاول إليك بالأثمدِ ونسام الخلى ولم ترقدِ  
وبات وباتت له ليلة كلية ذي العائر الأرمد<sup>(٣)</sup>  
وذلك من نبأ جاني وخبرته عن بني الأسود

وذلك على عادة افتنائهم في الكلام، وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن نظرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد. وقد نخص مواقفه بفوائد، وبما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة به في المهمات، فحطبت ذلك العلوم، المتميز بتلك الصفات، فقبل إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك، ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به<sup>(٤)</sup>.

وبما يدل على تأثر السكاكي بالزحشرى أنه عرف الالتفات بأنه نقل الكلام من الحكاية والتكلم والخطاب والغيبة إلى واحد منها، وقال إن العرب يستكثرون منه، ويرون أن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب

(١) سورة يونس ٢٢ (٢) سورة فاطر ٩

(٣) العائر: كل ما أمرض العين والرمد والبثر والجفن الأسفل.

(٤) الكشاف ٨/١

أدخل في القبول عند السامع، وأحسن نظرية للنشاطه، وأملأ في استدرار إصفائه،  
وهم أحرأء بذلك... ثم ذكر عدة أمثلة ختمها بأبيات امرئ القيس الثلاثة  
التي ذكرها الزمخشري.

ثم عقب بما يقطع بأنه نقل عن الزمخشري إذ قال: وهذا النوع قد تختص  
مواقفه بلطائف معان قلما تتضح إلا لأفراد بلفظهم، أو للعذاق المهرة في هذا  
الفن، ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورواق، وأورث  
السامع زيادة هزة ونشاط... أصغ إلى قوله تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين»  
بعد تلاوتك لما قبله، لتعلم ما موقعه، وكيف أصاب المحز، وطبق مفصل البلاغة،  
لكونه منها على أن العبد للنعم عليه بتلك النعم العظام الفائقة للحصر إذا قدر  
أنه مائل بين يدي موليه، من حقه إذا أخذ في القراءة أن تكون قراءته على وجه  
يجد معها نفسه شبه محرك إلى الإقبال على من يحمد<sup>(١)</sup>.

## ٧ - التعبير بالمضارع عن الماضي

قال في تفسير قوله تعالى: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا، فسقناه  
إلى بلد ميث، فأحيينا به الأرض بعد موتها، كذلك النشور»<sup>(٢)</sup>.

فلن قلت لم جاء «فتثير» على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟

قلت: ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر  
تلك للصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه تميز  
وخصوصية بحال تستغرب أو تهتم المخاطب أو غير ذلك، كما قال تأبط شرا:

بأنى قد لقيت الفول تهوى بسهب كالصعيفة صمصحان<sup>(٣)</sup>

(١) مفتاح العلوم ١٠٧.

(٢) سورة فاطر ٩.

(٣) الفول: حيوان خراش. سهب: فلاة. صمصحان: أرض مستوية.

فَأَضْرِبْهَا بِلَا دَهْشٍ فَفَرَّتْ صَرْبًا لِلْيَدَيْنِ وَالْجِرَانِ<sup>(١)</sup>

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب القول ، كأنه يصرم إياها ، ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة قيل ( فسقناه ) ( وأحيينا ) معدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه<sup>(٢)</sup> .

وقد نقل المكاكي مقاله الزمخشري تعقيباً على هذه الآية<sup>(٣)</sup> .

## ٨ - التعبير بالماضي عن المستقبل

قال في تفسير الآية الكريمة : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ<sup>(٤)</sup> » : إنهم كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم ، فقيل لهم « أتى أمر الله » الذي هو بمنزلة الآتي الواقع ، وإن كان منتظراً لقرب وقوعه<sup>(٥)</sup> . وقال في الآية الكريمة : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ<sup>(٦)</sup> » : إنه عبر بالماضي لنسكته ، وهي الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته ، وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به ، والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون<sup>(٧)</sup> .

(٢) الكشاف ٢/٢٣٩

(٤) سورة النمل ١

(١) الجران : مقدم منق البعير

(٣) مفتاح العلوم ١٣٣

(٥) الكشاف ١/١٩٥

(٦) سورة النمل ٨٧

(٧) الكشاف ٢/١٥٣

## ٩ - الجملة الاسمية والفعلية

ذكر أن الجملة الاسمية والفعلية تدل على الدوام والاستمرار، والجملة الفعلية تدل على التجدد .

قال في تفسير الآية الكريمة: « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا »<sup>(١)</sup> : إن الجزء الثاني من الآية وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه الجزء الأول ، لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية ، والسبب في محيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين ، وَعَلَيْهِمْ قَبْضُ آبَاؤِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَعَلَى الدِّينِ الْجَاهِلِي ، فأريد حسم أطاعهم وأطاع الناس فيهم أن ينفعوا آباؤهم في الآخرة ، وأن يشفعوا لهم ، وأن يغفوا عنهم من الله شيئا ، فلذلك جاء به في الطريق الآكد<sup>(٢)</sup> .

وقال في تفسير الآية الكريمة: « وإذا خلَوْا إِلَى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم<sup>(٣)</sup> » :

فإن قلت : فهلا قيل : الله مستهزئ بهم طبقا لقوله إنما نحن مستهزئون ؟ قلت : لأن يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت ، وهكذا كانت نكبات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم<sup>(٤)</sup> .

(١) سورة لقمان ٣٣

(٢) الكشاف ١٩٩/٢

(٣) سورة البقرة ١٥

(٤) الكشاف ٢٨/١

(٣)

## في علم البديع

### ١ - الجناس:

قال في تفسير قوله تعالى : « وجئتكم من سبأً نبياً يقين »<sup>(١)</sup> : إن هذا من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ ، بشرط أن يحى مطبوعاً ، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى وسداده .

ولقد جاء لها هنا زائداً على الصيغة ، فحسن وبدع لفظاً ومعنى . ألا ترى أنه لو وضع مكان ( نبياً ) مخبر لكان المعنى صحيحاً ، ولكنه كما جاء أصح ، لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الخلال<sup>(٢)</sup> .

وقال في تفسير الآية الكريمة « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي »<sup>(٣)</sup> . إن علماء البيان استفصحو هذه الآية ، ورتقوا لها رؤوسهم ، لا لتجانس الكلمتين وهما ابلعي وأقلعي ، وذلك وإن كان لا يخلو الكلام من حسن فهو كثير الملتفت إليه بإزاء المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور ، وقد بين محاسن الآية<sup>(٤)</sup> .

### ٢ - الطباق :

في الآية الكريمة : « ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون »<sup>(٥)</sup> ذكر السفه وهو الجهل ، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له<sup>(٦)</sup> .

(٢) الكشاف ٢/١٤٢

(٤) الكشاف ١/٤٤١

(٦) الكشاف ١/٢٧

(١) سورة النمل ٢٢

(٣) سورة هود ٤٤

(٥) سورة البقرة ١٣

### ٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم :

قال في تفسير قوله تعالى : « وما نَقَمُوا منهم إلا أن يُؤْمِنُوا بالله العزيز الحميد »<sup>(١)</sup> :

وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان ، كقوله :

ولا غيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقال ابن الرقيات :

وما نَقَمُوا من بنى أمية إلا أنهم يحملون إن غضبوا<sup>(٢)</sup>

### ٤ - اللف والنثر :

هو ذكر متعدي على التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد هذا المتعدد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كل شيء إلى ما هو له ، معتداً على قرينة لفظية أو معنوية .

ذكر عند تفسير قوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون<sup>(٣)</sup> :

إن قوله تعالى ( لتكملوا ) علة الأمر بمراعاة العدة ، و ( لتكبروا ) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ، و ( لعلكم تشكرون ) علة الترخيص والتيسير ، وقال إن هذا نوع من اللف لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدى إلى تبيينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان<sup>(٤)</sup>

(١) سورة البروج ٨

(٢) الكشاف ٢/٥٣٥

(٣) سورة البقرة ١٨٥

(٤) الكشاف ١/٨٩

## • - المشاكلة

هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، نحو قول الشاعر .  
 قالوا اقترح شيئاً نُجِدُ لك طبعه قلت اطبخوا لي جُبَّةً وقيصاً  
 أي خيطوا ، وذكر خياطة الجبة بلفظ الطبخ لوقوعها في صحبة طبخ  
 الطعام . ومنه قوله تعالى : « تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ » حيث أطلق  
 النفس على ذات الله تعالى ، لوقوعه في صحبة نفسي .  
 وقد ذكر الزمخشري في تفسيره للآية الكريمة : « إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَعِي أَنْ  
 يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » <sup>(١)</sup> أنه يجوز أن يقول الكفرة :  
 أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ؟ فجاءت على سبيل  
 المقابلة ، وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع ، وطراز  
 هجيب ، منه قول أبي تمام :

مَنْ مَبْلَغُ أَفْنَاءِ يَضْرِبُ كَلَهَا أَنِي بَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ

وشهد رجل عند شريح فقال : إنك لسبب الشهادة ، فقال الرجل : إنما لم  
 تَجْعَدْ عَنِّي : فقال له بلادك ، وقبل شهادته . قالذي سوغ بناء الجار ، وتجميد الشهادة  
 هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سبوة الشهادة  
 لا تمتنع بتجميدها . والله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد  
 تستغرب منها فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم منهاجه ، وأسد مدارجه <sup>(٢)</sup> .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي  
 نَفْسِكَ » <sup>(٣)</sup> :

(١) سورة البقرة ٢٦

(٢) الكشف ٤٥/١

(٣) سورة المائدة ١١٦

المعنى تعلم معلومى ، ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق  
المشاكلة ، وهو من فصيح الكلام وبينه<sup>(١)</sup> .

وقد نقل كلام الزمخشري بهاء الدين السبكي في كتابه ( عروس الأفراح  
في شرح تلخيص المفتاح )<sup>(٢)</sup> .

---

(١) الكشف ٢٨١/١  
(٢) شروح التلخيص ٣١٢/٤



# ثامناً - تعليل وتحيص

١ - تأزرت عوامل متعددة مكنت للزغخشرى أن يبرع في تعليله ، فهو معتزلى ذكى ممن مروا على الجدل والحاجة ، واستكناه ما وراء الظواهر ، وهو أديب ذواق ، قدير على التعبير عما يختلج بنفسه ، وهو إلى هذا كله غيور على الإسلام ، غيور على القرآن ، لا يألو جهداً في الدفاع عنها ، ولا يدع تعليلاً موصولاً بتفسير الآية أو تأويلها إلا ذكره .

من ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى في وصف أهل الجنة : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، وأوتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون » (١) .

قال : فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة ؟ وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناساً آخر ؟

قلت : لأن الإنسان بالمألوف آنس ، وللمعهود أميل ، وإذا رأى مالم يألف نفر عنه طبعه ، وعافته نفسه ، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد ، وتقدم له معه إلف ، ورأى فيه مزية ظاهرة ، وفضيلة بيّنة ، وتفاوتاً بينه وبين ما عهد ، أفرط ابتهاجه واغترباطه ، وطلال استعجابه واستغرابه ، وتبين كنه النعمة فيه ، وتحقق مقدار الفبطة به . وإن كان جنساً لم يعهده - وإن كان فائقاً - حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك ، فلا يتبين موقع النعمة حق التبيين .

وتردبدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها ، دليل على تناهى الأمر ، وتمادى الحال فى ظهور المزية وتماام الفضيلة ، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذى يستلجى تعجبهم ، ويستدعى تبجحهم فى كل أوان <sup>(١)</sup> .

وفى تفسير قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام <sup>(٢)</sup> » .

قال <sup>(٣)</sup> : فإن قلت : لم يأتيهم العذاب فى الغمام ؟ قلت : لأن الغمام مظنة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ؟

لذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفطع ، لمحيتها من حيث يتوقع الغيث ، ومن ثمة اشتد على المتفكرين فى كتاب الله قوله تعالى : « وبدأهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون <sup>(٤)</sup> » .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « يُوصيكم الله فى أولادكم ، للذكر مثل حظ الأنثيين <sup>(٥)</sup> » فإن قلت : هلا قيل للأنثيين مثل حظ الذكر ، أو للأنثى نصف حظ الذكر ؟

قلت : لبدأ بيان حظ الذكر لفضله ، كما ضوعف حظه لذلك ، ولأن قوله ( للذكر مثل حظ الأنثيين ) قصد إلى بيان فضل الذكر ، وقولك للأنثيين مثل حظ الذكر قصد إلى بيان نقص الأنثى ، وما كان القصد منه بيان فضل الذكر أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه ، ولأنهم كانوا يورثون الذكر

(١) الكشاف ٤٤/١

(٢) سورة البقرة ٢١٠

(٣) الكشاف ٩٩/١

(٤) سورة الزمر ٤٧

(٥) سورة النساء ١١

دون الإناث ، وهو السبب لورود الآية ، فقيل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث ، فلا يتأدى في حرمانهن مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلى به الذكور <sup>(١)</sup> .

وقال عند تفسير قوله تعالى : « وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ <sup>(٢)</sup> » : لا تسبوا الآلهة الذين يدعون من دون الله ، فیسبوا الله ، ذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى : « إِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ <sup>(٣)</sup> » لتنتهين عن سب آلهتنا ، أو لنهجون إلهك ، وقيل كأن المسلمون يسيئون آلهتهم ، فهوا ، لئلا يكون سبهم سببا لسب الله سبحانه .

فإن قلت : سب آلهتهم حق وطاعة ، فكيف صح النهي عنه ، وإنما يصح النهي عن المعاصي ؟

قلت : رب طاعة علم أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهي عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة ، كالنهي عن المنكر ، وهو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب معصية ، ووجب الكف عنه كما يجب الكف عن المنكر .

فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنها حضرا جنازة ، فرأى محمد نساء فرجع ، فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا .

قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس سببا لحضور النساء ، فإنهن يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا ، بخلاف سب الآلهة ، وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى تنبه عليه الحسن <sup>(٤)</sup> .

(٢) سورة الأنعام ١٠٨

(١) الكشاف ١/١٩١

(٤) الكشاف ١/٣٠٥

(٣) سورة الأنبياء ٩٨

٢ — وهو معتزلى يحتكم إلى العقل ، ويستند إلى التفكير في تمحيص ماقرأ وما سمع ، فنفى رؤية الناس للجن ، ورفض الحسد على أنه قدرة من الحاسد على التأثير في المحسود ، ولم يصدق السحر بمعنى التأثير في المسحور ، وفق مايريده الساحر .

قال في تفسير قوله تعالى : « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزعُ عنها لباسها ليريها ما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم »<sup>(١)</sup> : ذلك دليل بّين على أن الجن لا يُروَن ولا يظهرون للأنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة<sup>(٢)</sup> .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ومن شرُّ حاسد إذا حسد »<sup>(٣)</sup> : إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بنى الفوائل للمحسود ، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضار لنفسه ، لا غنامه بسرور غيره . وعن عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد .

ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره<sup>(٤)</sup> .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « ومن شر النِّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ »<sup>(٥)</sup> :

النِّفَّاثَاتِ النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط ، وينفثن عليها ويرقن ، والنفث النفخ مع ريق .

ولا تأثير لذلك ، اللهم إذا كان إطعام شيء ضار ، أو سقيه ، أو إشمامه ،

(٢) الكشف ١/٣٢٤

(٤) الكشف ٢/٥٦٨

(١) سورة الأعراف ٢٧

(٣) سورة الفلق ٥

(٥) سورة الفلق ٤

أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه . ولكن الله قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذي يتميز به المثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشوية والرعاع إليهن وإلى نفثهن ، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ، ولا يعبأون به .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟

قلت فيها ثلاثة أوجه : أحدها أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ، أو من إثمهن في ذلك . والثاني أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخذعن به من باطلهن . والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن . ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله : « إن كيدهن عظيم » <sup>(١)</sup> ، تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث في العقد ، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم ، وعرضهن محاسنهن ، كأنهن يسحرنهم بذلك <sup>(٢)</sup> .

٣ — وكثيراً ما محص الأخبار والآراء التي ذكرها سابقوه تمخيصاً دالا على دقة نظره ، وحرصه على نقاء العقيدة وتصفيتها من شوائب الإسرائيليات والأساطير .

ففسر قوله تعالى في سورة يوسف : « ولقد هَمَّتْ بها وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » <sup>(٣)</sup> تفسيراً مفصلاً انتهى إلى أنها همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، لولا أن رأى برهان ربه .

ثم ذكر ما قاله سابقوه من المفسرين ، فقال إن بعضهم فسرهم يوسف بأنه حل الهميان ، وجلس منها مجلس الجامع ، وبأنه حل سراويله ، وقعد بين

(٢) الكشف ٢/٦٨٥

(١) سورة يوسف ٢٨

(٣) سورة يوسف ٢٤

شعبها الأربع ، وهى مستلقية على قفاها ، وفسر البرهان بأنه سمع صوتا إياك وإياها ، فلم يكثرث له ، فسمع ثانياً ، فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً ، فأعرض عنه ، فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أُمَلته ، وقيل ضرب يده فى صدره ، فخرجت شهوته من أنامله ، وقيل كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين هم .

وقيل صبح به يايوسف لا تكن كالطائر كان له ريش ، فلما زنا قعد لاريش له ، وقيل زدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين » <sup>(١)</sup> فلم ينصرف ، ثم رأى فيها « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » <sup>(٢)</sup> ، فلم ينته ، ثم رأى فيها « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » <sup>(٣)</sup> فلم ينجع فيه ، فقال الله لجبريل : أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة ، فأنحط جبريل وهو يقول يايوسف أتعمل عمل السفهاء ، وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء ؟

وقيل رأى تمثال العزيز ، وقيل قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته ، وقالت : أستحي منه أن يرانا ، فقال يوسف : استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع البصير العليم بذات الصدور ؟

وعلق الزمخشري على هذا بقوله : وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه . وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم — بحمد الله — بسبيل .

ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه ، وذكر توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم زلته ، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذى النون ، وذكر توبتهم واستغفارهم .

كيف وقد أثنى الله عليه وسماه مخلصاً فَعَلِمَ بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدَّخْرُ ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصدق لها .

وقد استوفى القرآن الكريم قصته ، وضرب سورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق في الآخرين ، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدى به الصالحون في العفة وطيب الإزار ، والتثبت في مواقف العثار . فأخزى الله أولئك في إرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة ليقتدى بنبي من أنبياء الله في القعودين شعب الزانية ، وفي حل تكته للوقوع عليها ، وفي أن ينهيه ربه ثلاث كرات ، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات ، بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أشاه ، وهو جاثم في مَرَبَضِهِ لا ينتهى ولا ينتبه حتى يتداركه الله بحبريل ويأجباره .

ولو أن أوقع الزناة ، وأحدقهم حدقة ، وأجلحهم وجهاً ، لَقِيَ بآدنى ما لقي به نبي الله مما ذكرنا لما بقي له عرق ينبض ، ولا عضو يتحرك .  
فيا له من مذهب ما أخشه ومن ضلال ما أئبته <sup>(١)</sup> .

كذلك استقبح ما ذكره عن تعلق داود عليه السلام بامرأة ، وذكر أن

على بن أبي طالب قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده  
مئة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء .<sup>(١)</sup>

وعلق على ما يروى في الحديث : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه  
حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها » فقال : الله  
أعلم بصحته ، وإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه ، إلا مريم  
وابنها كآنا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفتها ، لقوله تعالى : « ولأغوينهم  
أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين »<sup>(٢)</sup>

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلاً ، ولو سلب إبليس  
على الناس ينخسهم لامتلات الدنيا صراخا وعياطاً مما يلونا من نخسه<sup>(٣)</sup>

٤ — على أنه لم يسلم من أغلاط كان المفروض الا يقع فيها كما وقع غيره ،  
وذلك أنه ذكر بعض الإسرائيليات بعد أن قدم لها أو عقب عليها ببطالانها ،  
ولكنه ذكر بعضها بغير أن يبدى رأيه فيها ، وكان المرجو منه أن يهملها  
إهمالاً ، أو يذكرها على أنها من الأساطير .

قال في تفسير الآية الكريمة : « حتى إذ بلغ مطلع الشمس وجدها تطلّع  
عند قوم لم يجعل لهم من دونهما سيّراً »<sup>(٤)</sup> : إن بعضهم قال : خرجت حتى  
جاوزت الصين ، فسألت عن هؤلاء ، فقيل إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ،  
فبلغتهم فإذا أحدهم بفرش أذنه ويلبس الأخرى ، ومعنى صاحب يعرف لساهم ،  
فقالوا له : جئنا ننظر كيف تطلع الشمس ؟ فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة  
الصلصلة ، فمشى على ، ثم أقفت وهم يمسحونني بالدهن ، فلما طلعت الشمس  
على الماء إذا هي فوقه كهيئة الزيت ، فأدخلونا سراباً لهم ، فلما ارتفع النهار خرجوا

(١) الكشف ٢/٢٧٩ (٢) سورة الحجر ٣٩ — ٤٠

(٣) الكشف ١/١٤٣ (٤) سورة الكهف ٩٠



إلى البحر يصطادون السمك ، ويطرحونه في الشمس فينضج لهم <sup>(١)</sup> .

وعند تفسير قوله تعالى : « وقال فرعونُ يا أيها الملأُ ما علمتُ لكم من إله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين ، فاجعل لي صرحاً لعلِّي أطالع إلى إله موسى » <sup>(٢)</sup> .

ذكر أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال ، حتى اجتمع خمسون ألف بَنَاء سوى الأتباع والأجراء ، وأمر بطبخ الأجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير ، فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه ببيان أحد من الخلق ... فبعث الله جبريل عند غروب الشمس ، فضربة بجناحه ، فقطعه ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون ، فقتلت ألف ألف رجل ...

ويروى في هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابه إلى السماء ، فأراد الله أن يفتنهم ، فردت إليه ملطوخة بالدم ، فقال : قد قتلت إله موسى ، فعندها بعث الله جبريل لهدمه ، والله أعلم بصحته <sup>(٣)</sup> .

وفي تفسير قوله تعالى : « أو كصَّيبٍ من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » <sup>(٤)</sup> قال إن السحاب من السماء ينحدر ، ومنها يأخذ ماءه ، لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر ، ويؤيده قوله تعالى : « وَيُنَزِّلُ من السماء من جبالٍ فيها من برَدٍ » <sup>(٥)</sup> .

وذكر عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » <sup>(٦)</sup> أن

(١) الكشاف ١/٥٧٧ (٢) سورة القصص ٢٨

(٣) الكشاف ٢/١٦٣

(٤) سورة البقرة ١٩

(٥) سورة النور ٤٣ والكشاف ١/٣٣

(٦) سورة الحجرات ٢

العباس بن عبد المطلب كان أجهر الناس صوتا ، ويروى أن غارة أتهم يوما  
فصاح العباس : يا صباحاه ، فأسقطت الحوامل لشدة صوته .

وزعمت الرواة أن أبا عروة كان يزجر السباع عن الغنم ، فيفتق مرارة السبع  
في جوفه<sup>(١)</sup> .

وكلمة يروى في الأخبار عن العباس ، وكلمة زعمت الرواة في الإخبار عن  
أبي عروة ، لا تعنيان إلزخشرى ، لأن هذا من الأساطير التي كان من واجبه  
أن يهملها ، إذ أنها من الاستطراد الذي لا علاقه له بتفسير الآية ، أو يعقب  
عليها بنفيها .

---

(١) الكشف ٣٩٠/٢

# قيمة الكشف وأثره

من هذه الجولة في رحاب الكشف يتبين أنه موسوعة في التفسير حافلة بموضوعات كثيرة في الاعتزال واللغة والنحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات، وما يتصل بها من تعليل وتدليل وتمحيص .

ويبدو أن الزمخشري أعجب بتفسيره بعد إكماله، كما كان معجباً بأوائله التي أملاها على بعض المعتزلة ، فافتخر بقوله <sup>(١)</sup> :

وناهيك بالكشاف كنزاً نُضارُهُ      يعلم تميزَ الجيادِ الصيارفا  
وتخفق أوراق المصاحف هزةً      لهن معانٍ يزدهين المصاحفا  
فما في بلاد الشرق والغرب ناقد      يقلبها دهرأً فيخرج زائفا  
وكرر ثناءه على الكشف في قوله <sup>(٢)</sup> :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد      وليس فيها لعمري مثل كشاف  
إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته      فالجهل كاللاء والكشاف كالشافي  
ولقد كان للكشاف دوىٌ منذ ألفه صاحبه، ظهرت أصداؤه في الثناء عليه آناً، كما ظهرت في العناية به اختصاراً وتعليقاً وردوداً .

فمن الذين أثنوا عليه ابن خلدون ، إذ قسم كتب التفسير قسمين : نقلي مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف ، وصنف آخر معتمد على اللغة والإعراب والبلاغة .

ثم قال : ومن أحسن ما شتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرّض له في آي القرآن الكريم من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير للجمهور من مكانه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة .

وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية ، محسناً للحجاج عنها ، فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فلتغتم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان<sup>(١)</sup> . وعرض له مرة أخرى فائتي عليه ، لتفوقه على غيره بالكشف عن الأسرار البلاغية ، ثم عقب بقوله : لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ، ولأجل هذا يتحاماها كثير من أهل السنة ، مع وفور بضاعته من البلاغة .

فمن أحكم عقائد السنة ، وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه ، أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر معتقده ، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب ، للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء<sup>(٢)</sup> .

ومنهم يحيى بن حمزة العلوي ، فقد ذكر في مقدمة كتابه [ الطراز ] أن الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من إخوانه قرأوا تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري ، الممتاز بأنه مؤسس على قواعد علم المعاني والبيان ، وتحققوا أنه لاسبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه ، والوقوف على أسرار وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان متميزاً عن سائر التفاسير ، لأنني لم أعلم تفسيراً مؤسساً على المعاني والبيان سواه ، فسألني بعضهم أن أملئ فيه كتاباً يشتمل على التهذيب والتحقيق ، فالتهذيب يرجع إلى

اللفظ ، والتحقيق إلى المعانى ، إذ كان لامندوحة لأحدهما عن الثانى<sup>(١)</sup> .  
ومن اختصروه البيضاوى بعد أن جرده من الاعتزال ، وقرر آراء أهل  
السنة ، ثم جاء النسفى فاختصر الكشف وتفسير البيضاوى .

أما المعقبون عليه فكثير ، منهم أحمد بن محمد بن منصور الجذامى الإسكندرى  
المالكي قاضى الإسكندرية المشهور بأبى العباس ابن المنير ، كان إماما فى النحو  
والأدب والأصول والتفسير ، وله يد طولى فى علم البيان والإنشاء ، خطب بالإسكندرية  
ودرس فيها وناب فى الحكم بها ، ثم اشتغل بالقضاء . توفى سنة ٦٨٣ هـ  
( ١٢٨٤ م ) وله مصنفات منها الانتصاف من صاحب الكشف<sup>(٢)</sup> ، ناقش فيه  
الزنجشى ، وعارضه ، ونصر مذهب أهل السنة على مذهب المعتزلة ، بدليل قوله :  
الحمد لله الذى أهل عبده الفقير إلى التورث عليه ، لأن آخذ من أهل البدعة بثأر  
أهل السنة ، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقدمات الأسنة<sup>(٣)</sup> .

ولكنه مع ذلك اعترف بفضل الزنجشى فى الكشف عن وجوه إعجاز  
القرآن البلاغية التى تؤكد أنه كلام الله سبحانه<sup>(٤)</sup> .

ومنهم شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى ٧٤٣ هـ ( ١٣٦١ م ) فى كتابه  
( فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب ) وقد ذكره ابن خلدون فى قوله :  
لقد وصل إلينا فى هذه العصور تأليفه الذى شرح فيه كتاب الزنجشى ،  
وتتبع ألفاظه ، وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزييفها ، وتبين أن البلاغة  
إنما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة لاعلى ما يراه المعتزلة ، فأحسن فى ذلك  
ما شاء ، مع إمتاعه فى سائر فنون البلاغة ، وفوق كل ذى علم عليم<sup>(٥)</sup> .

وهناك كثير غير هؤلاء<sup>(٦)</sup> .

(١) الطراز للملوى ٥/١ (٢) بنية الوعاة ١٦٨ . (٣) هامش الكشف ٢٩٩/١

(٤) هامش الكشف ٥٧٢/١ (٥) مقدمة ابن خلدون ٩٩٩

(٦) كشف الظنون ٣٠٩/٢ - ٣١٦

# الفصل السابع في محركات اللغة

تفوق الزمخشري في اللغة كما تفوق في التفسير ، وقد تجلت عناية باللغة وحقائقها ومجازاتها ونصوصها ونحوها في تفسيره الكشاف .  
ولكن له جهودا عظيمة أخرى في اللغة العربية تتبين من مؤلفاته فيها ،  
حسبنا أن نذكر منها ما يأتي :

(١)

## أساس البلاغة

كان الخليل بن أحمد (١٨٠هـ) أول من دون معجما لغويا سماه كتاب العين ،  
جمع فيه كثيرا من ألفاظ اللغة ، ورتبها حسب مخارجها من الحلق فاللسان  
فالأسنان فالشفقتين ، ووضع أحرف العلة في آخر الكتاب ، وقد سمي كتابه  
العين ، لأنه بدأه بحرف العين .

ثم سار كثير من مؤلفي المعاجم على طريقة الخليل ، كما نجد في البارع لأبي  
علي القالي<sup>(١)</sup> (٣٥٦هـ) وفي تهذيب اللغة للأزهري (٣٧٠هـ) وفي المحكم  
لابن سيده (٤٥٨هـ) .

ولكن بعض اللغويين اتجهوا اتجاهين آخرين في ترتيب المعاجم ، فألف  
الجوهرى (٣٩٨هـ) « تاج اللغة وصحاح العربية » مراعى في ترتيب ألفاظه  
أواخر الكلمات ، كما فعل ابن منظور والفيروز آبادي فيما بعد .

ورتب أحمد بن فارس (٣٩٠هـ) كتابه الجمل في اللغة ، على أساس الحرف الأول  
والثاني والثالث ، غير أنه التزم في ترتيبه الهجائي ما بعد الحرف الأول من حروف

الهجاء إلى أن يبلغ الياء ، ثم يعود فيذكر ما بعده من الهمزة إلى ذلك الحرف .  
فمثلا عقد فصلا للراء ، ولكنه لم يذكر الراء مع الهمزة ثم مع الباء ثم مع التاء  
وهكذا ، بل ذكر الراء مع الزاي ، ومع السين ، ومع الشين ، ومع الصاد  
إلى الياء ، ثم عاد فذكر الراء مع الهمزة وما بعدها إلى الزاي .

### طريقته

١ — ثم جاء الزمخشري ، فآلف كتابه أساس البلاغة على نهج هجائي  
أرق وأسهل من نهج ابن فارس ، إذ التزم الحرف الأول وما يليه من حروف  
الهجاء ، فعقد بابا للهمزة ، فرع منه الهمزة مع الباء ( أب ، أبر ، أبس ، أبش ،  
أبص ، أبط وهكذا إلى أبي ) وفرع منه الهمزة مع التاء ( أتب ، أتم ، أتى )  
وفرع منه الهمزة مع الثاء ( أثر ، أثف ، أثل أثم الخ ) وفرع الهمزة مع الجيم  
( أجد ، أجد ، أجد الخ ) وفرع الهمزة مع الحاء ومع الخاء ومع الدال وهكذا ؛  
وسار على هذا النهج في كل حرف .

ولا شك أن هذا الترتيب الدقيق السهل جدير بقوله في المقدمة : « وقد  
رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداول ، وأسهله متناولا ، يهجم فيه الطالب  
على طلبته موضوعة على طرف الثمام وحبل الذراع ، من غير أن يحتاج في التنقير  
عنها إلى الإيجاف والايضاع ، وإلى النظر فيما لا يوصل إلا بإعمال الفكر إليه ،  
وفما دقق النظر فيه الخليل وسيبويه » .

٢ — شرح المعاني الحقيقية للكلمات ، وأضاف إلى هذه المعاني الاستعمالات  
المجازية ، فقال مثلا في مادة ثقب : ثَقَّبَ الشيء بالمشقب ، وثَقَّبَ اللآل الدر ،  
ودر مُثَقَّب ، وعنده دُرٌّ عذارى لم يثقبن ، وثَقَّبَن البراقع لعيونهن . . . .

ومن المجاز: كواكب ثاقب ودرى: شديد الإضاءة والتلألؤ، كأنه يَنْقُبُ الظلمة فينفذ فيها ويدروها، وقد ثَقَّبَ ثقباً، وكذلك السراج والنار، وثقبتها وأثقبها، وأثقب نارك بثقوب، وهو ما تثقب به من حُرّاق وبعر ونحوها. ورجل ثقيب وامرأة ثقيبة: مشبهان للهب النار في شدة حرتهما، وفيها ثقابة، وحسب ثاقب: شهر، ورجل ثاقب الرأى إذا كان جزلاً نظاراً، وأتقنى عنك عين ثاقبة أى خبر يقين، وثَقَّب الطائر إذا حلق كأنه يثقب السكاك (الجو) وثقب الشيب في اللحية أخذ في نواحيها.

وقال في مادة حلف: حلف بالله على كذا حلفاً، وهو حَلَّافٌ وحَلَّافَةٌ، وحلف حَلْفَةً فاجر، وأحلفوه كاذبة، وحالفه على كذا، وتحالفوا عليه واحتلفوا، وحلّف خصمه وأحلفه، واستحلفه القاضى.

ومن المجاز: بينهم حلف أى عهد، وهم حلفاء بنى فلان وأحلافهم، وهذا حليفى، وهو حليف الندى وحليف السهر، وفلان محالف لفلان لازم له؛ وسنان حليف، ورجل حليف اللسان يوافق صاحبه على ما يريد لحدته كأنه حليفه... الخ.

وقال في مادة كبد: هو يَأْكل كبود الدجاج وأكباده؛ وكَبَدَتْهُ: أصبت كبده؛ وكَبِدَ فلان فهو مكبود، ورجل أكبد؛ وأصابه الكباد.

ومن المجاز: بلغ كبد السماء وكَبِدَاء السماء، وتكَبَّدَت الشمس توسطت السماء، وتكَبَّدَت الفلاة: توسطتها، وتكَبَّد اللبن: خثر، وفرس وجل أكبد: واسع الجوف ناهد موضع الكبد، وهو يبحث عن كبد الأرض وأكباده: وهى معادنها، ورمت إليه الأرض بأفلاذ كبدها: بكنوزها وذخائرها، ووقع فى كبد: فى مشقة، وتقول للخصماء إنهم لنى كبد من أمرهم، وبعضهم يكابد بعضاً، والمسافر يكابد الليل إذا ركب هوله وصعوبته.



وقد يتعمق فيذكر مجاز المجاز ، كقوله في مادة نطح : تناطحت الكباش وانتطحت ، ومن المجاز : تناطحت الأمواج والسيول ، وأصابه ناطح : أمر شديد ، وتطير من النطيح والناطح : وهو المستقبل مما يُزجر . ومن مجاز المجاز : رجل نطيح : مشنوم .

وقوله في مادة نطع : على بالسيف والنطع ، ومن المجاز : تنطع في كلامه إذا تفصح فيه وتعمق ، ومن مجاز المجاز تنطع الصانع : تحذق في صناعته .

٣ — ذكر تصاريف الكلمات ومشتقاتها وجموعها ومزاداتها ومعاني كل منها ، مرتبا بعضها على بعض ، ومتدرجا بعضها وراء بعض ، وسلكها في عبارات عدة تفصح عن معانيها ، وتميز مجازاتها من حقائقها ، سواء أكانت هذه العبارات شعرا أم نثرا ، قديمة أم محدثة ، وسواء أكانت من عصر الاحتجاج - من الجاهلية إلى القرن الثالث - أم مما بعده ، لأنه أراد أن يبين دلالات الكلمة في نصوص بليغة ، وليس يعنيه أن تكون هذه النصوص قديمة أم حديثة .

على أنه في كثير من الأحيان لم يقتصر على نصوص من كلام غيره ، بل أدار الكلمات في عبارات من عنده ، لأنه طبق ما قاله في المقدمة : « ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين ، وانطوى تحت استعمالات الملقين ، أو ما جاز وقوعه فيها وانطاؤه تحتها ، من التراكيب التي تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن » .

وقد تكون عباراته من أحد كتبه الأدبية التي ألفها قبل الأساس .

وهذه أمثلة من أساس البلاغة على غير عمد :

قال في مادة حصد : حَصَدَ الزرع : جَزَّه فهو حصيد ، وجمعه حصائد ، وهذا زمان الحصاد : « وآتوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »<sup>(١)</sup> .

ومن المجاز : حَصَدَهم بالسيف : قتلهم ، « وهل يُكَبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ السِّنِّهِم »<sup>(٢)</sup> .

وقال في مادة ( بلو ) بُلِيَ فلانٌ : أصابته بلية ، قال :  
بُليتُ وفقدانُ الحبيبِ بليَّةٌ      وكم من كريمٍ يُبتلى ثم يصبرُ  
ومنه قولهم : لا أباليه أى لا أخبره لقلة اِكْتِرائى له ، وهو أفصح من  
لا أبالي به ، قال زهير :

لقد باليت مَظَنَ أم أوفى      ولكن أم أوفى لا تُبالي  
وقولهم : أبليتُه عذراً إذا بينت له بياناً لا لوم عليك بعده ، حقيقته جعلته  
باليا لعذرى ، أى خابراً له علماً بكنهه ، وكذلك أبليتُه يمينا ، قال جرير :  
فأبلى أمير المؤمنين أمانةً      وأبلاه صدقاً في الأمور الشدائد  
وابتليت الأمر : تعرفته ، قال :

تسائل أسماء الرِّفاقَ وتبتلى      ومن دون ما يهوينَ بابٌ وحاجبٌ  
يريد أنه محبوس .

ومن المجاز : بلوت الشئ شممته ، قال يصف الماء الآجن القديم :  
بأَصْفَرَ وَرْدِ آلِ حَتَّى كَأَنَّما      يَسُوفُ به البالي عَصارة خردل  
وقال في مادة رqn : رَقَنَ الكتاب : كتبه كتابة حسنة ، والترقين  
الترقيش ، قال رؤبة :

## دار كخط السكاتب المرقن

وفي نوابغ الكلم : العلم درس وتلقين ، لا طرس وتلقين<sup>(٣)</sup> .  
وقال في مادة رنح : رنح فلان وترنح إذا دير به وتمايل كالسكران ، ورنحه  
الشراب ، قال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ دِهاقٍ تُرنحُ مَنْ ذاقها  
ومن المجاز : رنحت الريح الغضا فترنح ، ولقد ترنح على فلان إذا مال  
عليك بالتناول والترقع ، قال أبو القريب البصري :

ترنح بالكلام على جهلاً كأنك ماجدٌ من آل بدرٍ

ويقول في مادة شب : شبت النار : رفعها ، وشب الصبي شاباً ، وقوم  
شبان وشباب وشببة ، وتقول : كان عصر شبابي أحلى من العسل الشبابي ،  
منسوب إلى بني شبابة من أهل الطائف ، وتقول المرء في شبابه كالمهر في  
شبابه .

ومن المجاز والكناية . شبت الحرب بينهم ، وسمعت من يحيى النار  
وهو يقول :

تشبى تشبب النيمه تسعى بها زهراً إلى نيمه

وهو كقولهم : أوقد بالنيمه ناراً ، قال عمر بن أبي ربيعة :

ليس كالمهد إذ علمت ولكن أوقد الناس بالنيمه ناراً

وشب الخمار وجهها ، وهو شوب لوجهها ....

---

وقال في مادة نقد : تقول النُّقْدَةُ إليهم كأنهم النُّقْدُ ، وقد عاث فيها الذئب  
الأعقد<sup>(١)</sup> .

وقال في مادة مري : ومن المجاز قرَعَ مَرُوتَه<sup>(٢)</sup>

ونلاحظ أنه يذكر موضوع النص أحيانا كقوله في مادة : بضع .

قال أوس بن حجر في صفة القوس :

وَمَبْضُوعَةٍ مِنْ رَأْسِ فَرْعٍ شَظِيَّةٍ بَطُونٍ تَرَاهُ فِي السَّحَابِ مَكَلَّلًا

وقوله في مادة خرج : قال زهير يصف الخيل :

وخرَّجها صوارخ كلَّ يوم فقد جعلت عرائكها تَلِينُ  
أراد وأدبها كما يُخَرِّجُ المتعلم .

وقال في مادة طفل : هو طفل بين الطفولة ، وامرأة وظيفية مُطْفِل ، وَطَفَلَتْ  
ولدها : رشحته ، قال الأخطل يصف سحابا :

إذا زعزعته الريحُ جرَّ ذُيُولَهُ كَمَا زَحَفَتْ عُودُ ثِقَالُ تُطْفَلُ

وقال في مادة نتخ : نَتَخْتُ الشوكة من رجلى بالمنتاخ ، بالمنقاش ، ونتخ  
البازي اللحم بمنسريه ، وَنَتَخَ الْقَلَاعَ الضرس : نزع . قال زهير يصف غزوا :

تَنْبِذُ أَفْلَاهَا فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ تَنْتَخُ أَعْيُنُهَا الْعِقْبَانُ وَالرَّخْمُ

وفي كثير من الأبيات لم يذكر القائل ، مكتفيا بكلمة قال ، وأغلب  
الظن أن القائل لم يكن معلوما له ولا لسابقيه الذين نقل عنهم .

كقوله في مادة جرد : ومن المجاز : كيف حرثك أي امرأتك ، قال :

(١) هذه العبارة من مقامات الزمخشري ١٠٠ النقد : جنس من الفم قبيح .  
الأبعد : المتوى

(٢) وردت في المقامات ٧٢

إذا أكل الجرادُ حُرُوثَ قَوْمٍ فَحَزَنِي هُمُ أَكْلُ الْجَرَادِ  
 وقوله في مادة دوح : وفلان يلبس الدَّاح وهو الوَشْيُ والنقش ، قال :  
 يالابسَ الوَشْيِ على شَيْبِهِ ما أَقْبَحَ الدَّاحَ على الشَّيْخِ  
 وقوله في مادة نفج : وكانوا يقولون : هنيئلك النافجة ، وهي البنت ، لأنه  
 كان يأخذ مهرها فينفج ماله أي يوسعه ويعظمه ، وأنشد الجاحظ :

وليس تلادى من ورانة والدى ولا شأنٌ مالى مُسْتَفَادُ النَّوَافِجِ  
 ٤ — على أنه أغفل بعض المواد التي نجدُها في لسان العرب وفي القاموس  
 المحيط ، ولعله وجدها ليست من المواد الثرية بالمعاني والمشتقات ، فذكر مثلاً في  
 الجيم مع الهاء : جهرثم جهش ، ولم يذكر جهز .

وذكر في الحاء مع القاف حقل ثم حقن ولم يذكر حقم .  
 وذكر في الراء مع التاء رتل وبعدها رتم ولم يذكر رتن ولا رثن .  
 وذكر في السين مع الواو سود وبعدها سور ، ولم يذكر سوخ :  
 وذكر في العين مع الكاف عكف وبعدها عكم ولم يذكر عكل .  
 وذكر في النون مع التاء نتأ وبعدها نتج ولم يذكر نتب .

### قيمه وأثره

١ — هذا الكتاب معجم لغوي جمع المفردات ومعانيها الحقيقية والمجازية ،  
 وكثيراً من النصوص البليغة التي وردت فيها ، فلم تجيء المفردات جوامد  
 منقطعة عن الاستعمال ، بل جاءت في سياق من التركيب أضفى عليها حياة .

وقد كان الزمخشري يبتغي من تأليفه الكشف عن أسرار اللغة ، للوقوف  
 على وجوه الإعجاز ، وليس من المستطاع هذا الكشف إلا بتذوق معاني  
 المفردات في قوالبها ، ومعرفة حقائقها ومجازاتها كما قال في المقدمة .

٢ — وهو إلى هذا ينبوع يغذى الملكة الأدبية ، ويزود الشداة بنفائس اللغة وآدابها ، وقد كان الزمخشري أديباً بصيراً بما ينهض بأساليب الأدباء الناشئين ، لأنه جرب هذا الطور من قبل ، ولهذا قال في المقدمة : فمن حصل هذه الخصائص ، وكان له حظ من الإعراب ... وأصاب ذرواً من علم المعاني ، وحظي برشٍّ من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك قريحة صحيحة وسليقة سليمة ، فحل نثره ، وجزل شعره ولم يطل عليه أن يناهز المقدمين ، وبخاطر المقرئين .

٣ — وقد سلك مؤلفو المعاجم بعد الزمخشري طريقتين ، فبعضهم حاكى الجوهري في ترتيبه كتابه الصحاح ، وبعضهم تأثر بطريقة الزمخشري في الترتيب الهجائي الذي التزمه ، وكان أبرع فيه وأدق وأسهل .

أما الفريق الأول فيمثله ابن منظور ( ٦٣٠ — ٧١١ هـ ) مؤلف لسان العرب ، والفيروزابادي ( ٧٢٩ — ٨١٧ هـ ) مؤلف القاموس المحيط ، فإنهما عدلا عن الترتيب الهجائي إلى نظام الحرف الأخير من الكلمة الذي سار عليه الجوهري في الصحاح .

وربما كان سبب ذلك أنهما لم يرتضيا طريقة الزمخشري في ترتيب الكلمات ولا مسلكه في التفريق بين الحقيقة والحجاز ، ولا طريقته في الاستشهاد بنصوص من البلغاء بعد عصر الاحتجاج ، وليس بمستبعد أن يضاف إلى هذين السببين سبب ثالث هو أن الزمخشري زعيم المعتزلة في عصره ، وابن منظور والفيروزابادي من أهل السنة ، وبين الفريقين ما بينهما من خصومة وعداء .

وأما الفريق الثاني فيمثله الفيومي ( توفي سنة ٧٦٦ هـ ) مؤلف المصباح المنير ، ثم اللجنة التي شكلتها وزارة المعارف المصرية برئاسة محمود خاطر بك فرتبت مختار الصحاح للرازي ( توفي عام ٧٨٠ هـ ) ، وبطرس البستاني مؤلف محيط المحيط ،

وسعيد الشرتوني مؤلف أقرب الموارد ؟ ومجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط .

٤ — وما زال أساس البلاغة في صدارة معاجمنا اللغوية . نستشير ، ونستنبط منه ، ونأنس إليه ونثق به ، لأن مؤلفه كما قال ابن حجر العسقلاني : « في غاية المعرفة بفنون البلاغة ، وتصرف الكلام ، وكتابه من أحسن الكتب ، وقد أجاد فيه ، وبين الحقيقة من المجاز في الألفاظ المستعملة إفراداً وتركيباً <sup>(١)</sup> » .

(٢)

### المستقصى في أمثال العرب

منذ زمن مبكر عني كثير من اللغويين والأدباء بتدوين أمثال العرب ، مثل أبي عبيدة والأصمعي وأبي عبيد وأبي زيد والمفضل بن محمد والمفضل ابن سلمة .

ثم جاء الزمخشري والميداني ( ٥١٨ هـ ) فألفا كتابيهما في زمن واحد . أما كتاب الزمخشري فهو ( المستقصى في أمثال العرب ) فرغ من تأليفه سنة ٤٩٩ هـ .

وأما كتاب الميداني فهو ( مجمع الأمثال ) .

وقد رتب الزمخشري كتابه ترتيباً هجائياً ، كما صنع في أساس البلاغة ، فبدأ بالأمثال التي أولها همزة ، ثم باء وهكذا إلى الياء ، مراعيّاً في الترتيب الحرف الثاني وما بعده ، فذكر مثلاً في حرف السين مع الراء : سرق السارق فانتحر ، وبعده سراك من دمك ؛ فإذا اتفقت كلمتان في صدر المثل راعى ما بعدهما ، فذكر في حرف العين مع النون : عند الشدائد تذهب الأحقاد ، وبعده : عند النطاح يغلب الكبش الأجم .

---

(١) لسان الميزان ٤/٦

ولكنه ذكر في باب الهمزة جميع الأمثال المبدوءة بهمزة ، سواء أ كانت الهمزة أصلية ، مثل إنك لا تجنى من الشوك العنب ، أم همزة وصل مثل : احمل العبد على فرس ، اختلط الحابل بالنابل ، أم كانت الكلمة مبدوءة بآل مثل الحمد مغنم ، والمذمة مغرم ، أم كانت الكلمة على وزن أفعل مثل : أحق من نعمة . وقد شرح الزمخشري الأمثال ، وبيّن مواردها وأسبابها وملابساتها ؛ وذكر مضارب كثير مغها ، والأحوال التي يصح أن تقال فيها ، وأضاف إلى شرحه مسائل من اللغة والنحو ، واستشهد بنصوص شتى من شعر ونثر .

وفي كتاب الزمخشري ثلاثة آلاف مثل وأربع مئة وواحد وستون . أما الميداني فقد رتب كتابه طبقاً لأصول الكلمات ، فذكر في باب الهمزة الأمثال المبدوءة بهمزة قطع مثل : إن من البيان لسحراً ، ولم يذكر ما أوله أل ولا همزة وصل ، ثم ذكر ما جاء على وزن أفعل من هذا الباب مثل : آكل من حوت ، ثم سرد أمثال المولدين ، وهكذا صنع في بقية الحروف ، فذكر في باب الباء الأمثال المبدوءة بباء ، مثل بلغ السيل الزبى ، ثم ما جاء على وزن أفعل مثل : أبلغ من قس . ثم أمثال المولدين ، ولكنه لم يلتزم الترتيب طبقاً لما بعد الحرف الأول من المثل فنجد يذكّر مثلاً فيما أوله تاء : ترك الظبي ظله ، ثم يذكّر تجموع الحرة ولا تأكل بثدييها ، ثم يذكّر تحسبها حمقاء وهي باخس ، ويذكر في باب القاف : قطعت جهيزة قول كل خطيب ، ثم يذكّر قبل البكاء كان وجهك عابسا ، ثم يذكّر قد استنوق الجمل وهكذا .

وبأمثال لميداني ستة آلاف مثل كما ذكر في مقدمته ، ويظهر أنه لم يراع أن كثيراً منها مكرر .

وفرق آخر بين العالمين ، هو أن الميداني ذكر في مقدمة كتابه عشرات من الكتب التي نقل منها ، على حين أن الزمخشري لم يذكر مصادره التي اعتمد عليها .



وقد كان الزمخشري أسبق إلى تأليف كتابه ، لأنهم يذكرون أنه لما اطلع على كتاب الميداني ندم على أنه ألف المستقصى .

ويذكرون قصة أخرى ، أغلب الظن أنها من وضع المتفككين أو العابثين ، لأنها لا تلائم أخلاق الزمخشري التي عرفناها ، فيقولون <sup>(١)</sup> إن الزمخشري لما وقف على كتاب الميداني أخذ القلم ، وزاد نونا على كلمة الميداني ، فصارت النيميداني ، ومعناها بالفارسية الذي لا يعلم شيئا ، فلما علم الميداني بذلك أخذ بعض مؤلفات الزمخشري فصير الميم نونا ، ومعنى الكلمة بالفارسية بائع زوجته .

### نماذج منه

١ — إذا ضربت فأوجع ، وإذا نقرت فأسمع .

يضرب في إتقان الأمر والتشديد فيه <sup>(٢)</sup>

وفي مجمع الأمثال: من أمثال المولدين: إذا ضربت فأوجع، فإن الملامة واحدة ،

يضرب في الحث على المبالغة <sup>(٣)</sup>

٢ — أشأم من أحمر عاد

هو قدار بن قديرة ، وهي أمه ، وأبوه سالف ، عقر ناقة صالح فهلك بفعله ثمود . قال زهير :

فَتُنْتِجَ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ نَمِ تَرْضِيعُ فَتَنْفِطِمْ <sup>(٤)</sup>

وفي مجمع الأمثال بعد ذكر المثل أنه قدار بن سالف ويقال له ابن قديرة

وهي أمه ، عقر ناقة صالح عليه السلام فأهلك الله بفعله ثمود <sup>(٥)</sup>

(١) معجم الأدباء ٤٧/٥ ولأبناء الرواة ١٢١/١ وبنية الوعاة ١٥٥

(٢) المستقصى ١٢٥/١ (٣) مجمع الأمثال ٥٨/١

(٤) المستقصى ١٧٦/١ (٥) مجمع الأمثال ٢٥٦/١

### ٣ — أفرس من عامر بن الطفيل

هو ابن أخى عامر سلاعب الأسنة ، أفرس أهل زمانه وأسودهم ، وكان له مناد ينادى بعكاظ : هل من راجل فأحمله ، أو جائع فأطعمه ، أو خائف فأؤمنه ؟ ووقف جبار بن سلمى على قبره فقال : أنعم ظلما أبا على ، فوالله لقد كنت تشن الغارة ، وتحمى الجارة ، سريعا إلى المولى بوعدك ، بطيئا عنه بوعيدك ، وكنت لاتضل حتى يضل النجم ، ولا تهاب حتى يهاب السيل ، ولا تعطش حتى يعطش البعير ، وكنت والله خير ما تكون حين لاتظن نفس بنفس خيرا . ثم التفت فقال : هلا جعلتم قبر أبى على ميلا في ميل <sup>(١)</sup> ..

وفي مجمع الأمثال هذا نفسه <sup>(٢)</sup>

### ٤ — أنجز خُرما وعد

أنجز الوعد إذا نفذ ، وأنجزته ، قاله الحارث بن عمرو بن حُجر الكندى لصخر بن نهشل ، وكان له مربع بنى حنظلة ، فجعل للحارث الخمس منه إن دله على غنيمة ، ففعل ، ووفى هو بوعدده . يضرب في استنجاز المواعيد <sup>(٣)</sup> .

وفي مجمع الأمثال هذا وزيادة عليه <sup>(٤)</sup>

### ٥ — أنقى من مرآة الغربية

هى المرأة الناكح فى غير عشيرتها <sup>(٥)</sup>

وفي مجمع الأمثال : يعنون القى تزوج من غير قومها ، فهى تجلو مرآتها أبدا ، لتلا يخنى عليها من وجهها شىء . قال ذو الرمة :

(١) المستقصى ٢٦٩/١ (٢) مجمع الأمثال ٢٢/٢

(٣) المستقصى ٣٨٤/١ (٤) مجمع الأمثال ١٩٣/٢

(٥) المستقصى ٣٩٨/١

لها أذن حشرٌ وذفرى أسيلة وخد كمرآة الغريبة أسجح<sup>(١)</sup>

٦ — إن من البيان لسحرا

سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان ، قال كيف هو فيكم ؟ فقال : شديد العارضة ، مطاع في العشرة ، مابع لما وراءه . فقال الزبرقان : والله إنه ليعلم أنى أفضل مما قال ، ولكنه حسدنى . فقال ابن الأهتم : والله ما علمت ( إلا ) أنه زمر المروءة ، ضيق العطن ، أحق الأب ، لثيم الخال ، أما والله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، ولكن رضيت فقلت برضاى ، ثم أسخطنى فقلت بسخطى . فقال عليه السلام ذلك .

يضرب في الثناء على البليغ<sup>(٢)</sup> .

وفي مجمع الأمثال هذا المثل وشرحه بغير خلاف يذكر<sup>(٣)</sup> .

٧ ضرب أخماساً لأسداس

أى اعتمد وتعاطى أخماساً لأجل أسداس ، وهو جمع خمس وسيدس من أظماء الإبل . وأصله أن الرجل حتى إذا أراد سفراً بعيداً عود إبله الصبر على العطش ، فأخذ يترقى بها مدرجا في الإظماء ، إذا فوزَ بها - دخل الصحراء - صبرت ، فهو حين يسقيها أخماساً ثم يتجاوزها وينقلها إلى الأسداس عقيبها على سبيل التدريب لها إنما يتعاطى سقيها أخماساً لأجل سقيها أسداساً ، قال الكميت :

وذلك ضرب أخماسٍ أريدت لأسداس حتى ألا يكونا

وقال أيضاً :

ألستم أيقظ الأقوام أفئدةً وأضرب ناس أخماساً لأعشار

(١) مجمع الأمثال ٢/٢٠٧ حشر : لطيفة يستعمل للواحد والثنى والجمع . ذفرى : المراد

العنق .

(٢) المستقصى ١/١٤٤ (٣) مجمع الأمثال ١/١

وقال :

يضرب للمكار الذى يريد أمرا ويظهر غيره <sup>(١)</sup>

وقد شرح الميدانى المثل هذا الشرح ، وذكر شعرا آخر غير النصوص الثلاثة التى ذكرها الزمخشري <sup>(٢)</sup> .

٨ — قطعت جَهِيْزَةً قول كل خطيب .

بينما قوم يخطبون فى صلح بين حيين — قتل أحدهما من الحى الآخر رجلا  
ويسألون الرضا بالدية — جاءت أمةٌ اسمها جهيزة فقالت : إن القاتل ظفر به  
بعض أولياء المقتول فقتله ، ف قيل ذلك .

يضرب لأمر قد فات وأيس من صلاحه .

وقيل هى جهيزة التى يضرب بها المثل فى الحق ، وإنه مثل فىمن يقطع  
على الناس مام فيه بحماقة يأتى بها <sup>(٣)</sup>

وفى جمع الأمثال هذا الشرح نفسه <sup>(٤)</sup> .

٩ — كالثور يُضْرَبُ لما عافت البقر

كانوا إذا عافت البقر الورود ضربوا الثور زاعمين أن الجن ركبتة ، وأنها  
تزع البقر عن المشرب ، فينفرونها بإلقاء الضرب على الثور .

وقيل إنما يضرب لأنه قائد البقر وسائقها .

وقيل الثور: العَرْمَضُ أى الطحلب ، يضرب فيذهب فى نواحي الورود

الماء — ثم تشرب حينئذ ، وإذا كان على وجه الماء عافته .

يضرب للمأخوذ بذنب غيره ، قال أنس بن مدركة الخثعمي :

(١) المستقصى ١٤٥/٢ (٢) جمع الأمثال ٢٨٣/١

(٣) المستقصى ١٩٧/٢ (٤) جمع الأمثال ٢٥/٢

إِنِّي وَقَتْلِي سَلَيْكَا ثُمَّ أَعِقَلَهُ كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتِ الْبَقْرُ  
وقال : . . . . (١).

ويشبه هذا ما ذكره الميداني (٢)

(٣)

### الفائق في غريب الحديث

كان جمع الأحاديث التي بها كلمات غريبة وترتيبها وشرح غريبها مناط  
كثير من علماء اللغة والحديث، فتوالت مؤلفاتهم حتى لم تكد تدع زيادة لمستزيد.  
وقد ذكر ابن الأثير في مقدمة كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر)  
موجزاً لتطور التأليف في غريب الحديث، منها أن أبا عبيدة معمر بن المثنى التيمي  
أول من جمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتباً معدود الأوراق. ثم صنع  
مثل صنيعه أبو الحسن النضر بن شميل المازني وعبد الملك بن قريب الأصمعي  
ومحمد بن المستنير المعروف بقطرب.

ثم ألف أبو عبيد القاسم بن سلام كتابه المشهور في غريب الأحاديث  
والآثار، فكان المرجع إلى زمن ابن قتيبة الدينوري، إذ ألف كتاباً على نهج  
كتاب أبي عبيد، أكثره لم يذكره أبو عبيد.

وتتابعت المؤلفات في هذا الفن، إلى أن صنف أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي  
كتاباً جمع فيه ما بين غريب القرآن والحديث، ورتبه وفق حروف المعجم على  
وضع لم يسبق في غريب القرآن والحديث، وفسر الكلمات اللغوية، وجمع فيه  
ما ذكره سابقوه، ولهذا صار المؤلفون من بعده يتبعون أثره، ويستدركون  
مافاته، إلى أن جاء الزنجشري فصنف كتابه سنة ٥١٦ هـ، وسماه الفائق

«ولقد صادف هذا الاسم مُسَمًّى ، وكشف عن غريب الحديث كل مُعْنًى ، ورتبه على وضع اختاره مُقَنًى على حروف المعجم ، ولكن في العثور على طلب الحديث منه كلفة ومشقة ، وإن كانت دون غيره من متقدم الكتب ، لأنه جمع في التقفية بين إيراد الحديث مسرودا جميعه أو أكثره أو أقله ، ثم شرح مافيه من غريب ، فجاء شرح كل كلمة غريبة يشتمل عليها ذلك الحديث في حرف واحد من حروف المعجم ، فترد الكلمة في غير حرفها<sup>(١)</sup> ، وإذا تطلبها الإنسان تعب حتى يجدها ، فكان كتاب الهروى أقرب متناولا ، وأسهل أخذا ، وإن كانت كلماته متفرقة في حروفها ، وكان النفع به أتم ، والفائدة أعم<sup>(٢)</sup> .

### طريقته

١ — رتب الكلمات الغريبة من الأحاديث والآثار على حروف المعجم ، مراعىا الحرف الأول والثانى ، فيذكر مثلا في الهمزة مع اللام ألب ثم ألت ، ثم ألف ، ويذكر في الحاء مع الكاف حكك ثم حكمة .

ولكنه لم يراع الحرف الثالث ، ففي الثاء مع القاف يذكر ثقل ثم ثقب ، وفي الجيم مع الدال يذكر الجدح ثم جدف ، ثم جدد ، ثم جلد ، وفي الخاء مع اللام يذكر خلف ثم خليج ، ثم خلل ، ثم خلب ، ثم خلص ، ثم خلى ، وهكذا .

٢ — قد يذكر الحديث كله ، وقد يذكر بعضه ، ناظرا إلى الكلمة أو إلى الكلمات الغريبة التي يريد شرحها ، ويستشهد بنصوص بليغة من الشعر والنثر ، وقد يعرب بعض الكلمات « إعراب المحقق البصرى الناظر في نص سيويه وتقرير الفسوى »<sup>(٣)</sup>

وقد أثنى عليه ابن حجر في قوله : « وكتابه الفائق في غريب الحديث من

(١) استدرج هذا بأن أشار إلى هذه الكلمات في المواضع التي وردت فيها .

(٢) الفائق ٣/١

(٣) النهاية ٤/١

أنفس الكتب ، لجمعه المتفرق في مكان واحد ، مع حسن الاختصار ، وصحة النقل<sup>(١)</sup> .

## نماذج منه

١ — النبي صلى الله عليه وسلم . أتى بكتف مؤرّبة فأكلها وصلى ولم يتوضأ .

هي المؤرّبة التي لم يؤخذ شيء من لحمها ، فهي متلبسة بما عليها من اللحم ، متعقدة به ، من أربّت العقدة إذا أحكت شداها . من الناس من يوجب الوضوء يأكل ما مسبه النار . وعن أهل المدينة أنهم كانوا يرون هذا الرأي . وهذا الحديث وأشباهه ردّ عليهم<sup>(٢)</sup> .

٢ — إن الإسلام كَبَارِز إلى المدينة كما تَارِز الحية إلى جحرها ، أى تنضوى إليه وتنضم . ومنه الأرووز للبخيل المتقبض . وعن أبي الأسود الدؤلى إن فلانا إذا سئل أَرِزَ وإذا دُعِيَ انتَهَز<sup>(٣)</sup> .

٣ — فى الحديث كانوا يتأثّمون شرار ثمارهم فى الصدقة ، أى يقصدون . وفى قراءة عبد الله : « ولا تأثّموا الخبيث »<sup>(٤)</sup> .

٤ — النبي صلى الله عليه وسلم : لا يُوطِنُ من المسجد للصلاة والذكر رجل إلا يَبْشِشَ الله به من حين يخرج من بيته كما تَبْشِشَ أهل البيت بغائبهم إذا قدم عليهم .

التبشيش بالإنسان المسرة به والإقبال عليه ، وهو من معنى البشاشة لامن لفظها عند أصحابنا البصريين ، وهذا مثل لارتضاء الله فعله ووقوعه الموقع الجميل عنده .

(١) لسان الميزان ٤/٦ (٢) الفائق ٢١/١

(٣) الفائق ٢٢/١ (٤) الفائق ٤٥/١

يخرج في موضع الجر بإضافة الحين إليه ، والأوقات تضاف إلى الجمل ،  
ومن لا ابتداء الفاية ، والمعنى أن التبشيش يبتدىء من وقت خروجه من بيته  
إلى أن يدخل المسجد ، فترك ذكر الانتهاء لأنه مفهوم ، ونظيره :

شَمْتُ الْبَرْقَ مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ

ولا يجوز أن يفتح حين كما فتحه في قوله :

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا

لأنه مضاف إلى معرب ، وذاك إلى مبني <sup>(١)</sup> .

ه — النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يتعوذ من الأَيْهَمَيْنِ

هما السيل والحريق ، لأنه لا يهتدى لدفعهما ، من القلاة اليهْماء وهي التي  
لا يهتدى فيها ، لأنه لا أثر يستدل به .

وقال ابن الأعرابي . رجل أَيْهَمَ أَعْمَى ، وامرأة يهْماء ، ومنه قالوا : أرض  
يهْماء ، ويقال للجبل الذي لا يرتقى أَيْهَم .

وقيل اليهْم الجنون ، ومنه الأيهْم الفعل المقتل <sup>(٢)</sup>

---

(١) الفائق ١/٩٢

(٢) الفائق ٣/٢٣٣



(٤)

## أعجب العجب في شرح لامية العرب

هذا كتاب شرح فيه الزمخشري قصيدة الشنفرى التى مطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإننى إلى قوم سواكم لأُمَيْلُ

وذكر فى مقدمة الشرح أنه ألفه « ليتحف به الخزانة السعيدية والحضرة العزّية ، ذا الآلاء المتظاهرة ، والنعم الوافرة . . . . . المستولى على جوامع الحكم بالتوقير لأهلها والعظيم ، والتقريب والتكريم ، وإحراز الكتب المؤلفة فيها ، وإعزاز أربابها ومصنفها » .

ويفهم من المقدمة أنه ألفه بعد أساس البلاغة ، لأنه قال : « وخطابى لمن نشأ فى علم الإعراب . . . . . وطالع أساس البلاغة »

وقد شرح اللامية كثير من اللغويين ، مثل المبرد وثلعب والتبريزى والعكبرى ويحيى الحلبي الفسائى والزوزنى والنقشوانى وابن أكرم وابن زاكور وعطاء الله المصرى والسويدى والسعيدى الحميرى ، واستشهد بأبيات منها كثير من اللغويين والنقاد والمؤرخين .

ونلاحظ أن الزمخشري ملأ شرحه بالنحو ، حتى لكان النحو مقصود قصداً ، وأنه اقتصر من اللغة على شرح المفردات الصعبة ، ولم يعرض لشيء من علوم البلاغة .

وهو فى شرحه يستشهد بالآيات القرآنية ، وبأبيات شعرية

وقد عنى بها كثير من المستشرقين منذ نشرها ( ده ساسى ) فأكبوا على دراستها ، وترجموها شعراً ونثراً إلى لغاتهم مثل ( فرنل ) و ( فيل ) و ( كوزجارتن ) و ( رويس ) و ( ديكرت ) و ( همبرجشتال ) و ( الفارت ) و ( أداما ميكيفتشا ) و ( فرين ) و ( ب . بليا ) .

واتجه آخرون إلى اقتناء مخطوطاتها ، والموازنات بين بعضها وبعض ، مثل (بيترمان) و (شبرنجر) .

وفي عام ١٨٦٤ رأى نولدكه أن يعيد النظر فيها ، فألف كتابا في الشعر الجاهلي عرض فيه لما قيل في اللامية ، وناقشه ، ثم قال : لولا أنى رأيت على مخطوطة ( بترمان ) هذه الجملة ( لامية الشنفرى ، وقيل إنها منحولة ) ما تطرق إلى ذهني شك في صحتها ، فإنها إن كانت منحولة فالشاعر الذى قالها يجب أن يكون ملما بالحياة العربية والجاهلية إلماماً تاماً ، كما أن خياله غزير جداً ، حتى إنه ليستحق أن يتبوأ أسى مكان بين الشعراء الجاهليين ، وإذا لم تكن هذه اللامية لبطل الصحراء ، فإنها صنعت لتنسب إلى مثله .

وفي الوقت الذى كان فيه جمع ثينا العلمى ينشر دراسة لنولدكه عن الملاحظات كان الجمع العلمى البافارى بميونخ ينشر فى عامى ١٩١٤ ، ١٩١٥ بحثاً قيماً حول لامية العرب للمستشرق الألمانى ( جورج يعقوب ) ، وقد ألف قبل هذا البحث كتابا عن حياة البدو فى العصر الجاهلى ، وجمع المصادر المختلفة للامية الشنفرى ، وعنى عناية خاصة بنبات الشرق العربى وحيوانه .

وقد ناقش ما أجمع عليه شراح اللامية من أن السَّمع فى قول الشنفرى :  
فَإِنِّى لَمَوْلى الصبر أَجْتَابُ بَرَّهْ عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السَّمْعِ وَالْحَزْمِ أَنْعَلُ<sup>(١)</sup>  
هو ولد الذئب من الضبع ، وخالفهم وقال إن مثل هذا التزاوج لم يحدث بين الذئب والضبع ، واستعان لإثبات رأيه بمحديقة حيوان ( هلابرن ) بألمانيا التى

---

(١) قال الزمخشري فى شرح اللامية ٥٤ مولى الصبر : وليه يريد أنا القائم به اجتابه : ألبس البر : أمتعة البراز ، يريد أنى وليه ألبس ثوبه . السمع سمع مركب وهو ولد الذئب من الضبع ، وفى المثل أسمع من سمع . قال الشاعر :  
تراه حديد الطرفِ أبلجَ واضحا  
أغرَّ طويلَ الباعِ أسمعَ من رسمع  
الحزم أنعل : أحتذى الحزم

نجحت في تجربة التزاوج بين الذئب والثعلب ، وأخفت في تحقيق ما قاله شراح اللامية ، لأن السمع كما قال الرحالة والعلماء وبخاصة علماء الحيوان : حيوان آخر يشبه الكلب ، وحجمه كالحمار ، إذا لم تصب الطلقة الأولى منه مقتلاً اكتسب مناعة ضد الرصاص ، وهو يهاجم الإنسان ويضربه بمخلبه الأمامي ، فيبجر بطنه ويفترسه ، ويطلق عليه علماء الحيوان اسم ( ليكاون بيكتوس — Lycaon Pictus ) وهو مشهور بقوة السمع حتى يضرب به المثل<sup>(٢)</sup>

على أن المناعة التي يكتسبها هذا الحيوان ضد الرصاص ليست مما يدخل في نطاق العقول ، لأن إخفاق الطلقة الأولى أو ما بعدها لا يكسب الحيوان هذه المناعة .

(٥)

## الجبال والأمكنة والمياه

تعريف بالجبال والأمكنة والمياه ومواقعها وأسمائها وبعض ما يتصل بها من أخبار وشعر ، مرتبة ترتيباً هجائياً ، بدأ بما في أوله الهزة ، فقال : أبو قبيس الجبل المشرف على الصفا ، يسعى رجل من مذحج كان يكنى بأبي قبيس ، لأنه أول من بنى فيه ، ثم ذكر بعده ما في أوله الباء ، وما في أوله التاء ، وهكذا إلى الياء ، فقال : يَلْمَلَمَ : واد يحرم منه أهل اليمن .

## نماذج منه

١ — الْجَمَاء : جبل بالمدينة ، سمي بذلك لأن ثم جبلين هي أقصرهما ، فكانها

جاء ، وأنشدني الشيباني :

القصر والنخل فالجاء بينهما أشهى إلى القلب من أسياح جَيرون

الجماء من المدينة على ثلاثة أميال ناحية العقيق إلى الجرف .

(١) من مقال بمجلة الرسالة العدد ٨١ في ٤ فبراير سنة ١٩٦٥ الدكتور فؤاد حسنين على .

٢ — مُحَلِّمٌ : نهر باليامة ، قال الأعشى :

ونحن غداة العَيْنِ عَيْنِ فَطِيمَةٍ      منعنا بنى شَيْبَانَ شُرْبَ مُحَلِّمٍ

٣ — عكاظ : سوق ، وقيل عكاظ ماء لهم ، قال :

إن عكاظا ماؤنا فخلوه

وقيل عكاظ ما بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له الفُتُق ، كانت سوقه تقام  
هلال ذى القعدة فلا تزال قائمة عشرين يوما .

٤ — منفوحة : بلد فيه منازل ونخيل ، وهي خلة بنى قيس بن ثعلبة ،  
قال الأعشى :

فقاع منفوحة ذى الحَايِرِ (١) .

---

(١) لا تزال منفوحة عامرة بالقرب من الرياض في نجد ، وبها أطلال يقولون إنها كانت  
بيت الأعشى ، وقد زرتها مرات من سنة ١٩٥٧ إلى ١٩٦٠ .

## الفصل الثامن

# في شِعارِ النحو

درس الزمخشري النحو ، وتفوق فيه كما درس اللغة وبرع فيها ، وكان تابعا لمذهب سيبويه والبصريين في آرائه ، كما يتبين من مؤلفاته كلها ، وله في النحو ثلاثة كتب هي :

(١)

### المفصل

شرع في تأليفه في غرة رمضان سنة ٥١٣هـ ، وفرغ منه في غرة المحرم سنة ٥١٥هـ<sup>(١)</sup> .

وهو أربعة أقسام: الأول في الأسماء ، والثاني في الأفعال ، والثالث في الحروف ، والرابع في المشترك .

ويمتاز بأنه يورد أمثلة كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف وشعر البلغاء ونثرهم ، كقوله في حذف المفعول به :

وحذف المفعول به كثير ، وهو في ذلك على نوعين :

أحدهما أن يحذف لفظا ، ويراد معنى وتقديرا .

والثاني : أن يجعل بعد الحذف نسيا منسيا ، كأن فعله من جنس الأفعال غير المتعدية ، كما ينسى الفاعل عند بناء الفعل للمفعول به .

فمن الأول قوله تعالى « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » وقوله « لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » لأنه لا بد لهذا الموصول من أن يرجع إليه من صلته مثل ما ترى في قوله تعالى « الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ الْمَسَّ »، وقرئ قوله تعالى : « وما حملته أيديهم وما حملت »

ومن الثاني قولهم : فلان يعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ، ومنه قوله عز وجل : « وَأَصْلِحْ لِي ذُرِّيَّتِي » وقول ذي الرمة

وإن تغتذر بالمحل من ذي ضروعها إلى الضيف يجرّح عراقيبها نصلي<sup>(١)</sup>  
ولقد شرحه وعلق عليه كثير من النحاة<sup>(٢)</sup>، مثل أبي البقاء العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ واسم شرحه الإيضاح ، ومثل ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) وشرحه اسمه الإيضاح أيضاً ، وعلى هذا الشرح حواش لآخرين.

وأكثر شراح المفصل شهرة موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الحلبي المولود بحلب سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) درس النحو والحديث بحلب ودمشق والموصل ، وتوفى سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) وتلمذ عليه ابن خلكان سنة ٦٢٦ هـ ، ٦٢٧ هـ وقال إنه جبة في الأدب .

ولابن يعيش هذا مؤلفات منها حاشية على شرح ابن جى على ( تصريف ) المازني ، وشرح واف على ( المفصل ) عارض فيه الزمخشري في كثير من المواضع . وقد تحدث ابن يعيش عن الباعث له على شرح المفصل ، فقال : لما كان الكتاب الموسوم بالمفصل من تأليف الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، رحمه الله ، جليلاً قدره ، نابهاً ذكره ، قد جمعت أصول هذا العلم فصوله ، وأوجز لفظه فتيسر على الطالب تحصيله ، إلا أنه مشتمل على ضروب ، منها لفظ أغربت عبارته فأشكل ، ولفظ تتجاذبه معان فهو مجمل ، ومنها ما هو

(١) الفصل ٣٩/٢ . يجرّح : المراد يجرّحها

(٢) كشف الظنون ٤٨٨/٢ — ٤٨٩

بادر للأفهام إلا أنه خال من الدليل مهمل ، استخرت الله تعالى في إملاء كتاب  
أشرح فيه مشكله ، وأوضح مجمله ، وأتبع كل حكم منه حججه وعقله

ولا أدعى أنه — رحمه الله — أخل بذلك تقصيرا عما أتيت به في هذا  
الكتاب ، إذ من المعلوم أن من كان قادرا على بلاغة الإيجاز كان قادرا على  
بلاغة الإطناب <sup>(١)</sup> .

وقد طبع هذا الشرح في ليبسيك من سنة ١٨٨٢ إلى ١٨٨٦ م ثم طبع  
بإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة في عشرة أجزاء .

## (٢)

### مقدمة الأدب

قسم هذا الكتاب خمسة أقسام :

القسم الأول في الأسماء ، فذكر المفردات وجموعها التكميرية ، مثل وقت  
وأوقات ، وحين وأحيان ، وأجل وآجال ، وأوان وآونة وأيامين ، ودهر  
وأدهار وأدهر ، ونبت ونبات ، وعشب وعِشَاب وأعشاب ، ومزرعة ومزارع ،  
وسنبلة وسنابل ، وهكذا ، مراعيًا موضوعات عامة لكل طائفة من الكلمات .

والقسم الثاني في الأفعال ، مثل : هَنَأَ الطعام يَهْنِئُهُ وَيَهْنُوهُ وَيَهْنَاهُ ،  
وهِنْئُهُ يَهْنُوهُ هُنُوًّا ، وهنأ البعير بالقطران يَهْنِئُهُ وَيَهْنُوهُ هَنَأً وهو الهنأ .

والقسم الثالث في الحروف ، فتكلم عن الحروف ، وعملها في الأسماء  
والأفعال ، وعقد لذلك فصولا ، منها فصل في الحروف التي تنصب الاسم  
وترفع الخبر مثل : إن زيدا منطلق ، بلغني أن زيدا منطلق ، كأن زيدا الأسد ،  
ما جاءني زيد لكنني عمرا حاضر ، ليت زيدا خارج ، لعل عمرا حاضر ، فإذا

اتصل بها ( ما ) ارتفع الاسمان كقولك : إنما زيد منطلق وكذا الباقي .  
القسم الرابع في تصريف الأسماء ، فتكلم عن حركات الإعراب وحركات  
البناء ، وعن التذكير والتأنيث . والنسب والتصغير . الخ .  
القسم الخامس : في تصريف الأفعال ، فعرض للمبنى للفاعل ، والمبنى  
للمفعول ، وللصحيح والمعتل ، وللتعجب ، ولأسم الفاعل وأسم المفعول . الخ .  
والكتاب عربي - فارسي في قسميه الأولين ، أما الأقسام الثلاثة الباقية  
ف عربية خالصة .

ويبدو من هذا التعريف الوجيز أن الكتاب نحو ولغة ، ولكن النحو  
أغلب . وقد أهداه إلى الأمير الأجل بهاء الدين علاء الدولة أبي المظفر أئسوز  
ابن خوارزم شاه ، ووصفه بقوله : « غاية لذته في مجالسة الأفاضل ، وقصارى لهوه  
في منادمة الأماثل ، ولا يزال ظل كرمه الواسع عليهم ممدودا ، وجناحه بإنعامه  
القائض تجودا ، وصلاته وخلعه مترادفة عندهم متوالية ، رائحة إليهم غادية . وقد  
رسم لى أمره العالى — زيد علوا — بتحرير نسخة من كتاب مقدمة الأدب  
لخزانة كتبه المعصورة ، ففعلت على رسمه ، وجعلت الكتاب مرسوما  
باسمه <sup>(١)</sup> »

(٣)

### الأنموذج

هذا كتاب موجز جداً فى النحو ، اقتضبه من الفصل ، ويظهر أنه أراد به  
للبتدئين ، عدد صفحاته ثلاث وعشرون صفحة .

وحسبنا هذه الإشارة ، لأن التفصيل فى هذا يحتاج إلى دراسة خاصة .



## الفصل التاسع

# في حديث النثر

مارس الزمخشري النثر الفنى فى هذه الكتب الثلاثة : نوابغ الكلم ،  
ومقامات الزمخشري ، وأطواق الذهب .

وله نثر فنى فى مقدمات كتبه الأخرى وفى ثنايا بعضها ، وبخاصة الكشف ،  
وفى بعض فصول كتابه ربيع الأبرار .

أما موضوعاته فتدور حول الوعظ والإرشاد والدعوة إلى التحلى بالتقوى  
ومكارم الأخلاق .

وأما أسلوبه فالصبغة العامة له مجازاة كتاب عصره فى الكلف بالسجع ،  
وتكلف المحسنات ، والجنوح إلى حل المنظوم ، والتلاعب بالألفاظ الاصطلاحية .

ولقد كان المأمول من أبى القاسم أن يتحرر من هذه القيود التى كبلت  
النثر الفنى منذ القرن الثالث الهجرى إلى القرن العشرين ، لكنه لم يتحرر منه ،  
مع أنه قال فى مقدمة المقامات<sup>(١)</sup> : ولتعلم أن ماسماه الناس البديع ، من تحسين  
الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع ، لا يملح  
ولا يبرع حتى يوازى مصنوعه مطبوعه ، وإلا فما قلق فى أماكنه ، ونبا عن  
موافعه ، فنبوذ بالعراء ، ، مرفوض عند الخطباء والشعراء .

على أن بعض سجعاته حلوة الوقع ، لا يبدو عليها استكراه ، وبعض

محسناته أسعفت بها المهارة واللباقة فجاءت كأنها عفو الخاطر ، ووليدة المصادفة ، مثل قوله : « ألا إن اتقاء المحارم ، من أجل المكارم ، فاتقها إما لكرم الغريزة ، وإما للتوقف عند حدود الشارع ، وتخوف الزواجر والقوارع »<sup>(١)</sup>.

وقوله : « يا أيها المستعدي ، حسبك ، فبئس الكسب كسبك ، لا يُخلق الديباجة مثل التعرض للحاجة ، فليرقع اليسير خَصَّتكَ<sup>(٢)</sup> ، ولتكن القناعة حصتك ، وأقلل في الناس طمعك ، واستدِمَّ فضل الله معك<sup>(٣)</sup> » .

وبكفي أن أذكر بعض الأمثلة من كلفه بالسجع والمحسنات المقصورة المثقلة ببعض المفردات اللغوية التي لا باعث على استعمالها إلا الجنوح إلى الإغراب ، أو الدلالة على الإحاطة والمقدرة ، على حين أن غيرها أجمل منها وقعاً ، وأوضح دلالة ، وأثرى معنى .

من ذلك قوله في مقامه العزلة : « قاتل الله بنى هذه الأيام ، حوارهم غَوَارَ<sup>(٤)</sup> ونِقَالَهُمْ نِقَارَ<sup>(٥)</sup> . . . . . بينما أنت في خلواتك إذ فوجئت بمُثَافَنَةِ بعضهم ، من الذين أخذك الله بيفضهم » . . .

فهو يتعسف في تعبيره ليسجع وليجانس بين حوار وغوار ، وبين نقال ونقار ، ويستعمل كلمة مُثَافَنَةِ على ثقلها .

(١) المقامات ٥٦

(٢) الخصة : الخصاصة الفقر ، وقال في الأساس : سمعت أهل السراة يقولون : رفع الله خَصَّتَكَ .

(٣) أطباق الذهب ٣٢

(٤) الغوار : الفاورة

(٥) النقال : مناقلة الكلام . النقار : المناقرة والتجريح

ويقول في المقامة نفسها<sup>(١)</sup> : « استبقما إلى غاية الغواية مُعْتَقِنَيْن ، وترديتا في هوة الرأي مُعْتَقِنَيْن<sup>(٢)</sup> » .

والتكلف واضح في استعمال معنقين ومعتنقين لضمان السجع والجناس .  
ويقول في مقامة العمل<sup>(٣)</sup> :

« إن ذكر النثر فلو رآه ابنُ لسانِ الحُمْرَةِ حمرة لسانه تجلّش وما بهش<sup>(٤)</sup> » .

فهو يستعمل (راء) بدلا من رأي ، ويستعمل بهش ليجانس بينها وبين جهش ، ويمثل بشخص غريب الاسم ، غير مشهور بالبلاغة إلى درجة أن يضرب به المثل .

ويستعمل في هذه المقامة في استعمال كلمات أربع متصلة بالقوس ، فيقول : « متى نظر إلى الرّامة مُوْتَرِينَ مُنْبِضِينَ<sup>(٥)</sup> مُسَدِّدِينَ غير مُخْبِضِينَ<sup>(٦)</sup> أقبل على مفلاة الغم يتقلّى ، وبجمرة الفيظ يتصلّى » والتكلف بين في تتابع هذه الكلمات .

على أنه كتب خمس مقامات مثقلة بأصطلاحات نحوية وعروضية وغيرها ، سأعرض لها فيما بعد .

وهذا النثر في كتبه : نوابغ الكلم ، ومقامات الزمخشري ، وأطباق الذهب ، وربيع الأبرار .

(١) مقامات الزمخشري ٧٢

(٢) معتنقين : مسرعين

(٣) المقامات ١٠١

(٤) جهش : فزع أو هرب . بهش : هش وارتاح . ابن لسان الحمرة على وزن

سكرة خطيب بليغ نسبة اسمه عبد الله بن حصين أو ورقاء بن الأشقر ( القاموس مادة حر ) .

(٥) منبضين : جاذبين أوتار القسي

(٦) مخبضين : ساقطه سهامهم

(١)

## نوابغ الكلم

أما نوابغ الكلم فهي حكم قصار متوالية موجزة أقصى إيجاز ، مسجوعة  
سجعا ملتزما ، لا ينتظمها موضوع أو فكرة ، كقوله : العرب نبع صلب  
المعاجم ، والغرب <sup>(١)</sup> مثل للأعاجم .

إذا قلت للأنصار كلت الأبصار .

لا تمش بالريية مهينمآ <sup>(٢)</sup> ولا تنس أن عليك مهينمآ .

صنوان من منح سائله ومن ، ومنع نائله وضن .

كم رأيت من أعرج في درج المعالي أعرج <sup>(٣)</sup> ، ومن صحيح القدم ليس له في  
الخير قدم .

قد جمع الأصل والفرع من تبع النقل والشرع .

رُبَّ صَدَقَةٍ مِنْ بَيْنِ فَكِّكَ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ مِنْ بطن كَفِّكَ .

لن يسود النِّقَارُ <sup>(٤)</sup> ما اسودَّ القار .

أم الزائر <sup>(٥)</sup> نزور <sup>(٦)</sup> ، وأم النابح نثور <sup>(٧)</sup> .

رب كلمة هي عند الناس فضيحة ، وهي عند الله فضيحة .

---

(١) الغرب : نوع من الشجر سهل الكسر

(٢) المهينة : الصوت الحنفى

(٣) أعرج ( الثانية ) : أسعد وأرق

(٤) النِّقَار : الواشى العائب النمام

(٥) الزائر : الأسد

(٦) نزور : قليلة للولد

(٧) النابح : الكلب . نثور : كثيرة الأولاد .

(٢)

المقامات

وأما المقامات فقد ألفها سنة ٥١٢ هـ ، لأنه قال إنه أصيب في تلك السنة بالمرض الناهكة التي سماها المنذرة ، فأخذ على نفسه الميثاق إن من الله عليه بالصحة ألا يطأ عتبة السلطان ولا أعوانه ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ، وأن يعف عن التطلع إلى عطايهم ، ويجتهد في محو اسمه من الديوان ، ويبتهل إلى ربه ويتنسك<sup>(١)</sup> .

وكان تأليفها أو شرحها بعد نوابغ الكلم ، لأنه شرح كلمة نقار في صفحة ٧٢ من المقامات ، وقال : وفي نوابغ الكلم : لن يسور النَّقَّار ما اسود القار ، وشرح كلمة ثور في صفحة ٢٣٠ فقال : وفي النوابغ أم الزائر نزور ، وأم النابح ثور<sup>(٢)</sup> . ويفهم مما ذكره في الشرح أن تأليفها أو شرحها كان بعد الكشف<sup>(٣)</sup> ، وكان بعد الفائق في غريب الحديث<sup>(٤)</sup> .

ويظهر أنه كتبها في مكة ، لأنه أشار إلى البيت العتيق بقوله : أسأل الله أن يفعم لك سِجَال النعم ، وبعينك على إفادة أهل الحرم ، ويكتبك بركة هذا البيت العتيق في زمرة العتقاء من النار<sup>(٥)</sup> .

وهي خمسون مقامة ، موضوعها النصيح والإرشاد والعظة ، موجهة إلى نفسه ، مصدره كل منها بقوله : يا أبا القاسم . ولكل منها عنوان مثل : مقامة المرشد ، مقامة التقوى ، مقامة الرضوان ، مقامة الزهد ، مقامة الصمت ، مقامة القناعة ، مقامة العفة ، مقامة التوحيد ، مقامة الشهامة ، مقامة العزم ، مقامة أيام العرب .

(١) المقامات ٦ (٢) سبق شرح الكلمات في نماذج نوابغ الكام

(٣) شرح المقامات ١٠٥ (٤) شرح المقامات ٥٥

(٥) مقدمة المقامات ٣

وهي وإن خالفت مقامات الحريري في اللوحوعات والغاية فإنها محاكاة لها في الأسلوب المسجع الحافل بالمحسنات .

وقد شرحها الزمخشري نفسه شرحا مفصلا ، تعرض فيه للغة والبلاغة والنحو ، واستشهد بكثير من آيات القرآن الكريم والحديث النبوي وشعر العرب وأمثالهم وأخبارهم ، كقوله<sup>(١)</sup> :

الطائر يحى بيضته ويرفرف عليها ، فضرِب مثلا لما يذب عنه الإنسان من حوزته وحقيقته ، فيقال فلان يحى بيضته ، ولوقيل فلان يرفرِف بِجناحه على بيضة الإسلام لكان مجازا مرشحا .

فإن قلت : ما بالهم قالوا : أذل من بيضة البلد مع قولهم أعز من بيضة البلد ؟ قلت : هي بيضة النعامة ، وأضيفت إلى البلد وهي المفازة ، لأنها تباض فيها ، وأما تركها فتحضنها أخرى ، فلما كانت متروكة من ناحية محضونة من أخرى وصفت بالعزة والذلة ، فقيل :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته ما أقام الروح في جسدي

لكن قاتله من لا يعاب به وكان قدما يسمى بيضة البلد

والقاتل أخت عمرو بن ود في علي رضي الله تعالى عنه وقتله أخاها .

وقيل المراد بالبيضة التي هي مثل في الذل الكمأة البيضاء ، لأن الأرض تبيضها ، أو تشبيها بالبيضة ، فهو كقولهم أذل من فقغ بقرقر .

وقوله في شرح « استنبق من الدهش » إنها كلمة موضوعة ، استنقل ، من باقل المضروب به المثل في العي ، قيس على استنوق الجمل ونظائره ، نحو استنبط

العرب ، واستعرب النبط<sup>(١)</sup> . ولكن لم يذكر هذا الاستعمال في أساس البلاغة .

وهذه نماذج من المقامات

١ — قال في مقامة العزلة<sup>(٢)</sup> :

يا أبا القاسم، أزل نفسك عن صحبة الناس واعزِّلها ، وانت فرعة من فروع الجبل فانزلها ، ولذَّ ببعض الكهوف والغيوان ، بعيدا من الرفقاء والجيران ، حيث لا تعلق طرفك إلا بسوادك<sup>(٣)</sup> ، ولا تجري مؤامرتك<sup>(٤)</sup> إلا مع فؤادك ، ولا توصل إلى سمعك إلا همسك ومناجاتك ، وإلا جوارك<sup>(٥)</sup> ومناداتك . . .

قاتل الله بنى هذه الأيام ، فإنهم طلائع الشرور والآثام ، حواريهم غوار ، ونقاهم<sup>(٦)</sup> نقار ، ووافقهم نفاق ، تسلق بالسنتهم الأعراض ، كما ترشق بسهامهم الأغراض<sup>(٧)</sup> . . . .

٢ — ويختم بعضها بشعر من إنشائه ، كقوله في مقامة الزهد<sup>(٨)</sup>

طوبى لعبد بحبل الله مُمتَصِّةً      على صراط سوى ثابتٍ قدِّمةً  
رث اللباس جديد القلب مستر      في الأرض مشتهر فوق السماء سِمةً<sup>(٩)</sup>  
إذا العيون اجتلتته في بذاذته      تعلو نواظرها عنه وتقتحمة<sup>(١٠)</sup>

(١) المقامات ١-٨      (٢) المقامات ٧١

(٣) السواد : الشخص      (٤) المؤامرة : المشاورة

(٥) الجوار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة ، وفي التنزيل (إذ هم يحأرون)

(٦) نقاهم : مناقلتهم الكلام . نقار : مناقرة ينقر بعضهم بعضا بالقب ، وفي نوابغ الكلم لن يسود النقار ما اسود القار .

(٧) تسلق : تضرب . قال تعالى : سلقوكم بالسنة حداد

(٨) المقامات ٢٥

(٩) السم : الاسم ومعنى البيت مبنى على قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كونوا جدد القلوب خلقان الثياب تخفون في الأرض تعرفون في السماء .

(١٠) البذاذة : ترك التكلف في الطعام والملبس .

ما زال يستحق الدنيا بهِمَّتِهِ حتى ترقّت إلى الأخرى به همه  
فذاك أعظم من ذى التاج متكئاً على النارق مُحْتَفّاً به حشمه  
٣ — وفي نهايتها خمس مقامات ، ملاً الأولى باصطلاحات نحوية ، وسماها  
(مقامة النحو) وملاً الثانية باصطلاحات عروضية ، وسماها (مقامة العروض)  
وملاً الثالثة باصطلاحات القافية وسماها (مقامة القوافي) والرابعة اختص بها  
اصطلاحات ديوانية وسماها (مقامة الديوان) مثل الطّساسيج<sup>(١)</sup> والتّأريج<sup>(٢)</sup>  
والروزنامج<sup>(٣)</sup> والأسكرار<sup>(٤)</sup> ، والخامسة قصرها على ذكر أيام العرب وسماها  
(مقامة أيام العرب) وهذه المقامات الخمس مثقلة بالتكلف والتمخل ، وإن دلت  
على مهارة في اللعب بالألفاظ .  
فمن مقامة النحو قوله<sup>(٥)</sup> :

يا أبا القاسم أعجزت أن تكون مثل همزة الاستفهام ، إذ أخذت على ضعفها  
صدر الكلام ؟ ليتك أشبهتها متقدماً في الخير مع المتقدمين ، ولم تشبه في  
تأخرك حرف التأنيث والتنوين ، ضارع الأبرار بعمل الثواب الأواب ،  
فالفعل لمضارعته الاسم فاز بالإعراب ... ولا يكون ضميرك عن الهم الديني  
سالياً ، كما لا يكون أفعل من الضمير خالياً ...<sup>(٦)</sup>  
ومن مقامة العروض قوله<sup>(٧)</sup> :

يا أبا القاسم ، لن تبلغ أسباب الهدى بمعونة الأسباب<sup>(٨)</sup> والأوتاد<sup>(٩)</sup> أو يبلغ

(١) الطّساسيج : أقساط السواد سميت بأقسط الثقال وهو أربعة وعشرون طسوجاً .  
(٢) التّأريج : تعريب تاريخ وهو المظلم وهو سواد يسيل للعقد إذا احتاجوا إلى حل  
الأبواب

(٣) الروزنامج : تعريب روزنامه وهو ما يكتب فيه ما يجري كل يوم من استخراج وطفة

(٤) الأسكرار : كتاب يكتب فيه عدد الحرائط والكتب الواردة والنافذة .

(٥) المقامات ١٨٠ (٦) شرح بتفصيل المراد من هذه المصطلحات

(٧) المقامات ١٨٦

(٨) السبب اسم لحرفين وهو سبب خفيف نحو قل وسبب ثقل نحو ريم ...

(٩) الوند اسم لثلاثة أحرف نحو نعم ونحو قال ...



أسباب السماوات فرعون ذو الأوتاد . إن الهدى في عروض سوي علم  
العروض<sup>(١)</sup> في العلم والعمل بالسنن والفروض ، ما أحوج مثلك إلى الشغل  
بتعديل أفاعيله ، عن تعديل وزن الشعر بتفاعيله<sup>(٢)</sup> .

(٣)

### أطواق الذهب

وأما أطواق الذهب في المواغظ والخطب فإنه مئة مقالة ، كل منها في بضعة  
أسطر بغير عنوان ، أنشأها في مكة قبل تأليف الكشف ، قال في المقدمة :  
« أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها  
ما وجب للجار ، من حق الدمام والذمار ، لأنها وجدت في حرمك المطهر ،  
وولدت في جحر بيتك المستر »<sup>(٣)</sup>

وقال الميرزا يوسف خان الأشتياني في شرحه لها : يريد أنه أنشأ تلك المقالات  
بمكة أجلها الله تعالى ، وذلك أنه كان يطوف بيت الله ، وإذا فرغ من الطواف  
ألف مقالة ، ثم يقوم ويطوف وينشئ بعد الفراغ ، وما زال على ذلك إلى أن  
بلغت مئة كاملة<sup>(٤)</sup> .

وشرحها أيضاً الشيخ يوسف أفندي الأسير .

ثم ألف شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله المغربي الأصفهاني كتابه أطباق

(١) العروض : الجانب والناحية . وسمى هذا العلم بالعروض لأنه ناحية من نواحي العلم ،  
أو باسم الجزء الأخير من أجزاء الصراع الأول ، كما قل لعلم المواريث علم الفرائض لقول الفرضيين  
فريضة الزواج كذا وفريضة الأم كذا ، وقيل العروض عمود البيت وقيل السبعة التي في وسطه ،  
أخذ الخليل هذه الأسماء من نيت العرب وهي السبب والوتد والفاسلة والعروض والضرب  
نشيها لبيت الشعر بيت الشعر .

(٢) تفاعيل الشعر سبعة خماسيان وهما فعولن وفاعلن وخمسة سباعية وهي الأفاعيل  
والأركان والمضادات والمساطع والأوزان

(٣) أطواق الذهب ٩ (٤) فلائد الأدب في شرح أطواق الذهب ٩

الذهب على غرار أطواق الذهب ، وقال إني حذوت حذوه ، واقتفيت أثره وخطوه <sup>(١)</sup> .

ثم حاكها السيد توفيق البكري في كتابه صهاريج اللؤلؤ ؛ ثم أحمد شوقي في كتابه أسواق الذهب ، مع اختلاف الموضوعات وتفاوت العبارات .  
وهذه نماذج من أطواق الذهب :

١ — من عرف منهل الذل فعافه ، استعذب تقيع العز وذعافه <sup>(٢)</sup> ، ومن لم يصطل بحجر الهيئاء لم يصل إلى برّ المنعم ، ومن لم يصبر على براثن أسد اللقاء لم يصب أطرافاً كالعم ، <sup>(٣)</sup> ومن لم يقض عليه عشر يقذه <sup>(٤)</sup> ، لم يقبض له يسر ينقذه <sup>(٥)</sup> .

٢ — الدنيا أدوار ، والناس أطوار ، فالبس كل يوم بحسب ما فيه من الطوارق <sup>(٦)</sup> ، وعاشر كل قوم بقدر مالهم من الطرائق <sup>(٧)</sup> ، فالأيام لا تجري على وفق مرادك ، والأيام لا تسرى على طبق تأويبك وإسارك <sup>(٨)</sup> . . . . <sup>(٩)</sup>

٣ — يابن آدم ، أصلك من صلصال كالفخار ، وفيك ما لا يسمعك من التيه والافتخار ، تارة بالأب والجد ، وأخرى بالدولة والجد ، ما أولاك بالآلا تصغر خديك ، ولا تفتخر بمجدك . تبصر خليلي ممّ مَرَكبك ، وإلام منقلبك .  
فخفف من غلوائك ، وخلّ بعض خيلائك <sup>(١٠)</sup> .

(١) أطواق الذهب ٧ (٢) الذعاف : السم الشديد

(٣) العم : شجر لين الأغصان تشبه به بنان الحسان .

(٤) يقذه : يوجعه

(٥) أطواق الذهب ٤٢ (٦) الطوارق : الشئون والأحداث

(٧) الطرائق : المذاهب

(٨) التأويب : السير من أول النهار . الإسآد : سير لإقامة فيه .

(٩) أطواق الذهب ٦١ (١٠) أطواق الذهب ١٢

٤ — العلماء السوء جمعوا عزائم الشرع ودَوَّنوها ، ثم رخصوا فيها لأمراء السوء وهونوها ، ليتهم إذ لم يراعوا شروطها لم يعوها ، وإذ لم يُسمعوها كما هي لم يجمعوها <sup>(١)</sup> .

٥ — ذو الحقيقة لا يفرُّه ديباج الملوك ، ولا يعبأ إلا بعبادة الصُّغُلوك ، يقول : وراء الديباجة ليل دامس ، وتحت العبادة نهار شامس <sup>(٢)</sup> .

(٤)

### النصائح الصغار والبرالغ الكبار

مجموعة من النصائح والحكم في صور مقالات قصار عددها نحو التسعين . منها قوله :

١ — القاضي تعمل فيه الرشوة ، ما لا تعمل في الشارب النشوة ، إن أنته فسكران مثلاً وطرباً ، وإن فاتته فشكلاً ونَيْلاً وحرَباً ، كأنه لم يسمع أن الرشوة من السُّحت ، وأن السحت مأخوذ من السَّحت <sup>(١)</sup> .

٢ — من لم يحفظ ما بين فكَّيه ، ظل يُقَلَّب كَفَّيه ، وبات يتلمل على دَفَّيه <sup>(٢)</sup> ، حزنا على ما فرط فيه من التحفظ ، وأسفاً على ما فرط منه من التَّلَفُّظ ، ولو كان اللسان مخزوناً لم يكن الفؤاد مخزوناً ، قلما يحرس مهجته من لم يحرس لهجته ، ولن نجد على السر أميناً ، إلا بكل أمانة قينا .

(١) أطواق الذهب ٨١

(٢) شامس : مشرق . أطواق الذهب ١٤٥

(٣) السحت : بضم السين الحرام وفتحها الاستئصال

(٤) الذف : الجنب

(٥)

## ربيع الأبرار

وأما ربيع الأبرار فقد ألفه بعد نوابغ السكم وبعد ديوان شعره وبعد ديوان المنشور<sup>(١)</sup>.

وموضوعه كما قال في مقدمته « إجمام خواطر الناظرين في الكشف عن حقائق التنزيل ، وترويح قلوبهم المتعبة بإجالة الفكر في استخراج ودائع علمه وخباياه ، والتنفيس عن أذهانهم المسكدودة باستيضاح غوامضه وخفاياه » .

وقد عرض فيه لكثير من الموضوعات مثل الأوقات وذكر الدنيا والآخرة ، والسماء والكواكب ، وذكر العرش والكرسي ، والسحاب والمطر والثلج والرعد والبرق وما يتصل بذلك من ذكر الاستمطار وغيره ، والهواء والريح والنسيم والحر والبرد والظل ، والنار وأنواعها وأحوالها وذكر نار جهنم وأحوالها والسراج والشمعة ونحو ذلك ، والأرض والجبال والحجارة والحصى وجواهر الأرض والمفاوز وذكر الرجفة والخسف ، والماء والبحار والأودية والأنهار والعيون والآبار وما اتصل بذلك وناسبه من ذكر السفن والسباحة وغيرها ، والشجر والنبات والفواكه والرياض والبساتين وذكر الجنة ، والبلاد والديار والأبنية وما يتصل بها من ذكر العمارة والخراب وحب الوطن ، والجنون والحق والسفه والغفلة والحزن والعجلة وترك الأناة والفضول ، والرسوم في معاشرة الناس وعلاقاتهم ومصالحهم ومجالتهم ومراسلتهم وذكرهم وزيارتهم ، وذكر السلام والتحية وآداب النفس وما يتصل بذلك ، والقصاص وما ورد من حكاياتهم وملحهم ، والمتصوفة وما جاء في أكلهم ورزقهم ، والمنطق وذكر

---

(١) ديوان الشعر ٢٣ ، ٢٤ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٧٠

الخطب والشعر والفصاحة والبلاغة والعي والإيجام والإيجاز وما اتصل بذلك ،  
والنساء ونكاحهن وطلاقهن وخطبتهن والإعراس بهن ومعاشرتهن وما يحمد  
ويذم منهن .

وهو يعتمد في هذا الكتاب على النقل من بعض كتبه ، ومن الجاحظ ،  
وغيره ، ويذكر كثيراً من الأحداث والأخبار والأشعار ، وما روى عن  
السابقين فيها وفيما اتصل بها ، فنجد كثيراً من الأسماء تتردد مثل عمر بن  
الخطاب وابن عباس وعلي بن أبي طالب والحدري والحسن وأنس بن مالك  
ووهب بن منبه وأحمد بن يوسف والصنوبري والمأمول والفرزدق وابن مسعود  
وابن الرومي والأصمعي والحجاج وعبد الملك بن مروان وبديع الزمان الهمداني  
وسهل بن هارون وأنوشروان الخ .

ومن هذا ينين أن الكتاب مجموعة من المعارف والطرائف أكثره  
بعبارات غيره . وهذه نماذج منه .

١ - قال في معاشرة الناس وملاقاتهم ومصالحتهم ومراسلتهم وذكرهم  
وزيارتهم <sup>(١)</sup> .

جابر رضى الله عن النبي صلى الله عليه وسلم : من أخلاق النيين والصديقين  
البشاشة إذا تراؤا ، والمصافحة إذا تلاقوا ، والزائر في الله حقاً على المزور  
إكرامه .

كان القعقاع بن ثور الهذلي إذا جالسه رجل جعل له نصيباً من ماله ، وأعانه  
على حوائجه ، وعداً إليه شاكرًا .

عن محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان قال : بعثنى أبي إلى المعتضد في

شيء ، فقال لي : اجلس . فاستعظمت ذلك ، فقلت إنه لا يجوز ، فقال لي :  
يا محمد ، إن أدبك في القبول مني خير من أدبك في قيامك .

قال رجل لأبي خليفة الجمحي : ما أحسبك تنسبني ، قال : وجهك يدل  
على علو نسبك ، والإكرام يمنع من مسألتك ، فأوجد السبيل إلى معرفتك .  
قال أبو تمام :

يحميه لَأُلاؤه \* وَلَوْ ذَعِيَّتُهُ      من أن يقال بمن أو ممن الرجل ؟  
وفي معناه

أرم بعينيك في مفارقنا      فمُعَقِدِ التاج غير ملتئم  
المعري :

ولو كتموا أنسابهم لَعَزَّتْهُمْ      وجوهٌ وفعلٌ شاهدٌ كل مشهد  
ابن عباس : جليسي علي ثلاث : أن أرميه بطرفي إذا أقبل ، وأوسع له  
إذا جلس ، وأصفي إليه إذا حدث .

زار الخليل بعض تلامذته فقال له : إن زرتنا فبفضلك ، وإن زرتناك  
فلفضلك ، فلك الفضل زائرا ومزورا .

أراد رجل أن يقبل يد هشام بن عید الملك فقال : لا تفعل ، فإنما يفعله  
من العرب الطَّمِعُ ومن العجم الطبيعة .

قال رجل للنصور : أعطني يدك أقبليها ، قال : إنا نصونك عنها ، ونصونها  
عن غيرك .

سأل بعض أصحاب أبي حنيفة الشافعي عن مسألة ، فأجاب عنها ، فقال له :  
أخطأت . فقال : لو كنت مكانك ثم كلمتك بمثل ما كلمتني لاحتجت إلى أدب .

كان أردشير إذا تمطى قام سُماره ، وكان قباز إذا رفع رأسه إلى السماء قاموا .  
 بهرام جور : إذا لم تصد قلوب الأحرار بالبشر والبر فبأى شيء تصيدها ؟  
 معاوية : نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط ، وأكلت الطعام  
 حتى لا أجد ما أمرُّ به ، وشربت الأشرية حتى رجعت إلى الماء ، وركبت المطايا  
 حتى اخترت نعل ، ولبست الثياب حتى اخترت البياض ، فما بقي من اللذات  
 ما تنوف إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم .

ليد :

ما عاتب المرء اللبيب كنفه والمرء يصلحه المجلس الصالح  
 ٢ — وقال في القصص والمتصوفة (١) :

خباب بن الأرت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بني إسرائيل لما  
 قصوا هلكوا .

ابن عمر رضى الله عنه : لم يقص على عهد رسول الله ولا عهد أبى بكر ولا  
 عهد عمر وعثمان ، وإنما كانت القصص حين كانت الفتنة .

ابن المبارك : سألت الثوري : من الناس ؟ قال : العلماء ، قلت : من الأشراف ؟  
 قال : المتقون ، قلت : من الملوك ؟ قال : الزهاد ، قلت : من الغوغاء ؟ قال :  
 القصاص الذين يأكلون أموال الناس بالكلام .

وهب رجل لقاص خاتما بلا فص ، فقال : هب الله لك فى الجنة غرفة  
 بلا سقف .

قال ابن السَّمَّاك للمتصوفة : إن كان لباسكم هذا موقفا لسراتركم لقد أحببتم  
 أن يطلع الناس على سراتركم ، ولئن كان مخالفا لسراتركم لقد هلكتم .

قال بعضهم : قلت لصوفى بنى جبتك . فقال إذا باع الصياد شبكته فبأى  
 شيء يصيد ؟

٣ — وقال في النساء ومعاشرتهن<sup>(١)</sup> : —

عوتب الكسائي في ترك الزواج فقال : مكابدة العفة عنهن أيسر من الاحتياج لمصلحتهن .

قيل لأعرابي يجمع بين ضرائر : كيف تقدر عليهن ؟ قال : كان لنا شباب يطاوعهن علينا ، ومال يصورهن إلينا ، ثم قد بقي لنا خلق حسن ، فنحن نتعاشر به .

خطب بنت دقيانوس غنى وفقير ، فاختر الفقير ، فسأله الإسكندر ، فقال : كان الفتى جاهلا وكان يخاف عليه الفقر ، والفقير عاقلا فكان يرجي له الغنى .

قال مصعب لسكينة : أنت مثل البغلة لاتلدين . قالت : لا والله ولكن أبي كرمي أن يقبل لؤمك .

الأحنف : لأفنى تحمك في بدى أحب إلى من أئيم رددت عنها كفتا . قال عمر رضى الله عنه لرجل هم بطلاق امرأته وزعم أنه لا يحبها : أو كل البيوت تبنى على الحب ، فأين الرعاية والتدبم ؟ .

قال عبد الملك لابن الرقاع : كيف علمك بالنساء ؟ قال : أنا والله أعلم بهن ، وأنشأ يقول :

قُضَاعِيَّةُ الْعَيْنِينَ كَنْدِيَّةُ الْحَشَا      خُرَاعِيَّةُ الْأَطْرَافِ طَائِيَّةُ الْفَمِ

لَهَا حَكْمُ لَقْمَانٍ وَصُورَةُ يَوْسُفَ      وَمَنْطَقُ دَاوُدَ وَعِفَّةُ مَرْيَمَ

سئل المغيرة بن شعبه عن النساء ، فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء .

أبو عمرو بن العلاء عن رجل : لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدى منها . قيل : وكيف ؟ قال : أنظر إلى أبيها وأُمها فإنها نجى بأحدهما .



## الفصل العاشر

# في روض الشعر

خلف الزمخشري ديوان شعر في ١١٩ ورقة<sup>(١)</sup>، جمع قصائده استجابة لمشورة ابن وهاس كما ذكر في المقدمة .

فأما موضوعات هذا الديوان فاهمها :

١ — المدح ، ففيه مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> ، ومدائح لابن وهاس<sup>(٣)</sup> ، ولنظام الملك<sup>(٤)</sup> ، وللملك سنجر<sup>(٥)</sup> ، ولعبيد الله بن نظام الملك<sup>(٦)</sup> ، ولعبد الله<sup>(٧)</sup> ولعين الدولة<sup>(٨)</sup> ، ولجبر الدولة<sup>(٩)</sup> ، ولفتح المعالي<sup>(١٠)</sup> ، وللوزير محمد<sup>(١١)</sup> ، وللموفق<sup>(١٢)</sup> ، ولمحمد خوارزمشاه<sup>(١٣)</sup> ، ولمحمد بن أبي الفتح السلجوقي<sup>(١٤)</sup> ، ولبنى زريق بهمدان فقد زارهم أيام إقامته بالحجاز<sup>(١٥)</sup>

٢ — الشكوى من الزمان ومن الناس ومن معاندة الحظ .

٣ — الغزل .

---

(١) راجع مؤلفاته	(٢) الديوان ٨٩
(٣) الديوان ٢٧	(٤) الديوان ٩٤
(٥) الديوان ٢٠	
(٦) الديوان ٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٠٦	
(٧) الديوان ١٤ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٩٩ ، ١٠٥	
(٨) الديوان ١٥	(٩) الديوان ٢٢
(١٠) الديوان ٢٧	(١١) الديوان ٣٣
(١٢) الديوان ٧٤	(١٣) الديوان ٨٢ ، ١٠٦
(١٤) الديوان ٨٥	(١٥) الديوان ١١٠

- ٤ — الفخر .  
 ٥ — الحكمة .  
 ٦ — التزهيد .  
 ٧ — المراسلات والرد على الإخوان والشوق إليهم .  
 ٨ — الحنين إلى مكة .  
 ٩ — الرثاء ، كثرثائه لمحمد بن أرسلان<sup>(١)</sup> ولسترأج الدولة<sup>(٢)</sup> ولا بن سمعان<sup>(٣)</sup>

### خصائص شعره

١ — أما الطابع العام<sup>(٤)</sup> لشعر الزمخشري فإنه شعر عالم امتزجت نفسه بالحقائق العلمية وقضاياها ، وأخذ نفسه بمجد الحياة وواقعها ، فكان ينبوع عواطفه وشلاً تارة وناضبا تارة ، وقلما تفجر دافقا فياضا ، فجاء خياله من القريب الذي لا يخلق في الآفاق البعيدة ، وجاءت صورته تكريرا لما رسم سابقوه .  
 وأما أسلوبه فرصين جزل لا تحس فيه بضعف أو تهافت في أية قصيدة من قصائده .

٢ — وهو يبدأ بعض مدائمه بغزل تمهيدى لا حرارة فيه ، على طريقة كثير من القدماء ، كقوله في مدح الوزير مجير الدولة الأردستاني<sup>(٥)</sup> :

أيا حبذا سَعْدِي وَحُبِّ مَقَامِهَا      وَيَا حَبِذَا أَيْنَ اسْتَقَلَّ خِيَامِهَا  
 حَيَاتِي وَمَوْتِي قَرَبُ سَعْدِي وَبُعْدُهَا      وَعِزِّي وَذُلِّي وَضَلُّهَا وَانْصِرَامِهَا  
 سَلامَ عَلَيْهَا أَيْنَ أُمِيتَ وَأَصْبَحْتَ      وَإِنْ كَانَ لَا يُقْرَأُ عَلَى سَلامِهَا

(١) الديوان ١٦ ، ٣٢ (٢) الديوان ٣٦

(٣) الديوان ٧٠

(٤) حينما كنت أقرأ مخطوطة الديوان لأكتب في تفصيل عن شعر الزمخشري عرض على أحد أبنائي من طلبة الدراسات العليا أن يعد رسالته عن الزمخشري الشاعر وتحقيق ديوانه بإشرافي ، فاكثفت بهذه الإشارات .

(٥) إنباه الرواة ٢٦٧/٣ وقال إن الوزير خلع عليه وأعطاه فرسا وألف دبنار

(م ١٩ — الزمخشري)

رعى الله سرحاً قدرعى فيه سرحها ورؤض أرضا سام فيها سوامها<sup>(١)</sup>  
إذا سعبت سعدى بأرض ذيولها فقد أرغم المسك الذكى رغامها<sup>(٢)</sup>  
وإن مايست قضبان بان رأيتها تنكس واستعلى عليها قوامها  
وبمثل هذا الغزل بدأ مدحته لصدر الملك<sup>(٣)</sup>.

٣ - ويقدم لبعضها بالشكوى من سوء حاله، والفخر بعلمه وأدبه،  
والسخط على الدهر الذى جاد على الجهال، وبخل على العلماء، كقوله فى مدحة  
لنظام الملك<sup>(٤)</sup>:

خليلى هل تجدى على فضائلى إذا أنا لم أرفع على كل جاهل؟  
من الفبن ذو نقص يصيب منازلنا آخر الفضل محقوف بتلك الفضائل  
ومن لى بحقى بعد ما وفرت على أراذلها الدنيا حقوق الأماثل؟  
كذا الدهر كم شوهاه فى الحلى جيدها وكم جيد حسناء المقلد غاطل  
ومما شجاني أن غرمتنا قبي تغنى بها الركبان بين القوافل  
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى وسارت مسير النيرات رسائل  
ولى فى دقيق النحو والنقد منطق إذا قلته لم أبق قولاً لقائل  
غنى من الآداب لكننى إذا نظرت فمافى الكف غير الأنامل  
فيا ليتنى أصبحت مستغنيا ولم أكن فخر خورزم ورأس الأفاضل  
ويا ليتنى مريض صديق ومُسَخِّطٌ عدوى وأنى فى فهاهة باقل

(١) سرحها : لبلها وأنعامها . سام فيها سوامها : رعت فيها لبلها .

(٢) الرغام : التراب .

(٣) الديوان ١٢

(٤) الديوان ٩٤

فلست بفضل بالفلأولواني كقس إبادر أو كسحبان وائل  
ويصرح بطلب العطاء في بعض المدائح ، كقوله لنظام الملك<sup>(١)</sup> :

وكم قلت ألقى في وزارتك المنى وأدرك وحدي ما ارتجى كل أمل  
ولم أدر أن الأرذلين يرون ما تمنوا وأنى لست أحظى بطائل  
فوقع إلى هذا الزمان فإنه غلامك يجعلني كبعض الأراذل  
وقوله في مدح عبيد الله<sup>(٢)</sup> :

لقد ظفقت في نحمد البلاد وغورها فما كان إلا بالوزير مفرجى  
وما أرتجى إلا عطية كفه وهل غير هذى الكف كف لمرتجى ؟  
وقواه<sup>(٣)</sup> :

وابذل لأهل الفضل منك مودة فابن الفضائل لابنهن ودود  
ومتى بذلت لهم ودادا فليكن متخصما بزيادة محمود  
ونلاحظ أنه لم يقتصر على الطلب الصراح ، بل جهر بأن يؤثره وحده في  
قوله : « وأدرك وحدي ما ارتجى كل أمل » .

وطالب بأن يكون أعظم نوالا من سواه في قوله :

ومتى بذلت لهم ودادا فليكن متخصما بزيادة محمود  
وهو في هذا الطلب الصراح يشبه جريراً في قوله لعبد الملك بن مروان<sup>(٤)</sup> :

أغثنى يافداك أبي وأمي بسبب منك إنك ذو ارتياح  
سأشكر إن رددت علي ريشي وأنت القوادم في جناحي

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٢٢

(٣) الديوان ٣٥

(٤) الأغاني ٦٥/٥

وقوله لعمر بن عبد العزيز<sup>(١)</sup> :

إني لآمل منك خيراً عاجلاً والنفس مولمة بحب العاجل

والله أنزل في الكتاب فريضةً لابن السبيل وللفقير العائل

ويشبه المتنبي في قوله لكافور<sup>(٢)</sup> :

أبا لمسك هل في الكأس فضل أناله فإني أغنى منذحين وتشرّب

وهبت على مقدار كفى زماننا ونفسى على مقدار كفيك تطلب

وقوله له<sup>(٣)</sup> :

أرى لى بقربى منك عينا قريرة وإن كان قربا بالبعد يشاب

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب؟

وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب

٤ — ويرى فى حسن التخلص من الغزل التمهيدى إلى المدح ، فيصور

نفسه منهض الجناح من كثرة ما صوب الدهر إليه سهامه ، ولكنه صار فى

رعاية الأمير الذى يقيه سهام الدهر وخطوبه ، فيقول<sup>(٤)</sup> :

أزعموا السير بكرةً واستقلوا سقط الفيث حيث ساروا وحلوا

استقلوا فكيف لى بحياة ولقدِمتُ قبل أن يستقلوا

استحلوا دمي وفى صلاح ودم الصالحين لا يستحل

غلبتى الدئى وهن ضفاف ربما يقلب الأعز الأذل

واستنزلت سعاد منى رزينا ثابت الحلم والحليم يذل

(١) ديوان جرير ٤١٥

(٢) ديوان المتنبي ١٢٦/١

(٣) ديوان المتنبي ١٣٩/١

(٤) الديوان ١٠٢

لَا تُرَوِّعُكَ كِسْرَةٌ بِجَنَاحِي إِنَّمَا يُمدِّحُ البِيَانِي الْأَقْلَ  
عِجْمَتُ عودِي النَوَائِبِ قَدَمًا تِلْكَ آثَارُهَا عَلَى تَدَلُّ  
وَأَنَا الْيَوْمَ إِنِّ عَرَّتْنِي خُطُوتُ فَلْ أُنِيبَهَا الْأَمِيرُ الْأَجَلُ  
إِنَّمَا حَضَرَةُ الْأَمِيرِ لَمَنْ يَشْكُو صُرُوفَ الزَّمَانِ شَمْسٌ وَظِلُّ  
كَمَا يَحْسُنُ التَّخْلُصُ مِنَ الشُّكُوفِ إِلَى الْمَدْحِ ، فَإِنَّهُ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا  
نِظَامَ الْمَلِكِ <sup>(١)</sup> صُورَ آيَاتِهِ مِنْ تَعَاسَةِ حَالَتِهِ ، وَازْدَهَى بِثِقَافَتِهِ وَكِفَايَتِهِ ، وَعَجَبَ  
مِنَ التَّفَاضِي عَنْهُ ، وَالْحَنُو عَلَى غَيْرِهِ ، وَتَخْلَصُ مِنْ هَذَا إِلَى الْمَدْحِ بِقَوْلِهِ :

وَمَا حَقَّ مِثْلِي أَنْ يَكُونَ مُصَيِّعًا وَقَدْ عَظُمْتَ عِنْدَ الْوَزِيرِ وَسَائِلِي  
وَأَعْظَمَهَا أَنِّي نَسِيبُ نِصَابِهِ إِذَا عَرِضَتْ أَنْسَابُ هَذِي الْقِبَائِلِ  
وَقَدْ كَانَ يَرَعَى النَّاسَ حَقِّي قَبْلَهُ عَلَى عَدَمِ الْقُرْبَى وَبُعْدِ الْوَصَائِلِ

٥ - وَيَعْنِي بِالْمَحْسَنَاتِ ، كَمَا تَرَى الطَّبَاقُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي مِنَ الْفَرْزِ بَيْنَ حَيَاتِي  
وَمَوْتِي ، وَبَيْنَ قَرَبٍ وَبُعْدٍ ، وَعِزٍّ وَذُلٍّ ، وَوَصْلٍ وَانْصِرَامٍ ، وَكَأْتَرَى فِي الْبَيْتِ الثَّالِثِ  
بَيْنَ ( سَلَامٍ عَلَيْهَا ) وَ ( إِنْ كَانَ لَا يَقْرَأُ عَلَى سَلَامِهَا ) وَبَيْنَ أُمْسٍ وَأَصْبَحَتْ .  
وَتَجِدُ الْجَنَاسَ فِي الْبَيْتِ الرَّابِعِ بَيْنَ ( رَعَى اللَّهُ ) بِمَعْنَى حَفِظَ مِنَ الرِّعَايَةِ  
( رَعَى فِيهِ سَرَحَهَا ) مِنَ الرِّعَى وَالْأَكْلِ ، وَبَيْنَ ( سَرَحَا ) وَ ( سَرَحَهَا ) وَبَيْنَ  
( رَوْضٍ ) وَ ( أَرْضَا ) وَ ( سَامٍ ) وَ ( سَوَامٍ ) .

وَهَذَا الْكَلْفُ بِالْمَحْسَنَاتِ وَاضِحٌ فِي قَوْلِهِ يَمْدَحُ بَنِي زُرَيْرٍ <sup>(٢)</sup> :

كَمْ قَلْتُ فِي خُورَزْمَ عِنْدَ تَرَحُّلِي لِرُكَاثِي سِيرِي إِلَى هَمْدَانَا  
وَالِى الْكِرَامِ بَنِي زُرَيْرٍ لَمْ تَزَلْ تَجْفُو بَنَاتِ غَرِيرِ الْأَوْطَانَا <sup>(٣)</sup>

(١) سَبَقَتْ آيَاتٌ مِنْهَا فِي طَرِيقَتِهِ الَّتِي بَدَأَ بِهَا قِصَائِدَ الْمَدْحِ .

(٢) الدِّبَوَانُ ١٢٠ (٣) بَنَاتُ غَرِيرٍ : الطُّيُورُ

وبنو زرير ما تزرر ثيابهم إلا على المضبات من شهلانا  
٦ — وهو حين يعبر عن عاطفة صادقة جياشة يتحرر من المحسنات المتصيدة ،  
لأنه يندمج مع الفكرة أو مع الشعور ، كقوله في تصوير ضيقه بالإقامة في  
خوارزم<sup>(١)</sup> :

أحبُّ بلاد الله شرقاً ومغرباً إلى التي فيها عُذيت وليدا  
ولكن تواسى بالكرامة غيرها وهذي أرى فيها الهوان عتيدا  
وما منزل الإذلال للحر منزلاً وإن كان عيش الحرفيه رغيدا  
سأرحل عنها ثم لست براجع وأضربُ مرعى في البلاد بعيدا  
فلا كنت إن ضمتُ فيها ابنَ حرة ولا عشت بين الصالحين حميدا  
وقوله وهو قاصد مكة عازم على الإقامة بها حتى الموت<sup>(٢)</sup> :

قامت لتمنعي المسير تماضرُ أنى لها وغرارُ عزمي باترُ  
سيرى تماضر حيث شئتِ وحدتي أنى إلى بطحاء مكة سائر  
حتى أنيخ وبين أطاري فتى للكعبة البيت الحرام نجاور  
سأقيم ثم وثم تدفنُ أعظمي ولسوف يبعثنى هناك الحاشر  
وقوله في مدح ابن وهَّاس<sup>(٣)</sup> :

فتى هو حالٍ بالمعالي بأسرها وقد حليتُ منه المعالي بأوحدًا  
نجيبٌ نمتُهُ من ذؤابة هاشم نقيّاتُ أعراقٍ أطابته مؤلدا  
ولو شاء لم يمتدَّ نخبدُ هاشم نصابا كفاه بالنبوة محتدا

(١) الديوان : ٣٧ .

(٢) الديوان : ٤٢ .

(٣) الديوان ٢٨

وتقرأ من سيماء في قسمانه شهادة حق أنه سبط أحمد  
هو الحر ما أصدى إلى بيض معشر فأبصره إلا ثقته به السدى  
ولى منه نصع الجنب والعقدة التي أثبت أن يرى الرامون أوثق مفقدا

٧ — وقد يلجأ إلى المبالغة الدالة على نضوب العطفة ، كقوله في مدح  
الملك سنجر<sup>(١)</sup> :

سماء كل الناس كعبة سودد أهل الحوائج منهم حجاجها  
وكأنما السلطان سنجر كعبة للملك منتجب الملوك رتاجها  
ركب السياسة وهي أصعب مركب فتطامت لركوبه أنتاجها  
ألفته دونهم فما إجماعها إلا على يده ولا إنراجها  
لو أنه ركب النجوم لما نبت أفرادها عنه ولا أزواجها  
جهنم الحيا للعدا طلق إذا ضيفانه نزلت به أفواجها  
يخشى إليهم سنية بأنامل مثل البحار تلاطمت أمواجها  
تبغى الحقيقة في أمورك كلها إن الحقيقة واضح منهاجها  
لو أن عدك شنته بيماءها لارتد كالعذب الفرات أجاجها

والمبالغة المفرقة واضحة في كثير من الأبيات وبخاصة البيت الخامس والتاسع.

٨ — وللمخشري حكم صاغها شعراً ، كما أن له حكماً كثيرة صاغها  
نثراً ، ولكن حكمه الشعرية لا ترقى إلى أوج حكم المتنبي وأبي العلاء ، لأنها  
لا تصور دخائل النفوس ، واصطراع العواطف ومشكلات الأفراد والجماعات ،



والطب الناجع في علاج هذه المشكلات ، وإنما هي أقرب إلى الوعظ المألوف  
والنصح المعتاد ، كقوله (١) :

ليسَ السيادةُ أكلاماً مطرزةً	ولا مرا كيب يجرى فوقها الذهب
وإنما هي أفعال مذهبةٌ	ومكرماتٌ يليها العقل والأدب
وما أخو المجد إلا من بغى شرفاً	يوماً فهان عليه النفس والنَّشَب
وأفضل الناس حرٌّ ليس يغلبيه	على الحِجَابِ شهوة فيه ولا غضب

# خاتمة المطاف

أما بعد ، فقد آن للقلم أن يتوقف بعد تطواف طويل الشقة ، لكنه رغب  
الجهد ، حبيب المشقة ، لتبيين المعالم البارزة من الرحلة في صحبة الزمخشري .  
فما هذه المعالم ؟ .

(١)

لقد طالعنا اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية وفروعها ناضرة  
ناضجة في زمخشري مدينة وإقليم وفيما حولها ، وأشرقت علينا من سماء المنطقة  
كلها نجوم شع علمها وأدبها على الشرق وعلى الغرب من بخارى إلى قرطبة ،  
وما تزال أشعتها تنير الطرق للباحثين والدارسين .

(٢)

ورأينا اللغة العربية والثقافة الإسلامية لم تنتشر هنالك بحسب ،  
بل استقرت استقراراً مطمئناً ، فصبغت مناطق واسعة شاسعة عدة قرون ،  
ثم صارت كلها أو أكثرها اليوم من الاتحاد السوفيتي ، فباحسرتا عليها .  
ومعنى هذا أن العرب لم يقوموا وحدهم بنشر لغتهم وثقافتهم ودينهم ، بل  
إن سكان تلك الأقاليم شاركهم إذ سارعوا إلى الإسلام فاعتنقوه ، وأقبلوا  
على علومه ، وبادروا إلى اللغة العربية فأداروا بها ألسنتهم ، وأجروا أعلامهم ،  
واصطفوها لغة لهم ، ثم اندمجوا في آدابها وثقافتها فانتقلوا إلى العروبة انتقالاً ،  
وإن شئت فقل إنهم استعربوا استعراباً ، حتى صاروا ينافسون العرب في  
الإنتاج بالعربية ، والتأليف فيها ، والفوص إلى أسرارها ، وكان كثير من  
الأمراء والوزراء كلفا بالعلوم العربية والإسلامية ، حفيًا بالأدب والأدباء ،  
حتى لكانهم بنو العباس في عصرهم الذهبي ببغداد .

ورأينا الرحلة في طلب العلم أجدى وسائل طلابه ، إذ كان العالم الحجة مقصد العطاش إلى المعرفة يؤمونه من بلاد نائية ، كما تنقل الزمخشري من إقليم إلى آخر ، واستقى من مدينة بعد مدينة ، ودرس على هذا وسمع من ذاك ، ولم يأنف — وقد بلغ مرتبة المناظرة للعلماء — أن يجلس من أستاذ كبير جلسة المتعلم المشوق إلى أن يحيزه أستاذه .

وتبين لنا أنه كان مشغولاً بالمعرفة ، يتزود بها من الأساتذة تارة ومن الكتب تارة ، فتنوعت ثقافته ، وتميزت عقلية ، وتعددت مؤلفاته ، وكثر تلاميذه والمعجبون به ، فشغل معاصريه ومن بعدهم ، سواء في ذلك موافقوه ومخالفوه ، وما تزال بعض كتبه من المنابع الأصلية للفكر العربي الإسلامي إلى اليوم ، كالكشف وفنونه ، وأساس البلاغة وحقايقه ومجازاته ، والمفصل وشروحه .

— وليس من التزيد في شيء أن نصف الزمخشري بأنه كان أرفع المعتزلة تأويلاً للآيات القرآنية ، لتطابق مذهبهم . ومن حقه أن نشيد بأنه ما كان يريد من هذا التأويل الذي عني به نفسه إلا أن يزه الخالق سبحانه وتعالى عن أية شبهة قد تتسرب منها المشابهة لمخلوقاته أو المماثلة ، فقد كان الرجل عريق الدين ، عميق الإيمان ، عظيم التقوى ، غيوراً على الإسلام أشد الغيرة .

كذلك كان الزمخشري أول من فرق بين علوم البلاغة وقسمها إلى معان وبيان ، وجعل البديع تابعا لهما وحلية ، ثم جراه في هذا التقسيم السكاكي ومن بعده إلى اليوم .

وهو صاحب السبق إلى تأليف معجم لغوي مرتب على الحروف الهجائية ، هذا الترتيب الدقيق السهل الذي نجمه في أساس البلاغة ، كما نجد شبيهاً به في كتابيه الآخرين الفائق والمستقصى .

على أنه قد كان — وهو فارسي الأصل — مغرماً باللغة العربية يفضلها على سائر اللغات ، ومؤثراً للعرب يرفعهم إلى أسنى الدرجات ، لأنه ربط ربطاً

وثيقاً بين العروبة والإسلام ، وبين حب العروبة والإسلام ، وكان يخشى من الشعوبية على البلاد التي أسلمت واستعربت ، لأن الذي ينطق على العرب اليوم سينطق على الإسلام في الغد ، ولأن وحدة اللغة والثقافة والعقيدة والحضارة والتاريخ والوجدان المشترك كلها دعائم وطيدة في حصن الإسلام ، يسند بعضها بعضاً ، فلا بد من الحفاظ عليها موصولة متساندة ، وإلا تطرق الوهن إلى الصرح الأشم الذي يترعب به أعداء الإسلام أيما ترعب .

وعلى الذين يهتمون اللغة العربية بالعمق والجود أو النزارة أن يرجعوا إلى مؤلفات الزمخشري ، ليعلموا أن العربية ثرية مرنة نشور ، اتسعت في مؤلفاته للتعبير الدقيق عن قضايا التشريع وعلم الكلام والفلسفة والنحو والبلاغة ، وسلست لنثره الفني ولشعره ، كما وسعت العلوم التي مارسها سابقوه ومعاصروه ولاحقوه ، ولم تتعثر إلا حينما تمثر أهلها ، وتخلفوا عن مسايرة الزمن ، لأن اللغات لا تحيا وحدها بمعزل عن المجتمع الذي يتكلم بها ويقرأ ويؤلف ويعبر .  
(٩)

والخير لمن ينصرفون عن العلوم والآداب طموحاً إلى متاع زائل أن يتأسوا بالزمخشري ، إذ أنه قلق في أول حياته ، ثم تغلب على مثل هذا الطموح ، فانصرف إلى الإنتاج ، لأنه وجد فيه المجد الذي لا يفنى ، والجاه الذي لا يحول ، والسعادة التي لا يرنقها شيء ، حتى لقد استعاض بمؤلفاته عن الزوجة والبنين ، بل فضلها عليهم تفضيلاً .

وإني لأمل أن تشرق علينا كتبه التي توارت ، فقد كان كتابه ( المستقصى في أمثال العرب ) محتجباً لم يطبع إلا منذ ثلاث سنوات ، ولعل فيها أو في عدد منها فيضا غزيراً يروى النظامين .  
(١٠)

وأرجو أن يطبع ديوانه ، فإن به شعراً كثيراً يتراوح بين التوسط والجودة ، وهو في حاله تصوير لبعض مظاهر المجتمع الذي عاصره ، ول بعض الأحداث التي مرت به ، وهو صورة لنفسه ، وأفنان في دوحة أدبه .

## المراجع

١ — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . شمس الدين المقدسى . ليدن . سنة ١٩٠٢ .

٢ — أساس البلاغة . الزمخشري . مطبعة دار الكتب بالقاهرة ( ١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م )

٣ — أطواق الذهب في المواعظ والخطب . الزمخشري . بشرح الشيخ يوسف الأسير . الطبعة الثالثة ببيروت سنة ١٣١٤ هـ

٤ — أعجب العجب في شرح لامية العرب . الزمخشري . الطبعة الثانية سنة ١٣٢٤ هـ .

٥ — الأعلام — الأستاذ خير الدين الزركلى . الطبعة الثانية .

٦ — أمالى المرتضى . السيد المرتضى . القاهرة سنة ١٩٠٧ .

٧ — إنباه الرواة على أنباء النحاة . القفطى . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٧٤ هـ . ١٩٥٥ م .

٨ — الأنموذج في النحو . الزمخشري . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٩ هـ .

٩ — الانتصار أبو الحسين الخياط . القاهرة ١٩٢٥ م

١٠ — الانتصاف من الكشاف . أحمد بن المنير السكندرى . على هامش الكشاف .

١١ — الأنساب . السمعاني . نسخة مصورة سنة ١٩١٢ م

١٢ — إيران في عهد الساسانيين . كريستنس . ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . القاهرة ١٩٥٧ م

- ١٣ — البداية والنهاية في التاريخ . ابن كثير . مطبعة السعادة بمصر .
- ١٤ — البصائر والذخائر . أبو حيان التوحيدى . بتحقيق الأستاذين .  
أحمد أمين والسيد طلبة صقر . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٧٣ هـ . ١٩٥٣ م
- ١٥ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . السيوطى . مطبعة السعادة .  
سنة ١٣٢٦ هـ .
- ١٦ — البلاغة العربية : تاريخ وتطور . الدكتور شوقي ضيف . دار  
المعارف سنة ١٩٦٥ . القاهرة
- ١٧ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .  
مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٦٧ هـ . سنة ١٩٤٨ م
- ١٨ — تاريخ آدب اللغة العربية . جورجى زيدان . دار الهلال  
سنة ١٩٥٧ م .
- ١٩ — تاريخ آل سلجوق . العماد الأصفهاني . مطبعة دار التأليف بمصر .
- ٢٠ — تاريخ أبي الفدا . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .
- ٢١ — تاريخ الأدب في إيران . برون . ترجمة الدكتور أمين الشواربى .  
مطبعة السعادة . سنة ١٣٧٣ هـ . سنة ١٩٥٤ م .
- ٢٢ — تاريخ الحضارة الإسلامية . ف . بارتولد . ترجمة الأستاذ حمزة طاهر .  
مطبعة دار المعارف .
- ٢٣ — تاريخ الرسل والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية بمصر .
- ٢٤ — تاريخ الفلسفة في الإسلام . دى بور . ترجمة الدكتور محمد أبو ريده .  
القاهرة سنة ١٩٢٣ م
- ٢٥ — ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . مطبعة دار المعارف .
- ٢٦ — ثلاث رسائل للجاحظ . نشرها يوشع فنكل

- ٢٧ — الجبال والأمكنة واللباه . الزمخشري . ليدن سنة ١٨٥٥ م  
٢٨ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية . فون كريم .  
ترجمة الدكتور مصطفى بدر .

- ٢٩ — الحيوان . للجاحظ . بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون  
٣٠ — الدولة الخوارزمية والمغول . الأستاذ حافظ حمدي . مطبعة الاعتماد  
سنة ١٩٤٩ م

- ٣١ — الدولة العباسية . الأستاذ حسن خليفة . الطبعة الأولى .  
٣٢ — ديوان جرير . مطبعة الصاوي بالقاهرة .  
٣٣ — ديوان الزمخشري . مخطوط بدار الكتب . أدب ٥٢٩ .  
٣٤ — ديوان المتنبي . بشرح البرقوقى . المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ  
١٩٣٠ م

- ٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأخيار . الزمخشري . مخطوط بدار الكتب  
١٥٥ أدب .

- ٣٦ — الرحلة المغربية . محمد العبدري البنسى . تحقيق الأستاذ أحمد بن  
جدو . نشر كلية الآداب الجزائرية

- ٣٧ — الرسالة القشيرية . القشيري  
٣٨ — زرادشت الحكيم . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة نهضة مصر  
سنة ١٩٥٦ م .

- ٣٩ — شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون . ابن نباتة . تحقيق  
الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

٤٠ — سلاجقة إيران والعراق . الدكتور عبد المنعم حسنين . القاهرة

سنة ١٩٥٩ م

٤١ — سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي . محمد بن أحمد النسوي ،

تحقيق الأستاذ حافظ حمدي مطبعة دار الفكر العربي سنة ١٩٥٣ .

٤٢ — شرح أدب الكاتب . الجواليقي . مطبعة القدس سنة ١٣٥٠ هـ .

٤٣ — شرح المفصل . موافق الدين يعيش بن علي بن يعيش . إدارة

الطباعة المنيرية بمصر .

٤٤ — ضحى الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة دار التأليف سنة

١٣٥٥ هـ . ١٩٣٦ م .

٤٥ — طبقات الشافعية الكبرى . السبكي . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٥٤ .

٤٦ — طبقات المفسرين . السيوطي . طبعة أوروبا .

٤٧ — الطراز . يحيى بن حمزة العلوي . مطبعة المقتطف سنة ١٣٣٣ هـ .

سنة ١٩١٤ م .

٤٨ — ظهر الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف سنة

١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م .

٤٩ — عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح . بهاء الدين السبكي .

من شروح التلخيص . القاهرة ١٣٤٢ هـ .

٥٠ — علم الأخلاق لأرسطو . ترجمة الدكتور أحمد لطفي السيد .

٥١ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .

٥٢ — الفائق في غريب الحديث . الزمخشري . تحقيق الأستاذين علي

البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .



٥٣ - الفرق بين الفرق . البغدادى . مطبعة الحلبي ١٣٦٤ . ١٩٤٥ م

٥٤ - فى علم النفس . الأستاذ حامد عبدالقادر والأستاذ محمد عطية الإبراشى

٥٥ - القاموس المحيط . الفيروز آبادى

٥٦ - قلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب . لليرزا يوسف خان . مطبعة

التمدن بمصر سنة ١٣٢١ هـ

٥٧ - الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .

٥٨ - الكشف . الزمخشري . الطبعة الأولى بالمطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ

٥٩ - كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . حاجى خليفة . الطبعة

لأولى سنة ١٣١١ هـ

٦٠ - لسان الميزان . ابن حجر العسقلانى . الطبعة الأولى بالهند سنة ١٣٣١ هـ

٦١ - مجموعه رسائل للجاحظ . طبعة ساسى

٦٢ - محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية . محمد الخضرى . الطبعة

الرابعة سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م

٦٣ - مختصر تاريخ العرب . سيد أمير على . مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٨ م

٦٤ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان . أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعى .

الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف النظامية محيدر آباد الدكن ١٣٣٨ هـ .

٦٥ - المستقصى فى أمثال العرب . الزمخشري . مطبعة حيدر آباد الدكن

سنة ١٣٨١ هـ - سنة ١٩٦٢ م

٦٦ - معجم الأدباء . ياقوت . طبعة الدكتور فريد رفاعى

٦٧ - معجم البلدان . ياقوت . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م

٦٨ - مفاتيح الغيب . الفخر الرازى . المطبعة الأميرية ١٢٨٩ هـ

٦٩ - مفتاح العلوم - السكاكى .

٧٠ - مقامات الزمخشري . بشرح الزمخشري . الطبعة الثانية بمصر ١٣٢٥ هـ

٧١ - مقدمة الأدب . الزمخشري . القسم الأول والثاني . مطبعة ليبسيك

١٨٤٣ م والقسم الثاني إلى الخامس مخطوط بدار الكتب ٢٧٢ لغة .

٧٢ - مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي . مطبعة

لجنة البيان العربي بمصر

٧٣ - الملل والنحل . الشهرستاني . طبعة الجمعية الفلسفية بمصر .

٧٤ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن . الدكتور مصطفى الجويني .

دار المعارف

٧٥ - المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل المرتضى . مطبعة

دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٦ هـ

٧٦ - مذهب رحلة ابن بطوطة . الأستاذ أحمد العوامري والأستاذ

محمد أحمد جاد المولى . المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م

٧٧ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . المقرئ . القاهرة

١٣٢٦ هـ

٨٧ - ميزان الاعتدال في معرفة الرجال . شمس الدين الذهبي . مطبعة

السعادة سنة ١٣٢٥ هـ

٧٩ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ابن تقي بردي . مطبعة

دار الكتب سنة ١٣٥٣ هـ - سنة ١٩٣٥ م

٨٠ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء . ابن الأنباري . طبعة مصر سنة

١٢٩٤ هـ

٨١ - نقد العلم والعلماء . ابن الجوزي . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٠ هـ

( م ٢٠ - الزمخشري )

٨٢- نوابغ الكلم . الزمخشري . الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ -

سنة ١٩١٤ م

٨٣- وفيات الأعيان . ابن خلكان . تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد

الحمد . القاهرة ١٩٤٨ م

٨٤- يتيمة الدهر . الثعالبي . المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠٠ هـ

# الفهرس

مقدمة . . . . . ٣

## تخصيصة

يشتبه

١ - خوارزم . . . . . ٩ - ٥

موقعها ، مكانتها بعد الفتح ، وصفها قديما : وصف المقدسي ، وصف  
ياقوت ، وصف ابن بطوطة ، بعض مدنها ، مدينة زرخشر .

٢ - الحياة السياسية . . . . . ٩ - ١٤

خضوع البلاد للحكم العربي مدة ، خضوعها للدولة السامانية ، عناية  
السامانيين باللغة الفارسية واللغة العربية ، حذبهم على السنة .

خضوعها للدولة السلجوقية ، آثار الوزير نظام الملك في تشجيع العلوم  
والآداب .

خضوعها للدولة الخوارزمية ، السلاطين الذين أدركهم الزرخشري :

٣ - الحياة الثقافية . . . . . ١٥ - ٣٤

كلمة عامة عن استعراب أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر ، كثرة  
العلماء والمؤلفين والمدارس والمكتبات هناك ، تشجيع الحكام للحركة  
الفكرية والأدبية ، ميزة أهل خوارزم في اتجاههم الفكري .

لمحة إلى إقليم خوارزم خاصة ( ١٦ )

غنى الإقليم بالعلماء والأدباء ، كلف السلاطين بتشجيع العلم والآداب ،

ديوان الإنشاء ، إنتاج العلماء والأدباء بالفارسية والعربية ، أمثلة لهم ، مناهج المؤلفين في النحو والصرف والعروض ، منهجهم في اللغة ، منهجهم في البلاغة .  
المعتزلة (٢٢) . كثرتهم بالعراق وفارس وخراسان وما جاورها ، تأييد البويهيين لهم ، غلبة الاعتزال على خوارزم .  
القضاء (٢٥) : غلبة مذهب أبي حنيفة ، نظام التقاضى .

### لمحة إلى المنطقة كلها (٢٦)

كثرة العلماء والمؤلفين والأدباء ، جهود البويهيين والسامانيين والسلاجقة في تنشيط العلم والأدب ، فضل الوزير نظام الملك ، المكتبات وأثرها ، علماء الحديث والفقه ، علماء اللغة والأدب ، الفلاسفة ، المتصوفة .

## الفصل الأول

٣٥ - ٤٧

### حياته

نسبه ، مولده ، دراسته بزنجشهر ، رحلته إلى بخارى (٣٥) مدحه نظام الملك ، دلالة هذا المدح (٣٦) لماذا لم ينل ما أراد ؟ يأسه واتجاهه إلى خراسان ، مدحه بعض رجال الدولة (٣٨) دلالة هذا المدح (٣٩) رحلته إلى أصفهان عاصمة السلاجقة ، مدحه ملكها (٤٠) يأسه من هؤلاء جميعا ، عزمه على الترفع والعكوف على التأليف ، رحلته إلى بغداد (٤١) اتجاهه إلى مكة ليقم بها ، حفاوة أميرها ابن وهاس به (٤٢) اطمئنانه إلى الإقامة بمكة ، زيارته همدان (٤٣) تطوافه بالجزيرة ، عودته إلى وطنه ، لومه نفسه على هذه العودة (٤٤) رجوعه إلى مكة ، تعريجه على الشام ، تشجيع ابن وهاس له على تأليف الكشف (٤٥) سفره إلى خوارزم ، تعريجه على بغداد (٤٦) إقامته بخوارزم حتى الوفاة (٤٧) .

٥١ — ٤٨

## الفصل الثاني

### أساتذته

أبو مضر محمود بن جرير الضبي (٤٨) ، علماء بخارى ، أبو منصور الحارثي ،  
أبو سعد الشقاني ، أبو الخطاب بن أبي البطر (٤٩) أبو علي الحسن بن المظفر  
النيسابوري (٥٠) الدامغاني ، ابن الشجري ، أبو منصور ابن الجواليقي ، عبد الله  
ابن طلحة الياقوبي (٥١) .

٥٥ — ٥٢

## الفصل الثالث

### تلاميذه

كثرة تلاميذه في خراسان والعراق وخوارزم . أمثلة لهم ( ٥٢ — ٥٤ )  
استجازة بعضهم له (٥٤) تلاميذ كتبه (٥٤) .

٦٣ — ٥٦

## الفصل الرابع

### مؤلفاته

جهود خوارزم في حماية الإسلام ، آثار النهضة العلمية والأدبية التي بلغت  
أوجها في القرن الرابع (٥٦) شغل الزمخشري بالدراس والبحث ، فراغه للعلم ،  
استعاضته بكتبه عن النسل (٥٧) .

مؤلفاته في العلوم الدينية ورجالها (٥٨)

مؤلفاته في اللغة (٥٩)

مؤلفاته في النحو (٦٠)

مؤلفاته في العروض (٦١)

مؤلفاته في الأدب (٦١)

٩٨ — ٦٤

## الفصل الخامس

### معالم شخصيته

معنى الشخصية (٦٤) صفاته الجسدية (٦٥) شغفه بالتقافة (٦٥) اعتزاله (٦٧) عزه نفسه (٧٠) بين الطموح والقناعة (٧٣) تدينه (٧٨) تواضعه (٨٤) حبه للعرب والعربية (٨٨) قسوته على مخالفيه (٩١) عزوبته (٩٦)

٢٤٤ — ٩٩

## الفصل السادس

### في رحاب التفسير والتأويل

لمحة إلى التفسير قبل الزمخشري (٩٩) علّة المفسر في رأى الزمخشري (١٠٠) تأثيره بعد القاهر الجرجاني (١٠٢) المعتزلة الذين سبقوه إلى التأويل (١٠٣) القاضي عبد الجبار الهمداني وجهوده (١٠٤) .

## الكشاف

الباعث على تأليفه (١٠٨) بعض من نقل عنهم : القاضي عبد الجبار ، مجاهد ، عمرو بن عبيد (١٠٩) أبو بكر الأصب ، الزجاج (١١٠) الرمانى ، عبد الله بن دستوريه ، سيبويه ، الجاحظ ، الواقدي ، مئآت من القراء واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين (١١١)

### أهم مباحث الكشاف

#### أولا — في خضم المعتزلة

لمحة إلى المعتزلة ونشأة مذهبهم (١١٢)  
أصول المعتزلة وكيف أيدھا الزمخشري (١١٩)

## (١) التوحيد

معناه عندهم ( ١١٩ ) معتقدات بنوها على التوحيد :

١ - نفي الصفات المستقلة القديمة ( ١٢٠ )

٢ - نفي التشبيه ( ١٢١ ) .

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « ولما جاء موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي » ، تعليق ابن المنير ( ١٢١ ) .

تأويله لقوله تعالى : « ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » ( ١١٢ ) تعليق ابن المنير ( ١٢٣ )

تأويله لقوله تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ » ، تعليق ابن المنير ( ١٢٣ ) .

تأويله لقوله تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » ( ١٢٤ ) تعليق ابن المنير ( ١٢٥ ) .

تأويله لقوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » ( ١٢٥ ) .  
تأويله لقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ( ١٢٦ )

تأويله لقوله تعالى : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ( ١٢٦ ) .  
تأويله لقوله تعالى : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ( ١٢٦ )  
تعليق ابن المنير ( ١٢٧ )

٣ - إنكارهم رؤية العباد لله في الآخرة .

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « ولما جاء موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي ..... » ( ١٢٧ ) ، تعليق ابن المنير ( ١٣٠ )



تأويله لقوله تعالى : « لا تُدركه الأبصار » ( ١٣٤ ) تعليق ابن المنير ( ١٣٤ )

تأويله لقوله تعالى : « وُجوهٌ يومَئذٍ ناضرةٌ إلى ربِّها ناظرةٌ » ( ١٣٥ )  
٤ — رأيهم في أن القرآن مخلوق

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » ( ١٣٦ ) تعليق ابن المنير ( ١٣٧ )

## ( ٢ ) العدل

١ — معناه عندهم ( ١٣٧ ) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « إنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الصَّمُّ البكمُ الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون » ( ١٣٨ ) تعليق ابن المنير ( ١٣٩ )

٢ — نظرية الصلاح والأصلح ( ١٤٠ ) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « وَحَلَّى اللَّهُ قِصْدُ السَّبِيلِ ، ومنها جائزٌ ، ولو شاء لهداكم أجمعين » ( ١٤١ ) تعليق ابن المنير ( ١٤١ ) .

تأويله لقوله تعالى : « فَأَخْرَجَ لَهُمِ عَجَلاً جَدَّاً لَهُ خُورٌ ، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى » ( ١٤٢ )

تأويله لقوله تعالى : « لا يُسألُ عما يفعلُ وهم يُسألون » ( ١٤٢ ) تعليق ابن المنير ( ١٤٢ )

تأويله لقوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة . . . » ( ١٤٣ ) تعليق ابن المنير ( ١٤٣ )

تأويله لقوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » ( ١٤٤ ) .

## ٣ — نظرية الحسن والقبح الذاتي ( ١٤٤ )

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل » ( ١٤٥ ) تعليق ابن المنير ( ١٤٦ ) .

تأويله لقوله تعالى : « وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يُبين لهم ما يتقون » (١٤٦) تعليق ابن المنير (١٤٧) .

تأويله لقوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (١٤٧) تعليق ابن المنير (١٤٧) .

### (٣) حرية العباد

معنى هذه الحرية (١٤٨) تسميتهم أنفسهم أهل العدل (١٤٨) لماذا أطلق عليهم خصومهم لفظ القدرية (١٤٨) تبرؤهم من هذه التسمية ، أدلتهم على مذهبهم (١٤٩) توسط الأشعرى بين مذهبهم ومذهب الجبرية (١٥٠) .

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » (١٥٠) تعليق ابن المنير (١٥٠) .

تأويله لقوله تعالى : « ومن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » (١٥١) تعليق ابن المنير (١٥١) .

تأويله لقوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم . . . » (١٥١) تعليق ابن المنير (١٥٢) .

تأويله لقوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » (١٥٣) .

تأويله لقوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (١٥٣) تعليق ابن المنير (١٥٤) .

### (٤) الوعد والوعيد

معناها (١٥٥) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « إن الله لا يفر أن يُشرك به ويففر ما دون ذلك لمن يشاء » (١٥٥) تعليق ابن المنير (١٥٦) .

تأويله لقوله تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فِجْزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا »  
(١٥٧) تعليق ابن المنير (١٥٧) .

تأويله لقوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ . . . » (١٥٨) تعليق ابن المنير (١٥٨) .

تأويله لقوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » (١٥٩) تعليق ابن المنير (١٥٩) .

### (٥) المنزلة بين المنزلتين

منشأ الخلاف في الحكم على مرتكب الكبيرة (١٥٩) الآراء في ذلك (١٦٠)  
دليل المعتزلة (١٦٠) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » (١٦١) تعليق ابن المنير (١٦١) .

تأويله لقوله تعالى : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » (١٦١) .

تأويله لقوله تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . . . » (١٦٢) .

تأويله لقوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » (١٦٢)  
تعليق ابن المنير (١٦٣) .

تأويله لقوله تعالى : « وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ . . . »  
(١٦٣) تعليق ابن المنير (١٦٤) .

تأويله لقوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » (١٦٤) .

تأويله لقوله تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » (١٦٥).

تأويله لقوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعَمَ ، إِنْ رَبُّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » (١٦٥).

## (٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

مراحلها (١٦٥) رأى الزمخشري (١٦٦)

### ثانياً — مذاهب فقهية

لم يقتصر الزمخشري على مذهبه الحنفي (١٦٧) أمثلة من عرضه للأحكام الفقهية :

في قوله تعالى : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتَ » (١٦٧).

في قوله تعالى : « وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » (١٦٧)

في قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ » (١٦٨)

في قوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَ ۖ ۝٠٠٠ » (١٦٨)

في قوله تعالى : « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ » (١٦٨)

في قوله تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » (١٦٩)

في قوله تعالى : « وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ

رَشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » (١٦٩)

في قوله تعالى : « لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُوفِ فِي أَيْمَانِكُمْ ... » (١٧٠)  
 في قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ  
 هَذَا » (١٧١)

في قوله تعالى : « الَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ... »  
 (١٧٢)

في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ » (١٧٣)

### ثالثاً - قراءات

عنايته بذكر كثير من القراءات (١٧٥) ذكره للمصاحف (١٧٥) ذكره  
 لروايات شتى (١٧٥) أمثلة للقراءات :

في قوله تعالى : « وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ . . » (١٧٧)

في قوله تعالى : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبِعْهَا فَلَهُ مَاسَلَفٌ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » (١٧٧)

به « (١٧٧)

في قوله تعالى : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا

بِالْقِسْطِ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ

حَقٍّ ... » (١٧٧)

في قوله تعالى : « قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا نكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » (١٧٨)

في قوله تعالى : « أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا » (١٧٨)

في قوله تعالى : « سماعون للكذب أكالون للشعث » (١٧٨)

في قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (١٧٩)

في قوله تعالى : « ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا » (١٧٩)

في قوله تعالى : « وما هو على الغيب بضنين » (١٧٩)

#### مفاضلة بين القراءات

في قوله تعالى : « وإنا لجميع حذرون » (١٨٠)

في قوله تعالى : « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ... » (١٨٠)

في قوله تعالى : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » (١٨١)

#### استبعاده القراءات الشاذة وإنكارها

في قوله تعالى : « أفلم يئأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا »

(١٨١)

#### رابعا — آراء نحوية

تعرضه للإعراب (١٨٢) أمثلة للآيات التي عرض فيها للنحو :

في قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما

بالقسط » (١٨٢)

في قوله تعالى : « ذلكم الله فأتى تؤفكون ، فالتق الإصباح وجعل الليل

سكنا والشمس والقمر حسبانا » (١٨٣)

في قوله تعالى : « إن يشأ يسكن الريح فيظللن روا كد على ظهره : » (١٨٤)

في قوله تعالى : « فلولاً كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض » (١٨٥)

في قوله تعالى : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » (١٨٥)

في قوله تعالى : « هو الذي يرثكم البرق خوفاً وطمعاً » (١٨٦)

في قوله تعالى : « لا أقسمُ بيومِ القيامة » (١٨٧)

### خامساً — مسائل لغوية

حرصه على تجلية بعض الدلالات الدقيقة ( ١٨٩ ) .

في قوله تعالى : « والذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » ( ١٨٩ ) .

في قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » ( ١٩٠ )

في قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » ( ١٩٠ )

في قوله تعالى : « وإذ آتينا موسى الكتابَ والفرقانَ لعلكم تهتدون » (١٩١)

في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ . . . » ( ١٩١ )

في قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكادُ أخفيها . . . » ( ١٩٢ )

في قوله تعالى : « وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا » ( ١٩٣ )

في قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا . . . » ( ١٩٤ )

في قوله تعالى : « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا » ( ١٩٤ )

### سادسا - نصوص شعرية

استشاده بالشعر كما استشهد سابقوه ( ١٩٥ ) لم يحرم الإسلام الشعر كله ( ١٩٥ ) أمثلة من استشاده بالشعر في تفسيره :

في قوله تعالى : « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكم » ( ١٩٦ )

في قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » ( ١٩٧ )

في قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين

اتبعوه في ساعة العسرة » ( ١٩٧ )

في قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » ( ١٩٨ )

في قوله تعالى : « يطفأ عليهم بكأس من معين » ( ١٩٩ )

في قوله تعالى : « وإنه لحب الخير لشديد » ( ١٩٩ )

في قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » ( ١٩٩ )

### سابعا - بلاغة ونقد

تمهيد ( ٢٠٠ ) كثرة البلغاء والأدباء والفلاسفة من المعتزلة ( ٢٠٠ ) عنايتهم

بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي ( ٢٠١ ) انتفاع الزمخشري بدراسات

المعتزلة والأشعرية وعبد القاهر الجرجاني ( ٢٠١ ) تفرقة الزمخشري بين علمي

البيان والمعاني ( ٢٠٢ ) ، رأيه أن علم البديع تابع لها ( ٢٠٣ ) تأثير السكاكي

بالمزمخشري ( ٢٠٣ ) تأثير يحيى بن حمزة العلوي به ( ٢٠٤ )

أمثلة مما ذكره من علم البيان :

#### ١ - التشبيه .

في قوله تعالى : « إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جملة صفر » ( ٢٠٥ )

#### ٢ - تشبيه التمثيل :



في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً . . . . » ( ٢٠٩ )

٣ — الاستعارة :

في الآية السابقة

في قوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » ( ٢٠٩ )

في قوله تعالى : « وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين الذين يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ » ( ٢١٠ )

الاستعارة المرشحة في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » ( ٢١١ )

في قوله تعالى : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » ( ٢١١ )

٤ — الكناية ، تفرقة بينها وبين التعريض ( ٢١٢ ) أمثلة لها :

في قوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم » ( ٢١٢ )

في قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ( ٢١٣ )

في قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ... » ( ٢١٣ )

في قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن

أقرب إليه من حبل الوريد » ( ٢١٤ )

في قوله تعالى : « إذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . . . . » ( ٢١٤ )

في قوله تعالى : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين »

( ٢١٤ )

• — الجواز المرسل ، حقيقة ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها . . . » (٢١٥)

في قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » (٢١٦)

في قوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (٢١٦)

٦ — الجواز العقلي ، معناه ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « يُضِلُّ بِكَ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا » [٢١٦]

في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم

وما كانوا مهتدين » [٢١٧]

في قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد »

(٢١٧)

## أمثلة من علم المعاني

١ — القصر ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن

مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (٢١٨)

في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » [٢١٨]

في قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » [٢١٨]

في قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » [٢١٩]

آيات أخرى [٢١٩]

٢ — الفصل والوصل ، أمثلة لهما :

في قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٢١٩)

في قوله تعالى : « قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » (٢٢٠)

في قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون

بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم يُنفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ..»  
(٢٢٠)

٣ — التوكيد

في قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون... »  
(٢٢١)

٤ — التقديم والتأخير ، أمثلة :

في قوله تعالى : « قل أغير الله أتخذ ولياً (٢٢١) »

في قوله تعالى : « أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » (٢٢٢)

في قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » (٢٢٢)

في قوله تعالى : « وظننوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » (٢٢٢)

٥ — الحذف :

في قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » (٢٢٣)

في قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ما ودّك ربك وما قلى » (٢٢٣)

٦ — الالتفات .. هو في رأيه من علم البيان وفي رأى البلاغيين بعده من علم المعاني .

في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » (٢٢٣)

تأثر السكاكي بالزخشرى

٧ — التعبير بالمضارع عن الماضي

في قوله تعالى : « والله الذي أرسل السلاح فتثير سحاباً فسقناه إلى

بلد ميت » (٢٢٥)

٨ — التعبير بالماضي عن المستقبل .

في قوله تعالى : « أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه » (٢٢٦)

في قوله تعالى : « ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله » (١٢٦)

٩ — الجملة الاسمية والجملة الفعلية . دلالة كل منهما

في قوله تعالى : « واخشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَدٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا » (٢٢٧)

في قوله تعالى : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزي بهم » (٢٢٧)

### أمثلة من علم البديع

١ — الجناس :

في قوله تعالى : « وجئتُك من سَبَأٍ نَبَأٌ يَقِين » (٢٢٨)  
في قوله تعالى : « وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك ويا سماءُ أَقْلِعِي » (٢٢٨)  
٢ — الطباق :

في قوله تعالى : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ » (٢٢٨)  
٣ — تأكيد المدح بما يشبه الذم :

في قوله تعالى : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (٢٢٩)  
٤ — اللف والنشر . معناه .

في قوله تعالى : « شهرُ رمضانَ الَّذِي أنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ . . . » (٢٢٩)  
٥ — المشاكلة ، معناها .

في قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها » (٢٣٠)

في قوله تعالى « تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسك » (٢٣٠)

## ثامنا — تعليل وتمحيص

- ١ — قدرته على التعليل والتحميص . أمثلة لتعليله :  
 في قوله تعالى : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ... » ( ٢٣٢ )  
 في قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » ( ٢٣٣ )  
 في قوله تعالى : « للذكر مثل حظ الأنثيين » ( ٢٣٣ )  
 في قوله تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » ( ٢٣٤ )

## ٢ — أمثلة من تمحيصه :

- نفية رؤية الجن ( ٢٣٥ ) نفية الحسد بمعنى التأثير الفعال ( ٢٣٥ )  
 سخريته بما ذكره بعض سابقيه من هم يوسف عليه السلام بالمعصية ( ٢٣٦ )  
 استهجانه ما ذكروه عن تعلق داود عليه السلام بامرأة ( ٢٣٨ )  
 تعليقه الساخر على أن صراخ الطفل الوليد سببه مس الشيطان له ( ٢٣٩ )

## ٣ — أمثلة من متابعته لأغلاط سابقيه :

- في قوله تعالى : « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدناها نطلع عند قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » ( ٢٣٩ )  
 في قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ... » ( ٢٤٠ )

- في قوله تعالى : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » ( ٢٤٠ )  
 في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول ... » ( ٢٤٠ )

## قيمة الكشف وأثره

موسوعة علوم شتى (٢٤٢) إعجاب الزمخشري به (٢٤٢) ثناء ابن  
خلدون عليه (٢٤٢) ثناء يحيى العلوى (٢٤٣) اختصار البيضاوى والتسنى له  
(٢٤٤) تعقيب كثير من العلماء عليه (٢٤٤)

٢٤٥ — ٢٦٧

### الفصل السابع

في بحر اللغة

#### (١) أساس البلاغة

طريقة تدوين المعاجم (٢٤٥) طريقة الزمخشري (٢٤٦) عنايته ببيان  
المعاني الحقيقية والمجازية للكلمات (٢٤٦) ذكر التصاريف والمشتقات والجموع  
والمزيدات ومعانيها مرتباً بعضها على بعض (٢٤٨) وضعها في عبارات  
أدبية (٢٤٨) بعض العبارات من كلامه (٢٤٨) أمثلة (٢٤٨) إغفاله  
بعض المواد (٢٥٢) قيمته وأثره (٢٥٢)

#### (٢) المستقصى في أمثال العرب

طريقة ترتيبه (٢٥٤) موازنة بينه وبين مجمع الأمثال للميداني (٢٥٥)  
نماذج منه (٢٥٦)

#### (٣) الفائق في غريب الحديث

تطور التأليف في غريب الحديث (٢٦٠)  
طريقة الزمخشري في الفائق (٢٦١) نماذج منه (٢٦٢)

#### (٤) أعجب العجب في شرح لامية العرب

لماذا ألفه؟ (٢٦٤) عناية القدماء بشرح اللامية (٢٦٤) انصراف

الزنجشري في شرحه إلى النحو ( ٢٦٤ ) استشهاده بالآيات والشعر ( ٢٦٤ )  
عناية المستشرقين باللامية ( ٢٦٤ )

### (٥) الجبال والامكنة والمياه

موضوع الكتاب ( ٢٦٦ ) نماذج منه ( ٢٦٦ )

٢٨١ — ٢٦٨

### الفصل الثامن

في شعاب النحو

( ١ ) الفصل

تعريف به ( ٢٦٨ ) كثرة شروحه ( ٢٦٩ ) شرح ابن يعيش ( ٢٦٩ )

( ٢ ) مقدمة الأدب

أقسام الكتاب ( ٢٧٠ )

( ٣ ) الأنموذج

٢٨٧ — ٢٧٢

### الفصل التاسع

في حديقة النثر

نثره الفني ( ٢٧٢ ) موضوعاته ( ٢٧٢ ) الطابع العام لأسلوبه : كلفه بالسجع  
والمحسنات وحل للنظوم والتلاعب بالمصطلحات ( ٢٧٢ ) أمثلة ( ٢٧٣ ) .

( ١ ) نوابغ الكلم

موضوعه ، نماذج منه ( ٢٧٥ )

( ٢ ) القلمات

متى ألفها ؟ وأين ؟ ( ٢٧٦ ) موضوعها ( ٢٧٦ ) شرحه لها ( ٢٧٧ ) مثال من  
شرح ( ٢٧٧ ) نموذج من مقامة العزلة ( ٢٧٨ ) نموذج من مقامة النحو  
( ٢٧٩ ) من مقامة العروض ( ٢٧٩ )

( ٣ ) أطواق الذهب

موضوعه ( ٢٨٠ ) نماذج منه ( ٢٨١ )

(٤) النصائح الصغار والبوالغ الكبار

موضوعه (٢٨٢) نماذج منه (٢٨٢)

(٥) ربيع الأبرار

متى ألفه؟ (٢٨٣) موضوعه (٢٨٣) طريقته (٢٨٤)

نماذج منه (٢٨٤)

٢٨٨ — ٢٩٦

الفصل العشرون

في روضة الشعر

ديوانه المخطوط (٢٨٨) موضوعاته (٢٨٨) خصائص شعره (٢٨٩) :  
نضوب عواطفه في الأعم الأغلب (٢٨٩) رصانة أسلوبه (٢٨٩) بدء بعض  
المدائح بغزل تمهيدى لاجتماع فيه (٢٨٩) بدء بعضها بالشكوى والسخط  
والفخر (٢٩٠) حسن التخلص من التمهيد إلى المدح (٢٩٢) العناية بالمحسنات  
(٢٩٣) تخلصه من المحسنات حين يعبر عن عاطفة قوية (٢٩٤) البسالة في  
بعض شعره (٢٩٥) حكمه (٢٩٥) .

٢٩٧ — ٢٩٩

خاتمة المطاف

٣٠٠ — ٣٠٦

المراجع



## كتب للنزلف

١ — وحى النسيب في شعر شوقي :

دراسة لغزل شوقي من حيث بواعثه وخصائصه

٢ — وطنية شوقي :

دراسة مفصلة للوطنية في شعره ، ومظاهرها المختلفة ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقي ، وموازنات بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح لموقفه من الخلافة الإسلامية وأنه لا يتعارض مع وطنيته

٣ — الإسلام في شعر شوقي :

دراسة لتدينه ومظاهره في شعره من إيمانه بالله ، ومدائح له للنبى ، وإشادته بخصائص الإسلام ، ودفاعه عنه ، ودراسة فنية لهذا الشعر الدينى .

٤ — الفكاهة في الأدب :

يتناول الفكاهة وأصولها وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ويعرض فى تفصيل لدلالات الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .

٥ — البطولة والأبطال :

يعرض للبطولة وأسسها وأنواعها ، ولصور من أبطال العرب فى الجاهلية والإسلام ، وبعض أبطال مصر الحديثة ، مع التحليل .

٦ — أبوحيان التوحيدى .

دراسة لعصره السياسى والعلى والأدبى ، وعرض لحياته ، وثقافته ولصلاته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنات بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ .

٧ — سماحة الإسلام :

تحليل منصف لسماحة الإسلام في نواح شتى في السلم والحرب ، معتمد على التشريع والنصوص والتطبيق ، مع موازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع والقوانين والفلسفات

٨ — أدب السياسة في العصر الأموي :

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومذاهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعرا وخطابة وحوارا وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ، ودراسة لخصائصه ، وموازنات بين بعضه وبعض ، وعرض للعصبية القبلية والجنسية وآثارها في الشعر والسياسة .

وبه ترجمة لبعض الأدباء الساسة .

٩ — سوسن :

قصة مصرية سامية العرض ، نبيلة الغرض .

١٠ — مع ابن خلدون :

عرض لآرائه في التربية وعلم الاجتماع التي لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

١١ — الغزل في العصر الجاهلي :

دراسة للغزل في الجاهلية من حيث أصوله ، وبواعثه ، وأنواعه ، ونشأته كل منها وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل في الجاهلية والإسلام

١٢ — المرأة في الشعر الجاهلي :

دراسة مفصلة للمرأة في العصر الجاهلي من الشعر ، من حيث مكانتها في الأسرة والقبيلة والمجتمع ، أمّا وزوجة وبنات وأختاً وقرينة . ودراسة للمرأة في

الحياة العامة في السلم والحرب ، ولثقافتها وصناعتها . ودراسة للمرأة في الحياة الفنية ، من حيث أثرها في الفناء ، ومن حيث روايتها للشعر ، ونقدها له ، ولشاعريتها ، وأنواع شعرها وخصائصه ، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها في العالم القديم .

### ١٣ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي

بحوث تمهيدية ، وتوثيق للشعر الجاهلي ، ودراسة له من حيث تصويره لألوان الحياة الاجتماعية والدينية وللعادات والمعتقدات ، ولصلات العرب بغيرهم من الأمم .

### ١٤ — أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي

عرض وتحليل لصور الطبيعة في الشعر الجاهلي من حيوان ونبات وجماد وظواهر في الأرض والجو ، واستنباط الخصائص العامة في تناول الشعراء للطبيعة ، ودراسة لأصدااء البيئة في موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفهم .

### ١٥ — تيارات أدبية بين العرب والفرس :

يتناول صلات العرب والفرس في الجاهلية والإسلام ، وأثرها في كل من الشعبين في العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب . . الخ .

### ١٦ — المثل السائر لابن الأثير :

تقديم وتحقيق وتعليق

### ١٧ — الطبري

دراسة لعصره ، وبيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته وألوانها ، وعرض لتلاميذه ، ولؤلؤاته ، ودراسة لشخصيته ، ولمناهجه في التفسير والتاريخ والفقه .

١٨ — فن الخطابة :

دراسة للخطيب ، وعدته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة ، وأنواعها ، وأصولها ، وأسلوبها ، وتصور الأمم لها ، وتعقيب بدراسة مفصلة للخطابة السياسية في العصر الأموي .

١٩ — الجاحظ :

دراسة لعصره ، وحياته ، ومعالم شخصيته . ومؤلفاته ، وخصائصه الفنية ، مع تحليل بعض كتبه .

٢٠ — تحت راية الإسلام :

بحوث شتى في الدفاع عن الإسلام ، وفي الكشف عن ألوان من الثقافة الإسلامية .

٢١ — القومية العربية في الشعر الحديث :

دراسة لدعائم القومية العربية في تفصيل ، وعرض للشعر الذي أثر فيها وتأثر بها من الخليج إلى المحيط ، ودراسة فنية لهذا الشعر ، وتوضيح لجهود مصر قديما وحديثا في مجال القومية العربية .

٢٢ — الزمخشري .

دراسة لعصره ، وحياته ، وأساتذته ، وتلاميذه ، ومؤلفاته ، ومنهجه في التفسير وما تضمنه من تأييد مذهب المعتزلة ، وما اشتمل عليه من آراء فقهية ونحوية وبلاغية الخ . ودراسة لجهود الزمخشري في ميادين اللغة وغيرها ، وتحليل لنثره وشعره .

٢٣ — من أخلاق النبي :

عرض للاخلاق الإسلامية ، وموازنة بين المذهب الإسلامي والنظريات الفلسفية تكشف عن سمو المذهب الإسلامي ودراسة لبعض أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام كما تجلت في أقواله وسلوكه .

٢٤ — الجهاد :

دراسة للجهاد من حيث معناه وحكمه وأنواعه وعدته وجزاؤه ونتائجه ، وتعقيب بصور من شخصيات مجاهدة .

٢٥ — مع القرآن الكريم ( الجزء الأول ) :

بحوث شتى في التدليل العقلي على أن القرآن الكريم من عند الله ، وفي بيان إعجازه ، ونوع أسلوبه ، وحضه على العلم وعلى الفكر ، وفي توضيح الغرض من القسم فيه وفي بيان الثواب العاجل والعقاب الواقع ، وبيان أثره في الأدب شعراً ونثراً الخ .

٢٦ — مع القرآن الكريم ( الجزء الثاني ) :

بحوث شتى تعرض أثر القرآن الكريم في اللغة ، وتبين ألواناً من إيجاز الحذف فيه ، وتنفي أن به حروفاً أو كلمات زائدة ، وتوضح المعنى الحقيقي لكلمة أمي وأمين ، وتبين معنى الضلال والهدى والقدر والحرية والجزاء والعمل ، وتوضح أكاذيب اليهود على الله وعلى رسوله كما توضح أسماء يوم القيامة الخ .

٢٧ — بلاغة الإمام علي :

دراسة أساسها نهج البلاغة بين القبول والرفض ، وتوضيح لخصائص بلاغة الإمام علي في خطبه وفي كتبه .

٢٨ — حصاد القلم :

بحوث ومقالات نشرت بالمجلات الأدبية في مصر وفي العالم العربي .

٢٩ — ديوان شوقي :

توثيق وتبويب وشرح وتكملة لديوان أمير الشعراء أحمد شوقي .

مطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٠/٣٦٦٦

---

١ ٨٦٩ ٢٠١ ٩٧٧ ISBN

٢٥٠ قرشا

مطابع الهيئة القومية للكتاب